جزء "أرمينية": ص: (5 - 175)،

مطبوع ضمن كتاب المؤلف:

"مادة الفتح الإسلامي في أرمينية".

دار المؤسسة الخضراء - جدة، دار ابن حزم - بيروت،

ط (1)، سنة: (1419هـ / 1998م)، مجلد، في (504) صفحة

وهو في المجلد يقع من صفحة: (21 - 117).

ولعل جزء "بلاد الروم"،

مطبوع ضمن كتاب المؤلف: "مادة فتح بلاد الروم".

أرمينية

بلاد الروم

الجزيرة عند الفتح العربي ، 62 ، 79 .

حبيب الروم : حبيب بن مسلمة غازي أرمينية : 76
- الإمارة والجيش من شمال الفاتحين : 147
ميزة الموحدين من الصحابة : الصحبة ، والسنة ، والجهاد من كرام خير الأصحاب من أولهم
من المعارك الحاسمة : القادسية ونهاوند (مع الفرس) واليرموك وأجنادين (مع الروم) (81) 78 146

بسم الله الرحمن الرحيم

من أهم أسباب النصر والهزيمة [illegible] : 94

غزوة الحبشة بسبب قطع الجزيرة بين مسلمة ونفاة [illegible] : 106

منهج الفتوحات الإسلامية من العهد الأول وما بعده مختصر 159 -

تنظيم الجيوش من عهد الخلافة (أسلوب الصحابة) : 276
جيش الروم أول الإسلام : 277 -

هرقل : قصة حوار هرقل مع القدس من الفرس : 431 -

خالد بن الوليد مسير الجيش إلى [illegible] نقيب [illegible] 284

فتوح البلدان الإسلامية

أرمينية

بلاد الروم

اللواء الركن محمود شيت خطاب

دار قتيبة

الطبعة الرابعة

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار قتيبة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ص.ب : ١٤/٦٣٦٤

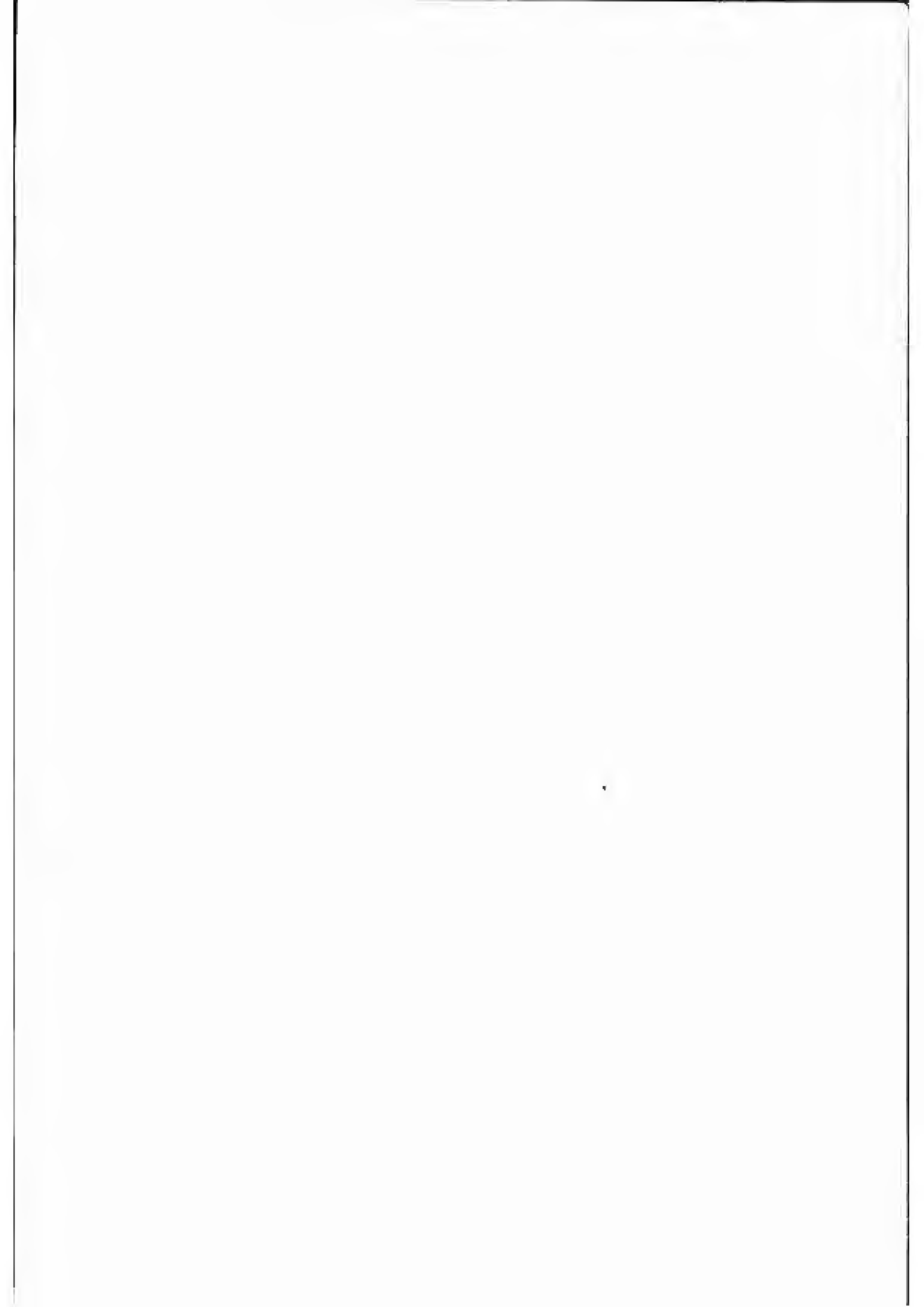
دمشق ص.ب : ١٣٤١٤

الجزء الأول

أرمينية

قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن: محمود شيت خطاب



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبيعة

١- الموقع والأقسام :

تقع إِرْمِيْنِيَة جنوب القوقاز ، في الشمال الشرقي من هضبة الأناضول ، وهي إقليم جبليّ[1] ، تمتدّ من مدينة (بَرْذَعَة) إلى (باب الأبوابِ) شرقاً ، ويقطعها (أي يحدّها) جبل (القَبَقْ) - وهو القفقاس الكبرى حالياً - من جهة الشمال ، وبلاد الروم غرباً[2] ، وبلاد العراق وبعض حدود الجزيرة[3] جنوباً .

وهذه الحدود العامة ، تعطي صورة تقريبيّة عن

(١) القاموس الاسلامي (١ / ٧٣) .

(٢) مختصر كتاب البلدان (٢٨٦) وصبح الأعشى (٤ / ٣٥٣) .

(٣) الاصطخري (١٨١) وصورة الأرض (٢ / ٣٣١) .



منظر أحد الوديان بجبال القوقاز

حدود إرْمِينِيَة في أيام الفتح الإسلامي ، وكانت حدودها الغربيّة بخاصة تقررها الأوضاع السائدة بين الفُرس والروم .

ويتكوّن إقليم إرْمِينِيَة من أربعة أقسام إدارية .

إرمينية الأولى : تتكوّن من (البيْسَجَان) و(أرّان) و(تَفَلِيْس) و(بَرْذَعَة) و(البَيْلَقَان) و(قَبَلَة) و(شَرْوَان) .

وإرمينية الثانية : تتكوّن من (جُرْزَان) و(صُغْدَبِيلْ) و(باب فَيْرُوز قُبَاذ) و(اللّكْز) .

وإرمينية الثالثة : وتضمّ (البُسْفُرَّجَان) و(دَبِيل) و(سِراج طَيْر) و(بَغْرَوَنْد) و(نَشْوَى) .

وإرمينية الرابعة : وتشمل (شِمْشَاط) و(خِلاط) و(قَالِيْقلا) و(أرْجِيْش) و(باجُنَيْس)[1] .

والجغرافيون العرب والمسلمون القُدامى ، متّفقون على هذا التقسيم ، ولكنهم مختلفون في التفاصيل ،

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢) .

واختلاف الجغرافيين الذين جاؤا بعد جغرافيي القرن الرابع الهجري هو بإضافة أسماء المدن الجديدة التي أنشأها المسلمون بعد الفتح .

۲ ـ الجبال :

(أ) يتكوّن سطح إقليم إرمينية من هضبة ترتفع بصورة تدريجيّة من المنخفض الأوسط الذي يجري فيه نهر (الرَسّ) إلى جهة الغرب ، حيث تشكّل القسم الشرقي من هضبة الأنضول ، ويبلغ أوج ارتفاعها عند سهل مدينة (أَرْضَرُوم) التي كان يطلق عليها قديماً : مدينة (قَالِيْقلا)، وتتكوّن هذه الهضبة من مرتفعات جبليّة ارتفاعها عن سطح البحر بين (۱٥۰۰ م ـ ۱۸۰۰ م).

ويقطع الإقليم عدّة سلاسل جبليّة ضخمة تشغل جزءاً كبيراً من مساحة الإقليم .

(ب) وجبل (القَبْق): يمتدّ من شمالي الإقليم ويُعَدّ من أعظم جباله ، من عدّة سلاسل جبليّة تمتدّ عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بصورة متوازية ـ على الأخص في القسم الغربيّ منها ـ حيث

ممتدّ إلى السّاحل الجنوبي الشرقيّ للبحر الأسود (بُنْطُس). أما اتجاهها نحو الجنوب الشرقي فيمتدّ إلى أن يتعامد على بحر (قَزْوين) وهو بحر (الخزَر)، حيث ينتهي على بعد ثلاثة أميال منه، ويترك سهلاً ساحلياً ضيِّقاً بينه وبين البحر[1].

ويبلغ متوسط ارتفاعه عن سطح البحر بين (٢٧٠٠ م - ٣٦٠٠ م) ويضمّ قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠ م)، ويبلغ طوله (١٢٠٠ كم)[2].

ويقطع هذا الجبل ممرّان: الأول عن طريق مدينة (باب الأبواب)[3]. والثاني عن طريق باب (اللّان)، ويطلق عليه حالياً ممر (دارْ يِيَل)[4]؛ وقد استخدم هذان الممران في الماضي والحاضر للتنقّل بين جانبي

---

(١) الأخلاق النفسية (١٤٨)، ويراد بكلمة القبق - الأمير، انظر تاريخ القوقاز (٢٥٨)

(٢) تاريخ القوقاز (١١).

(٣) باب الأبواب: دربند.

(٤) الموقع الجغرافي للعراق (٣٠٠)، ويسمى ممر (داريال)، انظر تاريخ القوقاز (١٥).

جبل القفقاس[1] ، وللعمليات العسكرية غزواً وفتحاً .

(ج) جبل الحارث والحُوَيرث[2] : ويسمى (القوقاز الصغرى)، ويمتدّ من الشمال العربي الى الجنوب الشرقي ، ويتكون من ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو القسم الجنوبي الشرقي الذي يبدأ من وادي نهر (الرَس) بسلسلتين من موضعين متباعدين ، ثم تضيق المسافة بينهما تدريجياً حتى يلتقيا ويحصرا بينهما بحيرة (سيفان) .

والقسم الثاني : يتكوّن من جبال القوقاز الصغرى الوسطي من قوس جبلي يتّجه نحو الجنوب ويصعب اجْتيازه .

والقسم الثالث : يتكوّن القسم الأخير من هذا الجبل من جبال معقّدة التكوين ، يتّصل من جهة بجبال مدينة (قالِيْقَلا) وهي جبال (الله أكبر) حالياً ، ومن جهة

---

(١) الموقع الجغرافي للعراق (٣٠٠).

(٢) نسب الجبل إلى الحويرث بن عقبة والحارث بن عمرو الغنويين اللذين شهدا مع سلمان ابن ربيعة الباهلي فتح أرمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٩٨).



طريق في أعالي جبال القوقاز

اخـرى يتّصل بجبـال (أكاري داغ) التي تعـرف باسم : جبل (سورام).

د . جبل كوه سيبان : يقع إلى الجنوب الغربي من مـدينة (خِـلاط) ، وهو جـبـل شـاهق مكتظ بـالسكّـان ، تغمره الثلوج طيلة السنة .

٣ـ الأنهار :

(أ) نهـر الكُـرّ : ينبع من كـورة (جُـرْزان) وهي (جُورجيا) الحاليّة في الجهة الغربيّـة لمدينـة (تَفْلِيْس) من جبال تدعى حالياً : (جليـدير)[١] ، ويـأخذ الاتجـاه الشرقي في مجراه ، ويمرّ بمدينة (تَفْلِيْس) فيقسمها إلى قسمين ، ثم يمـرّ بمـدينـة (خُنَـان)[٢] ، ثم يجـري إلى مـدينـة (شَكّـى)[٣] ، وتقـع مـديـنـة (جَنْزَة)[٤]

---

(١) تاريخ القوقاز (١٣).

(٢) حنان : مدينة من بلاد جرزان ، انظر معجم ابلدان (٣/٤٦٨).

(٣) شكى : ولاية بأرمينية ، انظر معجم البلدان (٥/٢٨٦).

(٤) جـزة : أعـظم مـديـنـة بـأران وهي بين شـروان وأذربيجـان ، نظر التفصيل في معجم لبلدان (٣/١٥١)

و(شَمكوْر)[1] إلى جانبه ، ويمرّ بالقرب من مدينة (بَرْذَعَة)، ثمّ يصل إلى مدينة (بَرْزَنْج)، ثم يتّجه نحو سهل (أرّان) فيجري فيه حتى يجتمع بنهر (الرَّسّ) ، ويبلغ طوله من منبعه حتى التقائه بنهر (الرَّسّ) نحو (٩٤٠ كم).

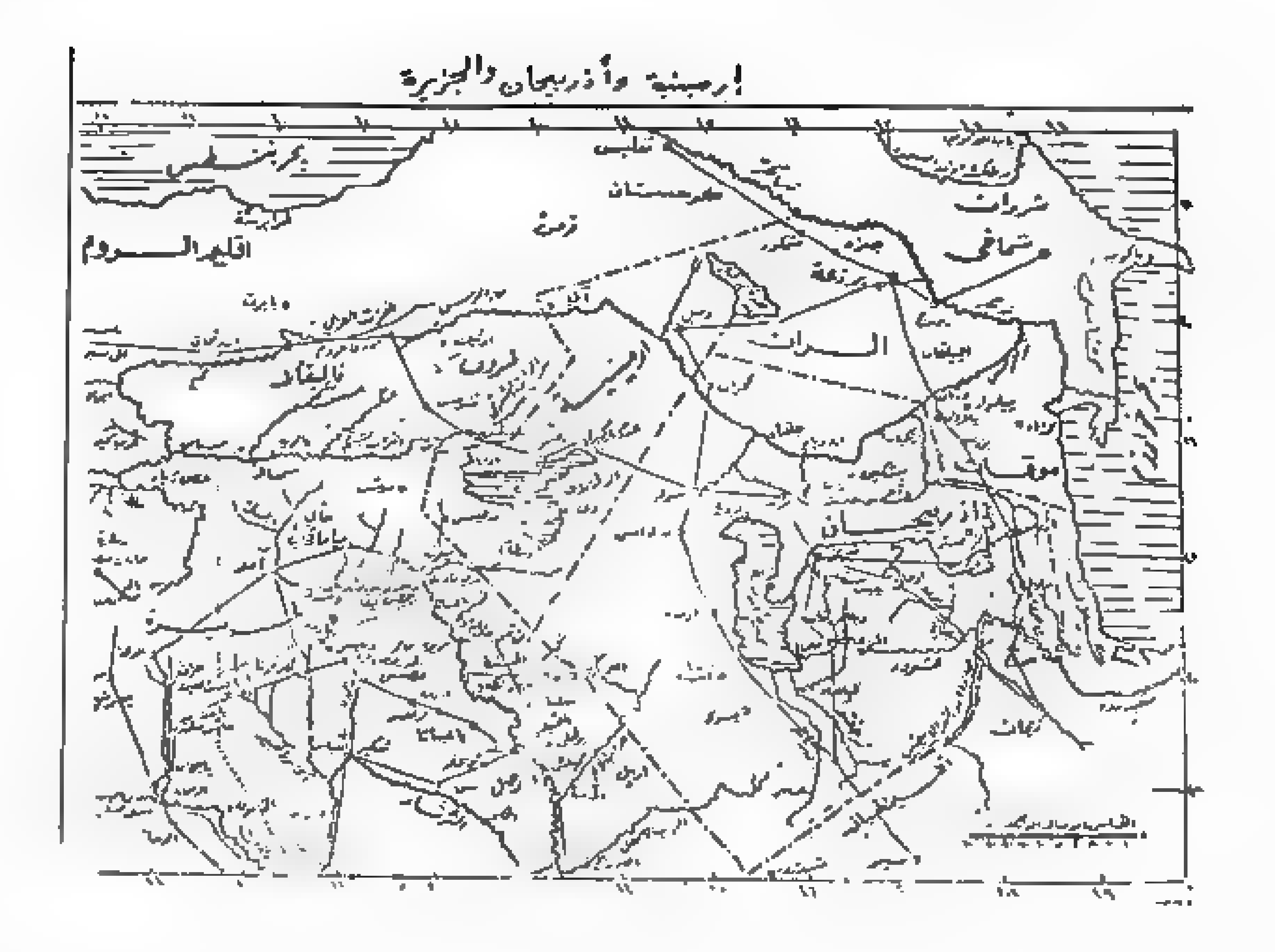
(ب) نهر الرَّسّ : ينبع من جبال (بنكول داغ) في غرب إرمينية ، ثم يتّجه في جريانه نحو الشّرق نحو مدينة (دَبِيْل)، ومنها إلى كورة (أرّان) حيث يصب به نهر (أرّان). ثم يمرّ بعدها بصحراء (البلاسجان)، وهي صحراء إلى شاطىء البحر ، فيكوّن هناك الحدود الطبيعية بين إقليم (أذْرَبِيْجَان) وإقليم إرمينية وأرّان ، فما جاوره من ناحية المغرب والشمال فهو أرّان ، وما كان من جهة المشرق فهو من أذربيجان .

ويقترب النهر من مدينة (وَرْثَان)[2] وهي من

---

(١) شمكور : قلعة بنواحي أران ، بينها وبين كنجة يوم واحد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٩٥).

(٢) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، وهو من أذربيجان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣)


إرمينية وأذربيجان والجزيرة
بحر بنطس
اقليم الروم
تفليس
شروان
شماخي
الران
موقان

أعمال أذربيجان ويمرّ بها ، ثم يجتمع بعد ذلك في نهر (الكُرّ) بالمجمع ، ويكونان نهراً واحداً يصبّ في بحر الخزر ، ويبلغ طول النهر (٥٥٠ ميلاً).

(ج) نهر الفُرات : ينبع من جبال (قالِيْقَلا)، وينحدر جنوباً حيث يسمى (قَره صو)، وبالقرب من مدينة (مَلْطَيَة)[1] يتّصل به فرع آخر ينبع من تركيا الحالية يسمى : (مراد صو)، ويستمر النهر بالجريان حتى يدخل بلاد الشّام ، ثم يدخل العراق حتى يلتقي بنهر دجلة في شط العرب ، الذي يصب في الخليج العربي .

٤ـ البحيرات :

أهمها بحيرة (أَرْجِيْش)، وتسمى بحيرة (وَانْ) حالياً وتقع الى الجنوب من مدن : (بركري) و(خِلاَط) و(أَرْجَيش) وشرقي مدينة (خِلاط) على مسافة يوم منها في سهل إرمينية ، ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح

(١) ملطية : بلدة من بلاد الروم (تركيا) مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠).

البحر (٥٦٤٠ قدماً)، ويبلغ عمقها (٩٩٠٠ قدماً)، وقد تكوّنت نتيجة لثوران البراكين .

وماء هذه البحيرة مالح ، ولهذا لا تستطيع الحيوانات المائية كالضفادع والسرطان العيش فيه ، أما الأسماك فتظهر في أثناء الفيضانات لمدة شهرين فقط .

وبعد بحيرة (وان) في الأهمية ، تأتي بحيرة (سيان) وتقع في سهل (أرّان)[1] بين التقاء جبلي الحارث والحويرث ، ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر (١٤٥٤٠) قدماً .

السكان

١ ـ الخَزَر :

من أكبر الأمم التي سكنت هذا الإقليم وأقواها ، وهم قوم من أصل تركي[2] ولكن لغتهم ليست تركية ولا فارسية ؛ بل هي لغة خاصة بهم ، لا يشاركهم فيها فريق من الأمم . والخزر لا يشبهون الأتراك ، فهم سود

---

(١) انظر التفاصيل في : فتح العرب أرمينية (١٩ ـ ٣٥).

(٢) إيران في عهد السلاطين (٤٣١).

الشعر ، وهم صنفان : الخزر البيض ، والخزر السمر (قره خزر)[1] . ويبدو أن لغتهم القديمة كانت اللغة التركية ، ولطول مدة اختلاطهم بالأمم الأخرى وابتعادهم عن الأتراك ، تطورت لغتهم وأصبحت لغة خاصة بهم ، تختلف عن التركية واللّغات المحليّة الأخرى ، ولو أنها لا تخلو من مفردات تركية ومفردات محليّة . وقد استقر الخزرُ في المنطقة التي تقع خلف مدينة (باب الأبواب) على الساحل الشمالي الغربي من بحر قَزوين (بحر الخزر) بالقرب من مصب نهر (الفولغا)[2] ، التي تعرف ببلاد الخزر ، وهي تمتدّ إلى جبال القفقاس في شمال بحر الخزر من جهة وإلى إقليم (خُوارِزْم) من (خُراسان)[3] من جهة اخرى . (وإتل) اسم مدينة واسم (نهر) أيضاً ، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة ، والإتل قطعتان : قطعة على غربي هذا النهر المسمى (إتل) وهي أكبرهما ، وقطعة على شرقيِّه ،

---

(١) معجم البلدان (٣ / ٤٣٤) . وانظر القاموس الاسلامي (٢ / ٢٣٣) .

(٢) القاموس الاسلامي (٢ / ٢٣٣) .

(٣) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة (٢٥٩) .

والملك يسكن الغربيّ منها[1] . ونهر (إتل) هو نهر (الفولغا) الذي يجري إلى بلاد الخزر من بلاد الروس والبلغار . والخزر نصارى ويهود ووثنيون ، وانتشر الإسلام بينهم بعد الفتح الإسلامي .

وكانت علاقة الخزر بالرّوم علاقة طيِّبة وبخاصة في المدة التي سبقت الفتح الإسلامي لإقليم إرمينية ، حيث أجرى الامبراطور هرقل مفاوضات معهم أسفرت عن عقد حلف بين الطرفين ، وأصبح الخزر حلفاء الروم ، وبالفعل حاربوا الفُرس في أرض القوقاز وإرمينية[2] في سنة (٦٢٧ م)، ثم حاصروا مدينة (تفليس) واستولوا عليها ، في الوقت الذي هبَّ فيه هرقل لشن هجوم جديد على الفرس ، ولعلّ العداء المستحكم بين الخزر والفرس هو الذي ساعد على توطيد العلاقات بينهم وبين الروم .

وهكذا تناوب على حكم إقليم إرمينية الروم

---

(١) معجم البلدان (٤٣٣/٣)، وانظر معجم البلدان (١٠٣/١) حول مدينة إتل ونهر إتل .

(٢) الروم (٢٢٧/١)

والفرس والخزر حتى مطلع القرن السابع الميلادي عند ظهور الإسلام ، إذ استطاع الروم بقيادة هرقل استعادة بعض أجزاء إقليم إرمينية من الفرس[1].

وكان موقف الخزر من الفتح الإسلامي عدائياً ، فانضموا الى جانب القوات البيزنطية التي قاومت الفاتحين دون جدوى .

٢- الأكراد :

الآثار القديمة الخاصة بالأكراد ، المكتشفة حتى اليوم ، لا تعطينا فكرة قاطعة عن أصل الأكراد ومنشئهم[2] ، ومن المحتمل جداً أنّ الأكراد هاجروا في الأصل من شرقي إيران إلى الغرب في منطقة كردستان واستوطنوا فيه منذ فجر التاريخ ، وهذا لا يمنع وجود أقوام في تلك المنطقة قبل الهجرة إليها ، فاختلط الشعب الوافد بتلك الأقوام واندمج فيها اندماجاً كلياً ، فصاروا أمة واحدة على مدى الأيام[3].

(١) إيران في عهد الساسانيين (٤٣١)

(٢) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٠).

(٣) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤١).

وقد ورد ذكر الأكراد في المصادر الأرمينيّة[1]، وكانوا موجودين في إرمينية في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد في منطقة بحيرة (وان) ، وفي القرن الأول قبل الميلاد استولى (ديكران) الثاني على منطقة الأكراد[2] ، ولا بدّ أنّ مدينة (خِلاط) الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة (وان) تحتوي على آثار وعاديات تخلّفت من قبل الأكراد[3] .

كما انتشر الأكراد في منطقة (أرّان) أنّهم نزحوا إليه وإلى (إرمينية) من (أذربيجان)، وقد قاتلهم سليمان بن ربيعة الباهليّ عند فتح كورة (أرّان)، فأسلم قسم منهم وأدّى عدد قليل منهم الصدقة[4] .

٣ـ اللَّكْز :

قوم لهم لغة خاصة بهم ولهم قوّة وشوكة ،

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٥).
(٢) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٤).
(٣) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٦).
(٤) البلدان لابن الفقيه (٢٩٣).

وباسمهم سُمِّيت بليدة خلف مدينة (باب الأبواب)[1] ، يقطنون جبل (القَبْق) وهو جبل القفقاس الكبرى ، بالقرب من مدينة (باب الأبواب)[2] وهم ذوو خلق وأجسام ولهم أرض واسعة وكور مأهولة ، ومجتمعهم يتكوّن من طبقات ثلاث : الطبقة الأولى طبقة الملوك ، والثانية طبقة الخماشرة ، والثالثة من الأكرة والمهان[3] .

٤ - الصَّنارِيَّة :

تمتدّ بلادهم بين قلعة باب اللاّن ومدينة تَفْلِيس ، ومن المحتمل أن يكون أصلهم عرباً[4] ، بحجّة أنهم أيدوا العرب المسلمين في أيام الفتح الإسلامي وقد أيّدت كثير من الأقوام الفتح وهم ليسوا عرباً . وقد استنصر بهم هرقل في هجومه على أقاليم فارس ، وهذا دليل على قوتهم العسكرية ، مما جعلهم مستظهرين على جيرانهم من الأمم ، وكانوا قبل الإسلام نصارى .

---

(١) معجم البلدان (٣٣٧/٧) .

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٤) .

(٣) المسالك والممالك للاصطخري (١٦٨ - ١٨٧) .

(٤) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (٢) .

وقد صالحهم حَبِيْبُ بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ ، وكانوا مع المسلمين مدّة الحكم الأموي ، ولكنهم نقضوا أيام العباسيين ، فحاربهم المنصور والرشيد ، فخضعوا للعباسيين أيضاً وأدوا الخراج[1] .

٥- الدُّودانيّة :

يدّعون بأنهم ينتسبون إلى دُوْدَان بن أسد بن خُزَيْمَة[2] فهم عرب ، ومن المحتمل أنهم من العرب الذين نقلهم كسرى أنو شروان من بلاد العرب إلى كور أرّان لدفاع عن بلاده من خطر الخزر ، فبنى لهم الحصون والقلاع ، وأطلق عليها . أبواب الدُّودانيّة[3] .

وقد صالحهم حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ عند فتح إقليم إرمينية[4] .

٦- الصُّغْد :

قوم من فارس ، يقطنون منطقة مدينة (صُغْدِبِيْل)

(١) انظر التفاصيل في . فتح العرب إرمينيه (٤٥ - ٤٧)

(٢) فتوح البلدان (٢٧٤) .

(٣) فتوح البلدان (٢٧٤) .

(٤) فتوح البلدان (٢٨٥) .

التي تقع على نهر (الكُرّ) في الجانب الشرقي منه قبالة (تفليس) والتي بناها كسرى أنو شروان وأنزلها قوماً من أهل الصُّغْد من أبناء فرس ، وجعلها مَسْلحة[1]

وقد حصن (الصُّغد) منطقتهم لحمايتها من هجمات الخزر وغيرهم .

٧ـ الأرمن :

سكان إرمينية الأصليون وهم ينتسبون الى الجنس الآري[2] ، وكانوا يعيشون في البلقان ، ثم استوطنوا آسيا الصغرى[3] ، وكانوا يعيشون حوالي مدينة (قُونيه) و(قَيْصَرِيّة) ومنها اتجهوا نحو جبال (أرارات) ، واستمرّ تقدمهم إلى جوار مدينة (أرضروم) وهي (قاليقلا) في القرن السادس قبل الميلاد حتى بحيرة (وان) وحوض نهر (الكُرّ)[4] .

---

(١) معجم البلدان (٥/٣٦٤)

(٢) تاريخ القوقاز (٢٠).

(٣) تاريخ إرمينيا (٦).

(٤) تاريخ القوقاز (٢٠).

٨ـ لغات السكان :

يتكلّم أكثرية سكان إرمينية اللُّغة الفارسية ثم العربية[1] ، والذين يتكلمون الفارسية لا يستطيعون التخاطب باللغة العربية ، عدا لتجار وأصحاب الصناعات فإنهم يجيدون العربية ويتخاطبون بها بطلاقة . أما سكّان مدينة (دَبِيْل) و(نَشْوَى) وضواحيها فيتكلمون الأرمينية[2] وكذلك سكان منطقة مدينة تَفْلِيس[3] .

وقد تعدّدت اللُّغات في جبل (القَبْق)، فهناك اثنتان وسبعون لغة فيه لا يفهم بعض سكانها بعضاً إلّا بترجمان[4] .

الكور[5] والمدن

١ـ كورة أرّان :

تمتدّ من مدينة (باب الأبواب) في الشمال الشرقي

---

(١) المسالك والممالك للأصطخري (١٩١ ـ ١٩٢).

(٢) المسالك والممالك للأصطخري (١٩٢).

(٣) مراصد الأطلاع (١/ ٢٠٧).

(٤) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٢٩٥).

(٥) الكور : جمع كورة ، وهي صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابدّ

لأقليم إرمينية إلى مدينة (تَفْلِيْس) غرباً ، ويحدّها نهر (الرَسّ) من الجنوب والجنوب الغربي [1].

ويعتبر نهر (الرَسّ) الحدّ الفاصل بين كورة (أرّان) وإقليم أذربيجان وأنّ كل ما يجاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من (أرّان) ، وما كان جهة المشرق فهو من أذْربيجان [2].

وكورة أرّان من أعمال إرمينية الأولى كما ذكرنا سابقاً ، وأهمّ مدن أرّان هي :

(أ) مدينة بَرْذَعَة : هي قاعدة كورة أرّان [3] وتقع على بعد ثلاثة فراسخ من نهر الكُر [4] وتشرب من جدول صغير يستمدّ مياهه من نهر (الثُرْثُور) الذي يبعد عنها

= لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٦) ، والكورة تطابق المحافظة في المصطلاحات الادارية الحديثة .

(١) المسالك والممالك للأصطخري (١٩٠)

(٢) معجم البلدان (١/ ١٧٠).

(٣) معجم البلدان (٢/ ١٢٠).

(٤) معجم البلدان (٢/ ١٢٠)

فرسخاً تقريباً[1].

تقع هذه المـدينة في أرض سهلة خصبـة[2] ، لها سور قوي فيه عدة أبواب ، وقد حـاصر سلمـان بن ربيعة الباهلي المدينة فلم يستطع اقتحـام سورهـا ، ولم يتمّ له فتحها إلاّ بعد أن صالحه أهلها[3].

وبقيت هذه المدينة محتفظة بمركزها عصمة لكورة أرّان حتى بعد فتحها ، حيث كانت مركزاً للأميـر المسلم الذي يتولى إقليم إرمينية .

(ب) مدينة باب الأبواب : تقع على ساحل بحر الخزر (قزوين) في أرض سهلة خصبة ، وتنتهي حـدودها عنـد جبـل (القَبْـق) وتـشـرف على وادٍ عـميـق في جبـل (القَبْق) ، ولا يستطيع احد العبور بين جانبي هذا الجبل إلاّ من تحتها ، وموقعها الممتاز هو الذي أعطاها اهميتهـا السّوقيّة ، فهي أهم المـافذ التي تـوصل بين جـانبي هذا الجبل .

(١) معجم البلدان (٣/ ١٠ ـ ١١).
(٢) أحسن التقاسيم (٣٧٥).
(٣) فتوح البلدان (٢٨٥).

وقد أدرك الفرس موقع هذه المدينة لحماية أقاليمهم في منطقة القوقاز من هجمات الخزر ولترك ، فبنى كسرى قباذين فيروز في هذه المنطقة سداً بين شروان وباب اللان كما بنى عدداً من المدن والقلاع ، ثم بنى ابنه أنو شروان سداً آخر في هذه المنطقة وسمي باسم سدّ : (باب الأبواب) ، ويمتدّ هذا السدّ من جبل (القَبْق) إلى بحر الخزر[1] .

(ج) مدينة البَلْيَقان : تقع في السّهل الممتدّ بين التقاء نهر (الرَّسّ) ونهر (الكُرّ) ، وهي إحدى المدن التي بناها قباذ للدفاع عن المنطقة من هجمات الخزر ، وهي قريبة من باب الأبواب[2] .

(د) مدينة قَبَلَة : تقع بالقرب من مدينة (باب لأبواب) ، أحدثها قباذ بن فيروز [3] ، وهي من المدن الدفاعية تجاه هجمات الخزر والترك .

---

(١) انظر التفاصيل في معجم لبلدان (٢/ ٩ ـ ١٤)

(٢) معجم البلدان (٢/ ٣٤٠) .

(٣) معجم البلدان (٧/ ٢٩) .

(هـ) مدينة شَمْكوْر : تقع بالقرب من مدينة (بَرْذَعة) إلى الشمال الغربي منها[1] في كورة أرّان ، وهي من المدن القديمة[2].

(و) مدينة بَرْزَنْج : تقع على نهار (الكُرّ) في جنوب مدينة (برْذَعة) في سهل (أرّان) الشرقيّ ، وفي هذه المدينة معبر على نهر (لكُرّ) يعبر منه إلى مدينة (شماخي) وتعتبر المفتاح الذي يؤدي الى مدينة (شَماخي) عاصمة (شِروان) وإلى مدينة (باب الأبواب) أيضاً[3].

(ز) مدينة مَسْقط : تقع في القسم اشمالي الشرقي من كورة (أرّان) بيں مدينة (باب لأبواب) و(اللّكَر) على بحر الخزر ، بناها أنو شروان بن قبذ لما بنى مدننة (باب الأبواب)[4] ، فهي مدينة دفاعية لصد هجمات الخزر دفعاً عن ممتلكات الساسانيين .

---

(١) تقويم لىلدان (٤٠٣).

(٢) معجم البلدان (٥/ ٢٩٥)

(٣) معجم البلدان (٢ / ١٢٣)

(٤) معجم البلدان (٨/ ٥٤).

(ح) مدينة شَرْوان : تقع قرب بحر الخزر من نواحي مدينة (باب الأبواب)، بينها مائة فرسخ ، بناها كسرى أنو شروان فسميت بأسمه ، قصبتها مدينة (شماخي)[1] وهي من المدن التي أُنشئت للدفاع عن إرمينية ضدّ هجمات الخزر المعتدين .

(ط) مدينة الشّابَران : تقع الى الجنوب من مدينة (باب الأبواب) في السفوح الشرقية لجبال القفقاس في أرض متموجة ، بناها أنو شروان[2] ، لتكون مدينة دفاعية تصدّ الخزر وغيرهم .

(ي) مدينة شَكّى : تقع على نهر (الكُرّ) قرب مدينة (تفْلِيس)[3].

٢ـ كورة السيسَجان :

تقع في إرمينية الأولى[4] في الجهة الغربية لكورة

---

(١) معجم البلدان (٥/٢٥٨).
(٢) معجم البلدان (٥/٢٠٥) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٣) والبلدان لابن الفقيه (٢٨٨).
(٣) معجم البلدان (٥/٢٨٦).
(٤) فتوح البلدان (٢٧٤).

أرّان[1] ، أي بين أرّان وكورة جُرْزان .

وكانت تحت نفوذ الخزر مع كورة أرّان والبُسْفُرْجَان وجُرْزان[2] ، ثم خضعت إلى نفوذ الفُرس بعد أن افتتح قُبـاذ ما كـان للخـزر في إقليم إرمينية . ولما تـولى أنو شروان بن قباذ الملك بنى في هـذه الكورة بعض القـلاع القـوية والتحصينـات العسكريـة لكي تثبت أمـام غـارات الخزر ، وأسكن في هذه القلاع ذوي البأس والنجدة[3] .

٣ـ كورة جُرْزان :

هي من أقسام إرمينية الثانية كما ذكرنا سابقاً ، وتقع في القسم الشمـالي الغربي منهـ ، وتعتبـر (جـورجيـا) الحالية قسماً من هذه الكـورة . وهي منطقـة جبلية تلتقي فيها الجبال (القَبْق) مع متداد جبل الحارث والحـويرث (القفقاس الصغرى) ، ويسع من شمالها نهر (الكُرّ) .

استولى عليها الفـرس على عهد أنـو شروان الـذي

---

(١) معجم البلدان (٥/ ١٩٧).

(٢) تاريخ اليعقوبي (١/ ٢٠٣).

(٣) تاريخ اليعقوبي (١/ ٢٠٣).

بني فيها (صُغدبيل) و(باب لاذِقَة) و(باب بارقة) ثم قصره الذي أسماه : (باب فيروز قُباذ)[1]، وهذه المدن حصون دفاعية لصدّ هجمات الخزر والترك ، ولكن الخزر استطاعوا الاستيلاء على هذه الكورة قبل الفتح الإسلامي وبقيت تحت سيطرتهم حتى قدم المسلمون الفاتحون ، ففتحها حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْري .

وأهم مدن هذه الكورة هي :

(أ) تَفْليس : قصبة كورة جُرْزان[2] ، تقع في وادي نهر (الكُرّ) ، إلى الغرب من مدينة (باب الأبواب)، تحيطها أرض سهلة ، وهي مدينة كثيرة الزروع والفواكه .

يمر نهر (الكَرّ) في وسط هذه المدينة ، وهو يقسمها إلى قسمين ، ويربط بين جانبي المدينة جسر ، ويتكلّم أهل المدينة الأرمينية[3] .

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٤) ومعجم البلدان (٣/ ٨٣).
(٢) معجم البلدان (٣/ ٨٣).
(٣) مراصد الاطلاع(١/ ٢٠٧).

(ب) صُغْدُ بِيْل .تقع على نهر (الكُرّ) من الجانب الشرقي قبالة (تَفْلِيْس) ، بناه أنو شروان حيث بنى (باب الأبواب) وأنزلها قوماً من أهل الصّغْد من أبناء فارس وجعلها مَسْلحة[1] .

وهذه المدينة مدينة دفاعية للثبات أمام هجمات الخزر والاتراك .

(ج) اللَكْز : تقع في جبل القفقاس خلف مدينة (باب الأبواب)[2] ، واعتبرها الجغرافيون العرب من أقسام إرمينية الثانية[3] ، ويسكنها قوم يعرفون باللَكْز ، وهم قوم أشداء أقوياء .

(د) باب فيروز قُباذ : قصر بناه أنو شروان له في كورة جُرْزَان بالقرب من حدود بلاد الروم ليكون حاجزاً منيعاً أمام غارات اللان والأتراك[4] والرّوم .

(هـ) خُنَان : مدينة من بلاد جُرْزان من فتوح

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٦٤) .

(٢) معجم البلدان (٧/ ٣٣٧) .

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٣) .

(٤) ايران في عهد الساسانيين (٣٣٨) .

حبيب بن مَسْلَمَة ، وتعرف بقلعة التراب لأنها على تل عظيم[1] ، وتقع إلى الشرق من مدينة (تَفْلِيس) على بعد اثنين وعشرين فرسخاً عنها ، بين نهر الكُرّ وروافده[2] .

(و) الجَرْذَمان : قلعة تقع بين مدينة (بَرْذَعَة) ومدينة (تَفْلِيْس) على بعد اثني عشر فرسخاً من شرقي مدينة (تفليس)[3] ، على أحد روافد نهر (شَمْكُور) ، بناها كسرى أنو شروان لتكون له من جملة المنظومة الدفاعية تجاه اللاّن والترك ، وهي في سهل يحاذي سهل (الكُرّ)[4] .

وهناك بعض المواقع والمدن والقلاع ، ورد ذكرها في فتح كورة (جُرْزان) ليس من السهل تثبيت مواقعها الجغرافية منها : جوررح ، وكسفربيس ، وكِسّال ، وسمْسَخي ، وكستسجي ، وشُوْشِت ، وبازليت ، وقد

---

(١) معجم البلدان (٣/٤٦٨).

(٢) المسالك والممالك للأصطخري (١٩٣) .

(٣) المسالك والممالك للأصطخري (١٩٢) .

(٤) فتح العرب إرمينية (٨٨).

فتح هذه المعالم حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ صلحاً[1].

٣ـ كورة البُسْفُرَّجان :

من أقسام إرمينية الثالثة كما ذكرنا سابقاً وتقع جنوب كورة (أرّان) في السهل الذي يقع بين منحدرات جبل الحارث والحُوَيْرث (القفقاس الصغرى) في الشرق وجبل (أرارات) في الغرب ، وتمتدّ حدود هذه الكورة . إلى مدينة (مُكْس)[2] الواقعة قرب مدينة (قاليقَلا) على بحيرة (أرْجِيش) ويجري في هذا السهل نهر (الرسّ) .

ومن أنهار هذه الكورة نهر الأكراد ، ويسمى أيضاً نهر (دَبِيْل)، ويسمى حالياً نهر (أردشاط) الذي تقع عليه مدينة (دَبِيْل) ، ويصبّ في نهر (الرسّ)، ومن أهم مدن هذه الكورة :

(أ) النَّشوى : أهم مدن هذه الكورة ، تقع في السهل الممتد بين نهر (الرسّ) في الجنوب ، وبين سفوح

---

(١) فتوح البلدان (٢٨٥)

(٢) مكس : موضع بأرمينية قرب قاليقلا ، انظر معجم البلدان (١٣٢/٨).

جبل الحارث والحُوَيْرث (القفقاس الصغرى) على (نَقْجَوان)[1] أو (نَخْجُوان) بلد من نواحي (أرّان) وهي مدينة (نَشَوَى)[2] ، بناها كسرى أنو شروان ، وكانت قبل الفتح الاسلامي خاضعة للروم ، وفتحها حبيب بن مَسْلَمَة على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وصالح أهلها على الجزْية وأداء الخراج .

(ب) دبِيْل : هي المدينة الثنية في هذه الكورة ، تقع قرب مدينة (يَرِفان) الحالية بناها كسرى أنو شروان وحصّنها لتكون حصناً دفاعياً تجاه الروم[3] .

(ج) سراج طَيْر : مدينة من مدن إرمينية الثالثة[4] ، ويبدو أنها مدينة دفاعية للروم .

(د) بَغْرَوَنْد : بلد معدود في إرمينية الثالثة[5] ،

---

(١) أنظرمعجم البلدان (٨/٣٠٧) .

(٢) معجم البلدان (٨/٢٨٩).

(٣) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٥-٣٦).

(٤) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٥٨)، وكانت تقع في بلاد الروم قبل الفتح انظر ابن خرداذبه (١٢٣).

(٥) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٤٥) ، وكانت تقع في بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي نظر ابن خرداذبه (١٢٣).

والظاهر أنه موقع دفاعي للروم .

(هـ) مُكْس : موضع بأرمينية من ناحية البُسْفـرجان قرب (قاليْقَلا)[1] .

(و) ألْباق : لا ذكر لها إلاّ في المسالك والممالك لابن خرداذبة[2]، ويبدو أنها تقع قريبة من (قاليْقَلا) .

(ز) جُرْنَى : بلد من نواحي إرمينيـة قرب (دَبِيْـل) من فتوح حبيب بن مسلمة الفهريّ[3] .

(ح) أرْتَشـاط : تقع جنـوب مدينة (دَبِيْـل) ، من فتوح حبيب بن مَسْلَمة ، وهي قرية القِرْمِز[4]

(ط) ذات اللُّجُم : معلقة في كورة البُسْفُرّجان[5] ، سميت بهـذا الأسم نسبة إلى لُجُم الخيـل ، وذلـك لأن المسلمين في أثناء هجومهم لفتح مدينة (تَفْلِيس) سرّحوا دوابهم وجمعوا لُجمهـا ، فخرج عليهم بغته سكّـان تلك

---

(١) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٣٢)

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٣).

(٣) معجم البلدان (٣/٨٩).

(٤) معجم البلدان (١/١٨٤).

(٥) فتوح البلدان (٢٨١)

المنطقة وقاتلوا المسلمين وانتصروا عليهم ، فسمي هذا الموضع : ذات اللُّجْم . ويظهر أن هذه المنطقة تقع في الوادي الذي يصل بين مدينة (دَبْيل) ومدينة (تفليس) والذي يسمى اليوم : وادي (حومرو) أو ممر جومرو[1] .

وذكرت قرى : أشوس والجبل كوتة ووادي الأحرار[2] ، وهي قرى (دَبْيل) .

٤- مدن إرمينية الرابعة :

(أ) مدينة شِمْشاط : تقع على نهر (شِمْشاط) أحد روافد الفرات بين مدينة (بالوية) شرقاً و (خَرْتَبِرْت) غرباً ، وهي محسوبة من أعمال (خَرْتَبِرْت)[3] ، في أرض سهلة ، بناها كسرى أنوشروان للدفاع عن إرمينية تجاه الهجمات الروميّة .

---

(١) الموقع الجغرافي للعراق (٢٩٨).
(٢) انظر فتوح البلدان (٢٨١ - ٢٨٢).
(٣) معجم البلدان (٥/ ٢٩٣) ، وانظر ما جاء حول (خرتبرت) في معجم البلدان (٣/ ٤١٥) وما جاء حول (بالوية) في معجم البلدان (٢/ ٤٨).

(ب) **مدينة قاليْقَلا** : تُعد من إرمينية الرابعة[1] ، وتقع بالقرب من الحدود الشرقية البيزنطية في هضبة إرمينية الغربية التي تتصل بهضبة الأناضول في أرض سهلة مستوية[2] فتحها حبيب بن مسلمة الفهري[3] .

(ج) **مدينة باجُنَيْس** : تقع بالقرب من مدينة (أرْجِيْش)، وكانت قبل الفتح الاسلامي تحت نفوذ الروم[4] ، فتحه عياض بن غُنْم[5] .

(د) **أرْجِيْش** . مدينة تقع في الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة أرْجِيْش (بحيرة وان) في أرض سهلة[6]

(هـ) **مدينة خلاط** : كانت قبل الفتح الإسلامي تابعة للروم[7] ، وتقع بالقرب من الساحل الغربي لبحيرة

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٢)

(٢) الموقع الجغرافي للعراق (٢٩٥).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٣) .

(٥) معجم البلدان (٢/ ٢٥).

(٦) انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨١).

(٧) المسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٣).

(أرْجِشْ) على بعد يوم منهـ ، وقد فتحهـ عياض بن غَنْم[1] .

تلك لمحات في : كور إرمينية ومدنها ، تطرقت فيها ما يمكن أن يفيدنا في تتبع : فتح إرمينية ، وأوجزت في ذكر ما يمكن أن يلقي شيئاً من الضوء على هذ الفتح ، وأغفلت التفاصيل التي لا فائدة فيها في هذ المجال .

وآمل أن ما ذكرته يكفي لايضاح تفاصيل الفتح الاسلامي في هذه المنطقة ، التي كان لها شأن كبير في حماية الدولة الاسلامية للدفاع عنها محلياً وخارجياً .

فتح إرمينية

الموقف العام :

(أ)البلاد وأهلها . موقع إرمينية بين دولتين كبيرتين : فارس والروم ، عرّضها للاحتلال في جزء منها أو كلّها ، فإذا اشتدّ ساعد الفُرس كان لهم حصّة الأسد

---

(1) معجم البلدان (٣/٤٥٣)

من إرمينية وإذا قوي الروم ضمّوا أجزاء كبيرة منها إلى بلادهم ، وهكذا كانت هذه المنطقة ساحة من ساحات الصراع بين الدولتين الكبيرتين .

ولم يقتصر موقعها الجغرافيّ على تعريضها لهجمات الفُرس والروم حسب ، بل عرّضها لهجمات الأمم الطّامعة فيها إذا سنحت لهم الفرصة للتوسع والاحتلال أو للغارات الوقتية ، وعلى سبيل المثال ، كانت الخزَرَ تخرج فتغير وربما بلغت (الدّيْنَوَر)[1] في بلاد الفُرْس مجتازة إرمينية إلى جارتها الساسانية[2] .

ووجّه الملك الساساني قُباذ بن فيروز[3] (٤٤٨ م - ٥٣١ م) قائداً من عظماء قوّاده في إثني عشر ألفاً ، فاكتسح بلاد (أرّان) وإلى المنطقة التي تقع ما بين نهر (الرسّ) إلى (شَرْوان)، وكان (خُرْزان) و(أرّان) بيده

---

(١) الدينور : مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٨/٤).

(٢) فتوح البلدان (٢٧٣) .

(٣) ملك قباذ بن فيروز ثلاثاً وأربعين سنة ، انظر سني ملوك الأرض (١٩).


خريطة إرمينية
بلاد الخزر
بحر بنطس
الامبراطورية البيزنطية
بحر الخزر
أران
موقان
أذربيجان
الجزيرة
تفليس
دبيل
البيلقان

الخزر ، وسائر إرمينية في أيدي الروم ، ويتولاها صاحب أرْمَنِيَاقُس . ثم لحق قُباذ بقائده ، فبنى بأرّان مدينة (البَيْلَقان) ومدينة (بَرْذَعَة) وهي مدينة ثغر (أرّان) كلّه ، وبنى مدينة (قَبَلَة) ، ثمّ بنى سدّ اللّبن فيما بين أرض شَرْوان وباب اللّان ، وبنى على سدّ اللّبن ثلاثمائة وستين مدينة خربت بعد بناء مدينة (الباب) و(الأبواب) الأخرى[1].

وتولى الملك بعد قُباذ ابنه أنو شِرْوان كِسْرى بن قُباذ (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) فبنى الشابِران ومدينة (مَسْقط) ، ثم بنى مدينة (الباب) و(الأبواب) الأخرى ، وإنما سُمّيت أبواباً لأنها بنيت على طريق في الجبل ، وأسكنها قوماً سمّاهم : (السياسيجين)، وبنى بأرض (أرّان) أبواب (شكّن) و(القَمِيْران) وأبواب (الدُّذانية)، وهم أمة يزعمون أنهم من بني دُوْدَان بن أسد بن خُزَيْمة ، وبني (الدُّرْدُقِيَة) وهي إثنا عشر باباً ، كلّ باب منها قصر من الحجارة ، وبنى بأرض جُرْزان مدينة يقال لها :

---

(١) ملك أنو شروان سبعاً وأربعين سنة ، انظر سني ملوك الأرض (١٩)

(صُغْدَبِيلْ) وأنزلها قوماً من الصُّغْد وأبناء فارس وجعلها مَسْلمة وبنى مما يلي الرّوم في بلاد جُرْزان قصراً يقال له : (باب فيروز قُباذ)، وقصراً يقال له : (باب لاذقَة) وقصراً يقال له : (باب سارقة)، وهو على بحر (طَرَابُزُنْدَة)، وبنى باب اللّان وباب سَمْخَى ، وبنى قلعة (الجَرْوَمان) وقلعة (شَمْشَلْدَى). واستولى أنو شِرْوان على جميع ما كان تحت سيطرة الروم من إرمينية وعمّر مدينة (دَبِيْل) وحصّنها ، وبنى مدينة (النَّشْوَى) وهي مدينة كورة (البُسْفرَّجان)، وبنى حُصْن (وَيْص) وقلاعاً بأرض السِّيسجان منها قلعة (الكلاب) (ساهيونس) ، وأسكن هذه القلاع والحصون ذوي البأس والنجدة من السياسيجية .

واودع أنو شروان ملك الترك ، وتزوّج ابنتهما وزوّج ملك الترك ابنته ، واجتمع به بالبَرْشَلِيّة وتنادما أياماً[1] ، فلما نال ثقته اقترح أنو شروان على ملك الترك

(١) انظر قصة اجتماع ، أنو شروان ملك الترك · فتوح البلدان (٢٧٥ - ٢٧٦)، واسم الملك التركي حينذاك : سجيبو ، انظر إيران في عهد الساسانيين (٣٦٤).

أن يأذن له ببناء حائط يفصل بين الطرفين ، فأجابه ملك الترك إلى ذلك وانصرف إلى بلاده .

وأقام أنوشرْوان لبناء الحائط ، فبناه وجعله من قِبَل البحر بالصخْر والرّصاص ، وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وألحقه برؤوس الجبال ، وأمر أن تحمل الحجارة بالسُّفن وتغريقها في البحر ، حتى إذا ظهرت على وجه الماء بنى عليها ، فقاد الحائط في البحر ثلاثة أميال ، فلما فرغ من بناء السد ، جعل على مدخله أبواباً من حديد ، وجعل على كل باب منه مائة فارس يحرسونه ، وخصّص جماعة من ثقاته يرقبون الحرّاس ويسهرون على أداء واجباتهم في الحراسة ، وكانت منطقة السد تحتاج قبل إنشائه إلى خمسين الف جندي لحمايتها ، فقيل لخاقان ملك الترك بعد إكمال السد : إنه خدعك وتحصّن منك ! . . .

فلم يستطع ملك الترك في حينه أن يفعل شيئاً .

ولم يكتف أنو شِرْوان بالتحصينات التي أنشأها والمدن والحصون الدفاعية التي أقامها دفاعاً عن مملكته تجاه الترك والخزر والرّوم ، بل قسّم مملكته ومنها إرمينية

تقسيمات إدارية ثابتة ، وجعل على كل قسم إداري منها ملكاً مسؤولاً أمامه مباشرة ، ليدافع كلّ ملك (مَحلّي) عن منطقته ما استطاع بقواته المحلية ، فإذا أخفق في دفاعه سنده جيرانه بأمر أنو شروان ، فإذا استفحل الخطر ، زجّ كسرى بقوات الجيش الساساني في المعركة .

وقد عدّد البلاذري تسعة ملوك[1] محليين ، كما ذكر أن كسرى أقرّ ملوك جبل (القَبْق) وهو جبل القوقاز الكبرى ، وصالحهم على الأتاوة . ولم تزل إرمينية في أيدي الفُرس حتى ظهر الإسلام ، فتخلّى الساسيجين عن حصونهم ومدائنهم حتى خربت ، وغلب الخَزَر على ما كان في أيديهم من قبل[2].

فقد أوقف هِرَقْل إمبراطور الروم الزحف المظفر الذي قامت به جيوش الفرس ، فاستعاد آسيا الصغرى ، وتقدّم طارداً جيوش كسرى من إرمينية وأذْرَبِيْجَان ، وفي السنوات التالية استولى لخزر ، وهم قوم من أصل تركي

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٢) انظر التفاصيل في : فتوح البلدان (٢٧٣ ـ ٢٧٦).

كانوا قد استقروا في القوقاز في النصف الأخير من لقرن السادس على (دَرْبَنْد) ، وهي مدينة (باب الأبواب) وتحالفوا مع الروم[1] .

لقد كانت إرمينية قبل الفتح الإسلامي مسرحاً للحرب بين الدولتين الكبيرتين : الساسانية والبيزنطية من جهة ، وبين هاتين الدولتين والغزاة من الخزر والأتراك من جهة أخرى ، فكانت أمور الفُرس تستتبّ في بعض الأزمنة ، فيتولى الملوك المحليّون إدارة إرمينية ، وتستتب أمور الروم في بعض الأزمنة فيتولى ملوك الطوائف كملك أرْمَنياقُس وهو من الروم ، فلما مات ملكت الجزء التابع للروم من إرمينية امرأته ، وكانت تسمى (قالى)، فبنت مدينة (قاليقَلا) وسمتها : (قاليقَاله)، ومعنى ذلك : إحسان قالى ، وصُوِّرت على باب من أبوابها ، فأعربت العرب (قاليقَاله) فقالوا : (قاليقَلا)[2] .

٢ـ المسلمون :

(أ) فتح المسلمون (جزيرة ابن عمر) سنة سبع

---

(١) إيران في عهد الساسانيين (٤٣١) .

(٢) فتوح البلدان (٢٧٧) .

عشرة الهجرية[1] (٦٣٨ م) وكان سبب فتحها أنّ أهلها استثاروا الرُّوم على أهل (حمص) فقصد الرُّوم أبا عُبَيْدة بن الجرّاح[2] ومَن معه من المسلمين بحِمْص، وحاصروا المسلمين في هذه المدينة[3].

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قد اتخذ في كلّ مصر من أمصار المسلمين خيولاً على قدره من فضول أموال االمسلمين عُدّة لمعالجة المواقف العسكرية الطارئة، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان المسؤول عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ ونفر من أهل الكوفة. ولما سمع عمر بن الخطّاب زحف حشود الرُّوم إلى (حِمْص) ومحاصرتها، كتب إلى سعد بن أبي وقّاص[4] في الكوفة: «أن اندب الناس مع لقعقاع

---

(١) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢)

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤-٨١).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٥٣٠).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨-٢٩٦).

ابن عمرو[1] وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى (حمص) ، فإن أبا عُبَيدة قد أُحيط به ، وتقدّم إليهم في الجد والحَث » . ولم يكتف عمر بذلك ، بل كتب إلى سعد بن أبي وقّاص : « سرح سُهَيْل بن عديّ[2] إلى (الرُّقة)، فإنّ أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الرّوم على أهل (حِمْصَ) ، وأمره أن يسرِّح عبدالله بن عِتْبان[3] إلى (نَصيبين) ثم ليقصد (حرّان) و(الرُّها)، وأن يسرِّح الوليد بن عُقْبة [4] على عرب الجزيرة من ربيعه وتنوخ ، وأن يسرِّح عياض بن غَنْم ، فإن كان قتال ، فامرهم إلى عياض ».

ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الرُّوم على أهل حِمْص ، وهم معهم في حصار المدينة ، خبرُ المسلمين الذين قصدوا الجزيرة ، تفرّقوا الى بلادهم وفارقوا الرُّوم ، فأصبح الروم المحاصرين لحمص ضعفاء،

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ - ٣٥٥)

(٢) سيرته المفصلة في . قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٠ - ٤٨٥).

(٣) سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٦ - ٤٩٢).

(٤) سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ - ٥١٢).

فقاتلهم أبو عبيدة بن الجرّاح وانتصر عليهم ، فانسحبوا الى بلادهم [1] .

وانطلق قادة فتح (الجزيرة) إلى أهدافهم ، عياض ابن غَنْم الفهري [2] ، وسُهَيْل بن عَديّ الخزرجيّ ، وعبدالله ابن عتبان الأنصاري ، والوليد بن عُقْبة ابن أبي مُعَيط الأُموي ، وعُمَيْر بن سعْد الأنصاري [3] ، ففتحوا الجزيرة كلّها في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، حتى لم يبق بها موضع قدم . إلا فتح على عهده [4] .

وفي رواية : أن فتح الجزيرة كان سنة ثماني عشرة الهجرية [5] ، وفي رواية أخرى : إنّ فتحها كان سنة تسع عشرة الهجرية [6] ، وفتحها سنة سبع عشرة الهجرية أصحّ ، لأنه جاء لغرض تخفيف الضغط عن المسلمين

---

(١) الطبري (٤ / ٥١ - ٥٢) وابن الأثير (٣ / ٥٣١).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ - ٤٧٩).

(٣) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٥١٣ - ٥١٩)

(٤) فتوح البلدان (٢٤٠).

(٥) فتوح البلدان (٢٣٧).

(٦) الطبري (٤ / ٥٣) وابن الأثير (٢ / ٥٣٣).

في زحف الروم عليهم وحصارهم في (حِمْص) ، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية[1]

لقد كانت (الجزيرة) أسهل البلاد فتحاً[2].

والجزيرة هي حدود إرمينية من الجنوب ، فأصبحت قاعدة أمامية للرّوم ، تهدّد الجزيرة وأرض الشّام ، فكان على المسلمين فتحها للتخلص نهائياً من تهديد الرّوم للجزيرة وأرض الشام ، لأن الروم كانوا يسيطرون على مناطق إرمينية التي تهدّد هذه المناطق المفتوحة من الشمال ، ولأنّ الروم يحشدون قواتهم في إرمينية لاستعادة الجزيرة وأرض الشام ، فلا سبيل الى حماية البلاد المفتوحة إلاّ بفتح إرمينية .

(ب) فتح المسلمون (أَذْرَبِيجَان) سنة اثنتين وعشرين الهجرية[3] (٦٤٢ م) ، فتوجهت أنظارهم لفتح إرمينية الواقعة شمالها ، والتقدم نحو مدينة (باب الأبواب) من كورة (أرّان) ، وذلك لمطاردة فلول

---

(١) الطبري (٤/ ٥٠) وابن الأثير (٢/ ٥٣٠)
(٢) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢)
(٣) الطبري (٤/ ١٥٣) والعبر (١/ ٢٦).

الجيش الساساني المنسحب شمالاً ، لحرمانه من إعادة تنظيم صفوفه للقيام بهجوم مقابل بهدف استعادة (أذربيجان) والبلاد الفارسية المفتوحة . كما أنّ فتح (إرمينية) يحرم الفرس من استعادة أذربيجان ويدافع عن تلك البلاد المفتوحة دفاعاً غير مباشر .

لقد كانت حدود الفُرس تمتدّ حتى مدينة (باب الأبواب) التي أخضعها الساسانيون لنفوذهم في القرن الرابع الميلادي ، وأجلوا الروم عن المناطق المحيطة بها[1] ، فحصّنوها وأقاموا بها قوات عسكرية تدافع عنها من غارات الخزر ، فكان لا بدّ للمسلمين من التقدم شمالاً لفتحها .

وكان هذا الفتح حيوياً للمسلمين ، لموقع باب الأبواب الجغرافي المهم بين بلاد الخزر وبلاد الفُرس ، ووجود السد فيها والحصون المنيعة على امتداد جبل القفقاس التي تحرم الخزر من تقديم الامدادات الى قومهم الذين كانوا في إقليمي إرمينية وأذربيجان قبل الفتح الإسلامي .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (١٧٨/٩)، تحت مادة : دربند .

ثم إن جبل القفقاس الذي يقع إلى جانبها ، حصن حصين يلجأ إليه أعداء المسلمين ويستروا حشودهم في طيّاته ويجعلونه موضعاً دفاعياً طبيعياً يسهل عليهم أمر الدفاع والهجوم معاً ، كما أنّ الجبل بحدّ ذاته يشكّل موضعاً سَوْقياً مهماً للغاية ، لأنه يشرف على سهول إرمينية وأذربيجان من الشمال ، فإذا فتحه المسلمون استطعوا حماية حدودهم الجديدة بسهولة ويسر .

لقد كان الموقف العسكري بعد فتح أذربيجان ، يقضي على المسلمين من أجل حماية ما فتحوه أن يتقدّموا شمالاً لفتح (باب الأبواب) وجبل القفقاس ، للقضاء على آخر مناطق المقاومة الفارسية التي تهدّد ما فتحوه بأفدح الأخطار .

الفتح

فتح عياض :

شجّع انتصار المسلمين في (الجزيرة) وفتحها بسهولة ، عياض بن غَنْم الفِهْري على المضيّ قدماً لفتح

إرمينيـة المجاورة للجـزيـرة ، فـاجتـاز (الـدرب)[1] إلى (بَدْلِيْس)[2] ، وبلغ مدينة (خلاط) فصـالحه بـطريقها حتى انتهى إلى (العين الحامضة) من إرمينية[3].

ويبـدو أنّ قـوّات الـرُّوم انسحبت من (الجزيـرة) بدون قتال باتجاه إرمينية على أمل أن تجمع شملها وتنظِّم صفوفها وتضمّ إليها قوّات جـديدة ، لمهـاجمة المسلمين لاستعـادة (الجزيـرة)، ولكن تغلغل عيـاض بـالعمق في مطاردة قـوّات الـرُّوم ، فـوّت عليهـا هـذه الفـرصـة ، فـاستسلمت تلك القوات للمسلمين ، فعقـد عيـاض مـع بطريق الرُّوم في (خلاط) صلحاً ، فكان عياض أوّل من أجاز (الدَّرب)[4] عبر الجزيرة الى إرمينية ، وبذلك مهدّ للفتح الإسلامي في إرمينية . وعاد عيـاض إلى (الرقّـة)

---

(١) الـدرب : الطريق ما بين طرسوس وبلاد الـروم ، لأنـه مضيق كالدرب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٤٨).

(٢) بدليس . بلدة بنواحي إرمينيـة قرب خـلاط ، انظر التفاصيـل في معجم البلدان (٢/٩٠).

(٣) ابن الأثير (٢/٥٣٥) ومعجم البلدان (٢/٩٠) و(٣/٤٥٣)

(٤) الاستيعـاب (٣/١٢٣٤) وأسـد الغـابـة (٤/١٦٤) والإصـابـة (٥/٥٠).

ومضى الى (حمص)[1] ، وكان فتح عياض في إرمينية سنة سبع عشرة الهجرية . على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

٢ـ فتح عثمان بن أبي العاص[2]

يبدو أنّ حصار الرّوم لأبي عُبيدة بن الجرّاح في (حِمْص) حمل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على استنفار القادرين على حمل السُّلاح كافة ، لكسر شوكة الرُّوم وردِّهم خائبين الى عقر دارهم ، حتى لا يعودوا لمثلها أبداً ، فكان عثمان بن أبي العاص الثقفي ممن استنفرهم عمر بن الخطّاب ، وكان يومئذٍ على البحرين .

وانجلت الغمّة عن المسلمين في (حِمْص) وانسحب الرّوم إلى قواعدهم ، وفتح عياض بن غَنْم الفهريّ (الجزيرة) سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨ م)، كما فتح شطر إرمينية الرابعة ، وكان فتحه الخاطف غير

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ ـ ٢٦٩).

ثابت الأركان كما يبدو .

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠ م) وجّه عياض بن غَنْم إلى إرمينية الرابعة عثمان بن أبي العاص ، فكان عندها شيء من قتال أُصيب فيه صَفْوان بن المُعطل[١] السُّلَمِيّ شهيداً ، ثم صالح عثمان أهلها على الجزية ، على كلِّ أهل بيت دينار[٢].

ولم تتطرّق المصادر التاريخية المتيسرة إلى تفاصيل فتح عثمان في إرمينية الرابعة ، والظاهر أنَّ فتحه كان أشبه ما يكون بالغارة منه بالفتح المستدام ، الهدف منه تأديب الروم في عقر دارهم ، حتى لا يهاجموا المسلمين مرة أخرى كما فعلوا في حصار مدينة (حمص) ، وبخاصة أنَّ القوات الإسلامية لم تكن كافية لتوطيد أركان الفتح في الأرجاء النائية كأرمينية حينذاك .

---

(١) صفوان بن المعطل : شهد المريسيع ، وقيل شهد الخندق وما بعدها ، وكان شجاعاً خيراً فاضلا ، وقد استشهد في غزوة إرمينية ، انظر الاستيعاب (٢/٧٢٥) وأسد الغابة (٣/٢٦) والإصابة (٣/٢٥١) وابن الأثير (٢/٥٦٣) .

(٢) الطبري (٤/٥٣) وابن الأثير (٢/٥٣٣).

وما يقال عن فتح عثمان يقال عن فتح عياض أيضاً ، إلّا أنّ عياضاً بدأ الفتح ، وعثمان قوّى جذوره ، وكان هدفهما شلّ قوّات الرّوم في بلادها ، فحققا هذا الهدف ، ولم يحققا توطيد أركان الفتح وترسيخ جذوره ، لقلّة القوات المتيسّرة لديهما حينذاك ، ولانتشار المسلمين في بلاد شاسعة لا تتناسب مع قواتهم المقاتلة ، ومن المعروف أنّ من السهولة فتح البلاد ولكنّ الصعوبة في الاحتفاظ بها .

وكان فتح عثمان بن أبي العاص على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً .

٣- فتح سراقة بن عمرو[١] .

كان فتح مدينة (باب الأبواب) ذات الموقع السّوقيّ الحيويّ يهدف إلى وضع حد حاسم لمقاومة الفرس وحماية البلاد المفتوحة في بلاد فارس وأذربيجان

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٠٩ - ٢١٣) .

من القوّات الفرسية ، بالقضاء على حر معقل للفرس في إرمينية .

وقد أوكل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مهمة فتح مدينة (باب الأبواب) إلى سُراقة بن عمرو - وكان يُدْعَى ذا النور - وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي[1] - وكان أيضاً يُدْعى ذا النور - وجعل على إحدى مجنبتيه حُذَيفة بن أسيد الغفاري[2] ، وسمّى للأخرى بُكَيْر بن عبدالله اللّيثي[3] - وكان بإزاء مدينة (باب الأبواب) قبل قدوم سُراقة بن عمرو عليه ، وكتب إلى بُكَيْر أن يلحق بسُراقة ، وجعل على المقاسم سَلْمان بن ربيعة الباهليّ[4] .

---

(١) انظر سيرته في هذا الكتاب : قادة فتح المشرق الاسلامي

(٢) حذيفة بن أسيد الغفاري : صحابي جليل ، شهد غزوة الحديبية وبايع تحت الشجرة ونزل الكوفة وتوفي فيها سنة اثنتين وأربعين الهجرية ، انظر التفصيل في : أسد الغابة (١ / ٣٨٩) والاصابة (٣٣٢/١)

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٠٥ - ٢٠٨)

(٤) انظر سيرته في هذا الكتاب : قادة فتح المشرق الاسلامي

وسلك سُراقة طريق بحر الخزر ، لأنه أقصر طريق يؤدي إلى (باب الأبواب) ، لأنَّ هذا الطريق يجنِّب الجيش الإسلامي وعورة المسالك الجبليّة ، ولأنَّ الجيش يكون في جنحه الأيمن أميناً بالبحر وجناحه الأيسر أميناً بأذربيجان التي استسلمت نهائياً للمسلمين[1].

وقدّم سُراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ ، وخرج في أثره من أَذْرَبِيْجان باتجاه (الباب) على ما عبّأه عمر بن الخطّاب في قيادة الميمنة والميسرة ، كما أمدّه عمر بحبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِي[2] الذي صرفه إليه من (الجزيرة)[3].

ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على (الباب)، والملك بها يومئذ شهربراز من أهل فارس ، يحكم تلك

---

(١) الطبري (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) انظر سيرته في هذا الكتاب : قادة فتح المشرق الإسلامي .

(٣) الجزيرة : هي جزيرة ابن عمر ، وبعث عمر بن الخطاب على الجزيرة مكان حبيب بن مسلمة زياد بن حنظلة ، انظر الطبري (٤/ ١٥٦).

المنطقة باسم الفرس ، استأمن الملكُ عبد الرحمن على أن يأتيه ، فأمنه عبد الرحمن ، فأتى الملكُ وهو خارج المدينة قبل أن يفتحها .

وقال الملك لعبد الرحمن : « إني بإزاء عدوٍ كَلِبٍ[1] وأمم مختلفة ، لا يُنْسَبون إلى أحساب ، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ، ولا يستعين بهم على ذوي الاحساب والأصول ، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ، ولست من (القَبْج)[2] في شيء ، ولا من الأرمن ، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم ، وصَغْوي[3] معكم ، وبارك الله لنا ولكم ، وجِزْيتنا إليكم والنّصر لكم ، والقيام بما تحبّون ، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم ». فقال عبد الرحمن : « فوقي رجل قد

---

(١) كلب : شرس ، عنيف ، قاس .

(٢) قبج : أمة من الامم ، أصلها (قبجق)، وهي كلمة جركسية الأصل معربة من (كبجك) بمعنى : النازح من سفح الجبل ، وهو جيل (القبق) أو (القبج) أو (القبجق)، هم (الخزر). انظر هامش تاريخ القوقاز (٦٤).

(٣) صغوي : ميلي ، والصغو : الميل .

أظنّك ، فسرْ إليه ».

وسار الملك إلى سُراقة ، فقال له مثل ما قال لعبد الرحمن ، فقال سُراقة : « قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ، ما دام عليه ، ولا بدّ من الجزاء ممن يُقيم ولا ينهض » ، فقبل ذلك ، وصارت سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين ، وفيمن لم يكن عنده الجزاء ، إلاّ أن يُسْتَنْفَروا فتُوضع عنهم جزاء تلك السنّة .

وكتب سُراقة الى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بذلك ، فأجازه وحسنه[1] .

وهذا الإتفاق بين المسلمين من جهة وبين ملك مدينة باب الأبواب من جهة أخرى ، يدلّ على أنّ المسلمين كانوا يفرضون الجِزْية على المغلوبين لقاء الدفاع عنهم وحمايتهم ، فهي تقابل : بدل الخدمة العسكرية بالضبط أو ما يسمى : ضريبة الدفاع . أما الذين يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون عدوّهم مع المسلمين ، فلا جِزْية عليهم .

---

(١) الطبري (٤/٢١٠) وابن الأثير (٣/٣٨)

وكـانت (بـاب الأبـواب) خـاليـه من أهلهـا الأصليين ، فقد استأصلتهم الغارت والحروب ، وغادرها أهل الجبال الى جبالهم ، فلم يبق فيها غير الجنود ومن أعانهم أو اتجر معهم[1]

وكـان نص وثيقة الصلح بين سُـرقة وشهـر براز مـا نصّه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذ ما اعطى سُرقة ابن عمـرو عـامـل أميـر المؤمنين عمـر بن الخطّاب ، شهـر براز وسكّـان إرمينية والأرْمَن من الأمـن : أعـطاهم أمـانـاً لأنفسهم وأمـوالـهم وملّتهـم ، ألاّ يضـارّوا ولا ينتقضـوا ، وعلى أهـل إرمينيـة والأبـواب الـطُرّاء منهم والتُنـاء[2] ، ومَنْ حولهم فدخل معهم ، أن ينفروا لكـلّ غـارة ، وينفُـذوا لكـلّ أمـر نـاب أو لم يَنُب رآه الـوالي صلاحاً ، على أن توضع الجزاء عمّن أجاب إلى ذلك إلاّ الحَشْـر والحشر عِوَضٌ عن جزائهم ، ومَن استغني عنه منهم أو قعـد ، فعليه مثل ما على أهـل أذْرَبِيْجـان من الجزاء والدلاّلـة والنُزل يوماً كـاملاً ، فإن حُشِروا وُضِع

---

(١) قادة فتح بلاد فارس (٢١٠) .

(٢) تنأ بالبلد : أقام .

ذلك عنهم ، وإن تركوا أخذوا به . شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبُكَيْر بن عبدالله ، وكتب مَرْضِيّ بن مُقَرّن[1] . وشهد .

وفتح المسلمون مدينة باب الأبواب ، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية[2] (٦٤٢ م) على عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .

وبعد فتح مدينة (باب الأبواب) وجّه سُراقة بُكَيْر ابن عبد الله وحبيب بن مَسْلَمَة وحُذيفة بن أسيد وسلمان ابن ربيعة إلى الجبال المحيطة بأرمينية ، فوجّه بُكَير الى (مُوقان)، ووجّه حبيباً إلى (تَفْلِيس) ، ووجّه حذيفة بن أسيد إلى مَن بجبال (اللاّن)[3] ، ووجّه سلمان بن ربيعة إلى الـوجْه الآخر (بلاد الخزر التي تقع خلف مدينة اباب)، وكتب سُراقة بالفتح وبالذي وجّه فيه هؤلاء النّفر الى عمر بن الخطّاب ، فاضطرب عمر لذلك أشدّ الاضطراب ، لأنه قدّر أن قوّات المسلمين التي توجّهت

(١) هو مرضي بن مقرن المزني ، أخ النعمان بن مقرن المزني .

(٢) الطبري (٤ / ١٥٦ ـ ١٥٧).

(٣) جبل اللاّن : الجزء الأوسط من جبل القفقاس .

لفتح هذه المناطق غير كافية للنهوض بتحقيق واجباتها عدداً وعُدداً ، وفعلاً لم يفتح أحد من هؤلاء القادة ما وُجّه له من أهداف إلاّ بُكَيْر فإنه فتح (مُوْقان)[1].

ومات سراقة في (باب الأبواب) قبل أن يرى ثمرات جهاده ، واستخلف قبل موته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، فأقرّ عمر عبد الرحمن على ثغر (الباب)[2].

٤ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهليّ :

في سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م)، كان الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط[3] على الكوفة لعثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وكان أهل (أَذْرَبِيجان) قد نقضوا ، فغزاهم الوليد في هذه السنة ، وأغار على أهل (مُوقان) و(بَرْزَنْد) و(الطّيْلَسان)، ففتح وغنم وسبى ، لذلك طلب أهل كور (أَذْرَبِيجان) الصّلح ، فصالحهم

---

(١) انطري (١٥٧/٤) وابن الأثير (٢٩/٣)
(٢) الطبري (١٥٨/٤) وابن الأثير (٢٩/٣)
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٢)

على صلح حُذيفة بن اليَمان[1] ، وهو ثمانمائة ألف درهم ، وقبض المال .

وبثّ الوليد سراياه ، فبعث سلمان بن ربيعة الباهليّ الى أهل (إرمينية) في إثني عشر ألفاً ، فسار في (إرمينية) يقتل ويسبي ويغنم ، ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد بن عُقْبة .

فعاد الوليد إلى الكوفة ، وقد جعل طريقه إليها على (المَوْصل) ، فوصل إلى (الحَدِيْثة) وهي (حَدِيثة الموصل) التي تقع في الجانب الشرقي من (الموصل) قرب الزاب الأعلى ، ونزلها[2] .

وفي (الحَدِيْثة) أتى الوليد كتاب عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، الذي جاء فيه : « إنّ معاوية بن أبي سُفيان كتب إلي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة ، وقد رأيت أن يمدهم

---

(1) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (108 - 117).

(2) ابن الأثير (3/83) وابن خلدون (2/1000)

إخوانهم من أهل الكوفة ، فابعث لهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف في لمكان الذي يأتيك كتابي فيه ، والسلام ».

وقام الوليد خطيباً في الناس ، وأعلمهم الحال ، وندبهم مع سلمان ، فانتدب معه ثمانية آلاف ، مضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام أرض الروم ، وأصاب الناسُ ما شاؤوا ، وافتتحوا حصوناً كثيرة .

وكان حبيب بن مَسْلمة الفِهْري على رأس أهل الشام ، ففتح بلاداً كثيرة في (إرمينية نذكرها وشيكاً في فتح حبيب ، وكان سلمان ساعده الأيمن في فتوحه) .

وبعث حبيبٌ سلمان إلى (أرّان)، ففتح (البيلقان) صلحاً ، بعد أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم ، واشترط عليهم الجِزْية والخراج .

وأتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)، فعسكر على نهر (الثُّرْثُور) بينه وبين (بَرْذَعَة) نحو فرسخ ، فقاتله أهلها أياماً ، وشنّ الغارات في قراها ، فصالحوا على مثل صلح (البيلقان) ، ودخلها جيش المسلمين .

وجّه سلمان خيله ، ففتحت رساتيق ولاية (أرّان)، ثم وجّه سرية إلى (شَمْكُور) ففتحوها .

وسار سلمان إلى مجمع نهري (الرّس) و(الكُرّ)، ففتح مجمع ما بينهما .

وصالح سلمان صاحب (شَرْوان) وسائر ملوك الجبال وأهل (مسْقط) و(الشَابِران) ومدينه (باب الأبواب)، ثم امتنعت بعده[1].

والظّاهر أنّ (الباب) امتنعت بعد فتحها الأول سنة سبع عشرة الهجرية ، فأعاد إليها سلمان الهدوء والاطمئنان ، وفتحها ثانية وأعادها الى أحضان الدولة الإسلامية .

وهكذا استعاد حبيب بن مَسْلَمة وسلمان بن ربيعة فتح مناطق شاسعة من إرمينية ، وفتحا معاً مناطق جديدة لأول مرة ، وكان هذا الفتح في سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م).

---

(١) ابن الأثير (٣/٨٥ ـ ٨٦) وابن خلدون (٢/١٠٠١)

٥- فتح حبيب بن مَسْلَمة الفِهْري :

فتح حبيب (شِمْشَاط) سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠ م) في عهد عمر بن الخطاب .

ولما استُخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كتب الى معاوية بن أبي سُفيان[1] وهو عامله على الشّام والجزيرة وثغورهما ، يأمره أن يوجّه حبيباً إلى إرمينية ، وكان حبيب ذا أثر جميل في فتوح الشّام وغزو الروم قد علم ذلك منه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما ثمّ مَنْ بعدهما .

وتحرّك حبيب نحو هدفه في ستة آلاف ، وقيل : في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ، فأتى (قاليْقلا) وأناخ بساحتها . وخرج إليه أهل (قاليْقلا) فقاتلهم حبيب حتى ألجأهم إلى داخل المدينة ، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزْية ، فجلا كثير منهم ولحقوا ببلاد الروم .

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٧٤ - ١٩٤) .

وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً ، ثمّ بلغه أنّ بطريق أرْميناقس قد جمع للمسلمين جمعاً عظيماً ، وانضمّت إليه أمداد أهل (اللاّن) والخزر ، وقد توجّه في ثمانين ألفاً من الرُّوم[1] ومن والاهم ، فكتب إلى معاوية بن أبي سُفيان، فكتب معاوية الى عثمان ، فأرسل عثمان الى الوليد بن أبي مُعَيْط يأمره بإمداد حبيب ، فأمدّه بسلمان بن ربيعة على رأس ثمانية آلاف من أهل الكوفة[2] ، كما بعث إليه معاوية بن أبي سفيان ألفي رجل أسكنهم (قاليقلا) وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها[3] .

وأبطأ المدد على حبيب ، فأجمع على تبييت الروم الذين حشدوا جموعهم ونزلوا على نهر (الفُرات)، فاجتاح المسلمون الروم وقتلوا قائدهم الموريان ، فانهزمت الروم[4] .

---

(١) ابن الأثير (٣/٨٣ ـ ٨٤) وابن خلدون (٢/١٠٠٠).

(٢) ابن الأثير (٣/٨٣) .

(٣) فتوح البلدان (٢٧٨).

(٤) بن الأثير (٣/٨٤) وابن خلدون (٢/١٠٠١)، والموريان . اسم بطريق أرمياقس .

وعاد حبيب إلى (قاليقلا)، فقدم سلمان بن ربيعة بعد أن فرغ المسلمون من عدوهم ، فطلب أهل (الكوفة) أن يشركوهم في الغنيمة ، فلم يفعلوا[1] .

وسار حبيب ومعه سلمان ، فنزل (مِرْبالا) . فأتاه بطريق (خِلاط) بكتاب عياض بن غَنْم بأمانه ، فأجراه عليه ، وحمل إليه البطريق ما عليه من مال[2] .

ونزل حبيب (خِلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكْس) وهي من (البُسْفُرجان) فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلاً وكتب له كتاب صلح وأمان .

ووجه حبيب إلى قرى (أَرْجيش) و (باجُنَيس) من غلب عليها وجبى جزى رؤوس أهلها ، فأتاه وجوههم فقاطعهم على خراجها .

وتقدم حبيب إلى (أَزْدَشَاط)، ونزل على (دَبِيْل)، فسرّح الخيول إليها وحاصرها بعد أن تحصّن أهلها بها ، فنصب عليها منجنيقاً ، فطلب أهلها الأمان ، فأجابهم إليه ، ففتح (دَبِيْل) وغلب على جميع قراها .

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٨)

(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

وكان كتاب صلح (دَبِيل) : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من حبيب بن مَسْلَمَة لنصارى أهل دَبِيل ومجوسها ويهودها ، شاهدهم وغائبهم ، إني آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وَبِيعكُم وسور مدينتكم فأنتم آمنون ، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأدّيتم الجزية والخراج ، شهد الله وكفى بالله شهيداً . . وختم حبيب بن مسلمة » .

ثم أتى حبيب مدينة (النّشوى) ففتحها على مثل صلح (دَبِيل) .

وقدم على حبيب بطريق (البُسفُرجان) فصالحه على جميع بلاده .

وأتى حبيب (السِّيسَجان) ، فحاربه أهلها ، فهزمهم واستولى على حصونهم[1] .

وسار حبيب بمن معه يريد (جُرْزان) ، فلما انتهوا الى موضع أطلقوا عليه : (ذات اللُّجم) سرّحوا بعض دوابهم ، وجمعوا لُجمها ، فخرج عليهم جماعة من

(١) انظر تفاصيل الحصون في فتوح البلدان (٢٨٢) .

سكّان تلك المنطقة فأعجلوهم عن الانجام ، فقاتلوهم ، فكشف المسلمين عدوّهم ، وأخذوا تلك اللجم وما قدروا عليه من الدواب ، ولكن المسلمين كرّوا عليهم ، فقتلوهم واسترجعوا ما أخذوا منهم ، فسمّي الموضع : ذات اللُّجم

وأتى حبيباً رسولُ بطريق (جُرْزان) وأهلها وهو في طريقه اليها ، فأدّى اليه رسالتهم ، وسأله كتاب صلح وأمان لهم ، فكتب حبيب إليهم : « أما بعد ! فإنّ (نُقِلي) رسولكم قدم عليّ ، وعلى الذين معي من المؤمنين ، فذكر عنكم أنّا أمّة اكرمنا الله وفضّلنا ، وكذلك فعل الله ، وله الحمد كثيراً ، وصلّى الله على محمّد نبيه ، وخيرته من خلقه وعليه السلام ، وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا ، وقد قوّمت هديتكم وحسبتها من جزْيتكم ، وكتبت لكم أماناً ، واشترطت فيه شروطاً ، فإن قبلتموه ورفيتم به ، وإلاّ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، والسّلام على مَن اتبع الهدى » وصالح حبيب رسول بطريق أهل (جرزان) وأهلها .

وسار حبيب إلى (تَفْلِيس) ، وكتب لأهلها صلحاً

هـذا نصّه : « بسم الله لرحمن الرحيم. هـذا كتـاب من حبيب بن مَسْلَمَة لأهل تَفْليس من مَنْجَلِيْس ، من جُرْزان القِرْمِز بـالأمـان على أنفسهم ، وبِيعِهِمْ ، وصـوامعهم ، وصلواتهم ، ودينهم ، على إقرار بالصَّغـار والجِزْيـة على كـلِّ أهـل بيت دينـار ، وليس لكم أن تجمعـوا بين أهـل البيوتات تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفـرِّق بينهم استكثاراً منهـا ، ولنا نصيحتكم وضلعكم عى أعـداء الله ورسولـه ﷺ ما استطعتم ، وقرى المسلم المحتاج ليلة بـالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنـا ، وإن انقطع بـرجل من المسلمين عنـدكم فعليكـم أداؤه ، إلى أدنى فئـة من المسلمين إلّا أن يُحـال دونهم ، وإن أنَبْتُم وأقمتُم الصلاة فإخوانـا في الدين ، وإلّا فـالجزيـة عليكم ، وإن عرض للمسلمين شغـل عنكم فقهركم عـدوُّكم فغير مـأخـوذين بذلك ولا هـو ناقض عهـدكم ، هذا لكم وهـذا عليكم ، شهد الله وملائكته وكفى الله شهيداً»[1].

وبعث حبيب سلمان بن ربيعة ، ففتح ما فتحـه من

---

(١) فتوح البلدان (٢٨٠ ـ ٢٨٤) وانظر ابن الأثير (٣/٨٥) وابن خلدون (٢/١٠٠٢)

(إرمينية) كالذي ورد تفصيله في فتح سلمان ، وتمّ فتح حبيب وسلمان سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م)

وفي سنة إثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢ م)؛ كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على مدينة (باب الأبواب)؛ فخاض معارك قاسية استشهد في احدها عبد الرحمن أخو سلمان[1] ، فخلفه سلمان على (باب الأبواب).

وأمدّ عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه سلمانَ بأهل الشّام ، وعلى رأسهم حبيب بن مَسْلَمَة ، وذلك سنة اثنتين وثلاثين الهجرية[2] (٦٥٢م)

ولم يكن في هذه المدّة فتح يذكر في (إرمينية)، لأنّ سلمان وحبيباً احتلفا ، والاخفاق ثمرة من ثمرات الاختلاف .

لقد شملت فتوح حبيب بن مَسْلَمَة المناطق الواقعة بين مدينة (النّشوى) شرقاً ، إلى مدينة (قاليْقلا)

---

(١) ابن الأثير (٣/١٣١).
(٢) ابن الأثير (٣/١٣٣).

غرباً ، إلى جبال القفقاس شمالاً ، وقد فتح معظم كور (السُّفَرْجان) و(السِّيْسَجان) و(جُرْزان) ، فلا عجب أن يطلق عليه المؤرخود ومعاصروه من الناس لقب : (حبيب الرُّوم)، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم[1].

لقد ذهب حبيب بن مَسْلَمَة بفخر فتح إرمينية ، فاستحق ما أطلقه المسلمون الأولون عليه : حبيب الرُّوم .

عِبْرة الفتح

كان الملك شهر بَزار على مدينة (باب الأبواب) عاملاً للسّاسانيين قبيل فتح المسلمين إرمينية ، فصالحه سُراقة بن عمرو الذي توفي بعد فتح مدينة (باب الأبواب) صُلحاً ، فخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ كما ذكرنا في سير حوادث الفتح .

وكان عبد الرحمن بن ربيعة في مجلسه وعنده شهربراز ، فأقبل رجلٌ عليه شُحُوبَة حتى دخل على عبد

---

(١) الاستيعاب (١/ ٣٢٠) وأسد الغابة (١/ ٣٧٥) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

الرحمن ، فجلس إلى شهربراز .

وذكر شهربراز لعبد الرحمن : أنه بعث هذا الرجل منذ سنين إلى ملك الصِّين ، وزوّده بهديّة عظيمة تبلغ قيمتها مئة ألف في بلاده وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في بلاد الصِّين ، فتقبّل ملك الصِّين هدية شهربراز بقبول حسن ، وبعث مع رسوله بهديّة ثمينه هي عبرة عن ياقوتة حمراء .

وقدم شهربراز تلك الياقوتة الحمراء الى عبد الرحمن ، فتناولها ونظر إليها ، ثمّ ردّها الى شهربراز .

وقال شهربراز مخاطباً عبد الرحمن : لَهَذه خير من هذا البلد - يعني مدينة باب الأبواب - وايمُ الله لأنتم احبّ إليّ مَلَكَةٌ من آل كسرى ، ولو كنتُ في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني ، وايمُ الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفَى ملككُم الأكبر[1] .

ومهما قيل في صحة هذه القصّة التأريخية ، فإنها تدلّ على استقامة السلف الصالح من العرب المسلمين

(١) الطبري : (٤/١٥٩ - ١٦٠)

وتعففهم ورغبتهم في ما عند الله لا في ما عند الناس ، لذلك انتصروا بمبادئهم العالية أكثر من انتصارهم بسيوفهم البتّارة .

وقد وصف عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ حال الفاتحين الأولين أحسن وصف ، فقد خرج بالناس للفتح ، فقال له شهربراز : « ما تريد أن تصنع »؟! ، قال : « أريد بلَنْجَر »، قال : « إنا لنرضى منهم أن يَدَعونا من دون الباب » قال : « لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إنْ معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الأمعان لبلغتُ بهم الرَّدْمَ[1] »!، قال : « وما هم ؟!» قال : « أقوام صَحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنيّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ، ولا يزال النّصر معهم حتى يُغيّرهم مَنْ يَغْلبهم ، حتى يُلْفتوا عن حالهم بمن غيّرهم »[2] .

---

(١) الردم : يقصد به هنا ، سد الاسكندر في الصين . والردم لغة : السد العظيم .

(٢) الطبري : (٤ / ١٥٨) وابن الأثير (٣ / ٢٩ - ٣٠)

وليست بي حاجة إلى شرح ما قاله عبد الرحمن بن ربيعة ، فكلامه واضح لا يحتاج إلى شرح ، وهو يريد أن هؤلاء النفر من الصحابة المجاهدين ، لا يريدون في جهادهم غير إعلاء كلمة الله ، وليس أهداف جهادهم المال أو الأسرى أو الاستعلاء ، لذلك يَغْلِبون ولا يُغْلَبون .

ومن أمثلة الحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك ، إسقاط الجِزْية عن الذميّ الذي يحارب في صفوف المسلمين : « وعلى أهل إرمينية والأبواب ، الطرّاء[1] منهم والتُّنّاء[2] ومَنْ حولهم فدخل معهم ، أن ينفروا لكلِّ غارة ، وينفذوا لكلِّ أمرٍ نابَ أو لم يَنُبْ رآه الوالي صلاحاً ، على أن توضع الجزاء عَمن أجاب إلى ذلك إلاّ الحَشْر ، والحَشْر عِوَضٌ من جزائهم »[3].

وقد كانت الجزية عند الأمم السابقة لا تمنع

(١) الطراء : جمع الطارىء ، وهو الغريب .
(٢) التناء : تنأ بالبلد . أقام ، والتناء المقيمون في البلد
(٣) الطبري (٤/١٥٧)

دافعيها من تجنيدهم في جيش العلبين وإراقة دمائهم ، فكانوا يدفعون الجزية ويساقون الى الحرب ولكنّ الاسلام أعفاهم من الخدمة في الجيش في حالة تقاضي الجزية منهم ، فإذا تطوّعوا في الجيش سقطت عنهم الجزية تلقائياً .

لقد كان من أهم انتصار المسلمين لأولين السريع الحاسم وبأقل الخسائر الماديّة والمعنويّة ، هو الحرب العادلة البعيدة عن الظلم والاستغلال والاستعباد ، فاستحوذوا بذلك على ثقة الشعوب المغلوبة ، الذين شعروا بأن الفاتحين الجدد أرحم من المستعبدين القدامى وأعدل ، ومن مصلحة تلك الشعوب أن تتعاون مع الفاتحين وتعينهم .

ولم يكن انتصار الفاتحين الأولين : « لعدم وجود جيش منظم قوي يستطيع صدّ الفتح الاسلامي ويحمي البلاد المفتوحة ، ولأن الحرب الساسانية ابيزنطية قد استنزفت كلّ قوى الدولتين ، وأن مصاولة الفاتحين اقتصرت على السكّان المحليين أو القوات المحلية بطاقاتهم المحدودة » ، كما يدعي أعداء العرب

والمسلمين من المؤرخين الأجانب

ومن المؤسف حقاً أنّ قسماً من المؤرخين العرب والمسلمين ، نقلوا مزاعم هؤلاء الأعداء نقلاً بسذاجة وجهل الى المدارس والمعاهد والجامعات لاسلامية وسمّموا بها أفكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلاّب بمزاعم باطلة لا يقرها ولا يصدقها العقل وتناقض وقائع التأريخ .

لقد حارب الفاتحون جيوش الفُرْس والرُّوم في معارك حاسمة وفي معارك محليّة ، فانتصروا انتصارات حاسمة وانتصارات محليّة ، ولم تقتصر معاركهم على الجيوش المحليّة حسب .

حارب الفاتحون جيوش الفُرس في معركتين حاسمتين : في (القادسية) وفي (نهاوَنْد) .

وحاربوا جيوش الرُّوم في معركتين حاسمتين أيضاً : في (اليرموك) وفي (بابليون) أو (الفُسطاط) .

وكان الفُرس والرُّوم متفوّقين على الفاتحين فواقاً كاسحاً ، بشهادة المؤرخين القُدامى من الفُرس والرُّوم

في العَدد والعُدَّة وفي تجاربهم الحربيّة وقربهم من قواعدهم الرئيسة .

وحارب الفاتحون جيوش الفُرْس والرُّوم في معارك لا تعدّ ولا تحصى محلياً ، في الصحارى والجبال ، شرقاً وغرباً .

وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله .

وقد كان الفُرْس والرُّوم يحتلّون بلاداً عربية قبل الإسلام ، وتدين لهم بالولاء دول عربيّة أكثر حضارة وأكبر عَدَداً وأغزر عُدداً من أولئك الفاتحين القادمين من الصحراء بعد الإسلام ، فلماذا لم ينتصر العرب على الفُرْس والرُّوم قبل الإسلام ، وانتصروا عليهم بعد الإسلام ؟!

إنّ الأسباب التي قضت على الفُرس والرُّوم بالهزيمة ، ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بتكوين (وحدة) وقيام (دولة) وانتشار (عقيدة) وإشاعة (لغة) وإحراز (نصر) ، لأن استحقاق أناس للزوال والفناء ، لا ينشىء لغيرهم حقّ الظهور والبقاء .

فلا مراء بأن انتصار العرب المسلمين على العرب غير المسلمين وعلى الفُرس والرُّوم والأمم الأخرى ، كان انتصار عقيدة .

وأعداء العرب والمسلمين الذين يزعمون أنّ الفتح الإسلامي كان لضعف أعداء العرب والمسلمين ، يهدفون الى تهوين أثر الاسلام في العرب والتقليل من أثره في النفوس والعقول معاً ، وفتح إرمينية واستعادة فتحها دليل واحد من أدلّة كثيرة على أثر الاسلام في العرب وتأثيره فيهم ، لعله ينير الطريق لطالبي الحق والباحثين عن الحقيقة .

ولا أظنّ أنّ الحق يخفى والحقيقة تموت ، ولكنْ أغراض العدو تعمي وتصم ، وعلى الباحث أن يجاهر بالحق ولو كره المبطلون .

استعادة فتح ارمينية

الموقف العام :

ابتدأت المشاكل والفوضى تعمّ أرجاء الدولة الإسلامية من سنة ثلاث وثلاثين الهجرية (٦٥٣ م) في

أواخر عهد عثمن بن عفّان رضي الله عنه ، وبدأت هذه المشاكل والفوضى في « الكوفة » « والبصرة ». وتكاتب نفر من المسلمين إلى بعضهم : « أن أقدِموا ، فإنّ الجهاد عندنا » ، فأصبح الجهاد في المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة وعاصمتهم ، على رأي أولئك النفر ، لا في البلاد المفتوحة في خارج شبه الجزيرة العربية ، ولا في البلاد المجاورة التي تهدد ابلاد المفتوحة !

وفي سنة خمس وثلاثين الهجريّة (٦٥٥ م) قُتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه في المدينة المنوّرة بيد المسلمين لا بيد أعدائهم ، وبذلك أصبحت سيوف الفاتحين عليهم لا على مَن يعاديهم ويحاربهم .

وتولى الخلافة عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، والقلوب مختلفة والنفوس متفرّقة والبلاد مضطربة ، فسار قُسْطنطين بن هِرَقْل في ألف مركب سنة خمس وثلاثين الهجريّة (*) [1] (٦٥٥ م) يريد بلاد المسلمين ، وهكذا

(*) ارقام الهامش تابعة الى القسم الأول من البحث .

(١) ابن الأثير (٣/١٩٩) .

أصبح الطالب مطلوباً ، والمنتصر مغلوباً .

وفي سنة ست وثلاثين الهجريّة (٦٥٦ م) نشب الخلاف في الأمصار والمدن الاسلامية داخل البلاد العربيّة ـ قاعدة لفتح والفاتحين ، وضعفت سيطرة القيادة المركزية .

وفي هذه السنة ، جرت معركه (الجَمَل) في البصرة[1] اقتتل فيها الفاتحون ، وتساقط منهم في ساحة المعركة عشرات الألوف من قادة الفتح وجنوده .

وفي هذه السنة أيضاً ، سار الخوارج إلى (سِجِسْتان)[2] ، فامتدّ الاقتتال بين الفاتحين إلى البلاد المفتوحة في خارج البلاد العربيّة .

وفي سنة سبع وثلاثين الهجرية (٦٥٧ م)، تطوّر الإقتتال بين لفاتحين قادة وجنوداً في معركة (صِفِّين)[3] تطوّراً خطيراً ، وسقط عشرات الألوف من القتلى

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٦٤)
(٢) ابن الأثير (٣/ ٢٦٤)
(٣) انظر تفاصيل المعركة في : ابن الأثير (٢٧٩ ـ ٣١٦)

والجرحى في ميدان الاقتتال ، فأصبح الصدع من الجانبين عرباً مسلمين لا يقبل الالتئام

وانطلق الشاعر العربي يعتصر قلبه شعراً فقال :

أصبحت لأمةُ في أمرٍ عَجَبٌ والمُلك مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلت قولاً صادقاً غير كَذِبٍ إنّ غداً تهلكُ أعلامُ العربْ[1]

وفي هذه السنة انتقضت (خُراسان) وامتنعت ، فحاصر أهلها عامل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى صالحهم بعد جُهدٍ جهيد[2] ، وبدأ قتال الخوارج ، فسقط آلاف القتلى والجرحى منهم رجال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[3] بعد اقتتال مرير .

وفي سنة ثمان وثلاثين الهجريّة (٦٥٨ م) مَلك عمرو بن العاص[4] مصر وقتل محمد بن أبي بكر

---

(١) الشعر من قول الشاعر : كعب بن جعيل التغلبي ، انظر الطبري (٥/١٤) .

(٢) ابن الأثير (٣/٣٣٦).

(٣) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٣٤ - ٣٤٨).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب . قادة فتح الشام ومصر (١٢٣ - ١٦٣).

الصِّديق عامل عليّ بن أبي طالب على مصر[1] ، فأصبحت الدولة الاسلامية دولتين تعمها الفتن والاضطرابات والفوضى .

وفي سنة تسع وثلاثين الهجريّة (٦٥٩ م) طمع أهل (فارس) و(كَرْمان) في كسر الخراج . فطمع أهل كلّ ناحية وأخرجوا عاملهم[2] واشتدّ القتال بين رجال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والخوارج وفرّق الاقتتال بين الدولتين الاسلاميتين ، وأصبحت غاراتها تنصب على بلاد المسلمين المفتوحة لا على بلاد الأعداء لفتح جديد .

وفي سنة أربعين الهجريّة قُتل أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيد عربي في عاصمته الكوفة في المسجد وهو ينادي الصّلاة ... الصّلاة .. ![3] .

لقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن الخطّاب قتله فارسيّ ، وعثمان بن عفّان قتله

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٩٤ـ ١١٠) .
(٢) نظر التفاصيل في . ابن الأثير (٣/ ٣٨١ـ ٣٨٢) .
(٣) نظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/ ٣٨٧ـ ٣٩٦) .

العرب ، وعليّ بن أبي طالب قتله عربيّ من مُراد .

وبويع معاوية بن أبي سفيان ، ولكن الدولة الإسلامية كانت تغلي كالمرجَل ، وأصبح الفاتحون شيعاً وأحزاباً .

وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١ م) ، بدأ الاقتتال بين معاوية والخوارج ، فنكثت (خُراسان)[١] .

وفي سنة إثنتين وأربعين الهجرية (٦٦٢ م) ، بدأت تباشير الاستقرار في البلاد العربية ، فغزا المسلمون (اللاّن) والرُّوم ، وهزموهم هزيمة منكرة[٢] .

وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية (٦٦٣ م) غزا المسلمون (سجستان) بعد أن انتقضت ، فاستعادوا فتحها بلداً بلداً[٣] ، كما استعادوا فتح (طخارستان)[٤] .

ومن سنة أربع وأربعين الهجرية حتى وفاة معاوية

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٤١٧).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٤٣٠).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧).
(٤) ابن الأثير (٣/ ٤٣٨) .

ابن أبي سفيان سنة ستين الهجرية (٦٦٤ م - ٦٧٩ م)، عمّ الاستقرار أرجاء البلاد العربية ، فغزا المسلمون (السِّند) و(القُسْطَنْطِيْنِيَّة) و(إفْرِيقيّة) والرُّوم ، وفتحوا جزيرة (أرْواد) وفتوحات جديدة أخرى ، واستعادوا فتح المناطق التي سبق فتحها ثم انتقضت ، وذلك بفضل عودة الاستقرار والوحدة الى المسلمين .

وتولّى يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه سنة ستين الهجرية (٦٧٩ م)، فبدأت الاضطرابات والفتن والثورات تنبعث ثانية في أرجاء البلاد الإسلامية وفي البلاد العربية قلب الدولة الإسلامية ، وفي سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠ م) استشهد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في (كَرْبَلاء)[1] فغدر أهل (كابُل) ونكثوا وقتلوا المسلمين ، ووقعت العصبية القبلية بين الفاتحين في البلاد المفتوحة[2] ، مما أضعفهم وهوّن أمرهم بين الأعداء .

وفي سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٢ م) كانت

---

(١) انظر تفاصيل استشهاده في : ابن الأثير (٤/ ٤٦ - ٩٤).

(٢) انظر ابن الأثير (٤/ ٩٧ - ٩٨).

وقعة (الحَرَّة في المدينة المنوّرة ، فأبيحت المدينة ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال والمتاع ، فتساقط القتلى والجرحى من سكانها بالآلاف[1].

وفي سنة أربع وستين للهجرية (٦٨٣ م) مات يزيد بن معوية ، وكان قد عهد بالأمر الى ابنه معوية بن يزيد ، فبقي في الخلافة شهرين أو أقلّ ، ثم مات ولم يستخلف أحداً[2].

وفي هذه السنة بويع لعبد الله بن الزبير بمكة المكرمة ، وكان حصار الشّاميين قد اشتّد على ابن الزبير ، فلما علموا بموت يزيد انسحبوا الى المدينة المنورة في طريقهم الى دمشق[3].

وغلبَ على الشّام الضّحّاك بن قيس الفِهْري[4] ، فدعا الى ابن الزبير ثم إلى نفسه وانحاز عنه مروان بن الحكم في بني أميّة الى أرض (حَوْرَان) ، فوافهم

---

(١) انظر التفصيل في : ابن الأثير (٤/١١١ - ١٢٢).

(٢) العبر (١/ ٦٩).

(٣) ابن الأثير (٤/ ١٣٠).

(٤) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٦/٧ - ١٢).

عبيد الله بن زياد[1] من الكوفه على البرّية منهزماً من أهلها ، فقوي عزم مروان على طلب الخلافة. وجرت أمور كثيرة إلى أن التقى مروان والضّحاك بـ (مَرْج راهط) بنواحي دمشق شرقي (الغُوطة) ، فقُتِل الضّحاك وقتل معه نحو ثلاثة آلاف ، وانتصر مروان في سنة أربع وستين الهجرية[2] (٦٨٣ م).

وبويع مروان بن الحكم في هذه السنة ، فانتقضت (الرّيّ)[3] ، وبايعت (خراسان) والياً اختارته[4] ، وثارت فتنة المختار في (الكوفة) فأرعدت الفتنة وأبرقت[5].

ومات مروان سنة خمس وستين الهجرية (٦٨٤ م)، وتولى عبد الملك بن مروان ، فكان على أرض الشّام ومصر ، وكان عبدالله بن الزبير[6] على

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦).
(٣) ابن الأثير (٤/١٤٤).
(٤) ابن الأثير (٤/١٥٤ ـ ١٥٨).
(٥) ابن الأثير (٤/١٦٨ ـ ١٧٤)
(٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (٢/٣٦ ـ ٩١).

البلاد الاسلامية الأخرى .

وبدأ عبد الملك بن مروان يبذل قصارى جهده لاعادة الوحدة الشاملة إلى بلاد لمسلمين ، فكانت في سنة سبع وستين الهجرية (٦٩٥ م) وقعة (الخازر) اندحر فيها أهل الشام ، وكانوا أربعين ألفاً ، وظفر بهم إبراهيم بن الأشتر النَّخَعيّ ، وقتل أمراء الشّام ، وكان ابن الأشتر قائداً من قادة المختار[1] .

وقضى مُصْعب بن الزبير على المختار ، وقضى عبد الملك على مُصْعَب ، وخرجت الخوارج بفارس والعراق وذلك سنة ثمان وستين الهجرية (٦٩٦ م) .

وفي هذه السنة ، وافى (عَرَفات) في موسم الحجّ أربعة ألوية : لواء لمحمد بن الحنفيّة وأصحابه ، ولواء لابن الزبير وأصحابه ، ولواء لبني أميّة ، ولواء لنَجْدة الحَروريّ[2] ، وهكذا تفرّق المسلمون حتى في أداء شعائر الحج !

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٢٦١ - ٢٦٧).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٩٦).

وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠ م) قضى عبد الملك بن مروان على مُصْعب بن الزبير في العراق[1].

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١م) قضى عبد الملك على قسم من فتن الخوارج والخارجين عليه في الأمصار[2].

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م)، قضى الحجّاج بن يُوسُف الثّقفيّ على عبد الله بن الزبير في الحجاز[3].

وهكذا قضى عبد الملك بن مروان من سنة خمس وستين الهجرية الى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٨٤ - ٦٩٢ م) في صراع مرير لاستعادة الوحدة الشّاملة الى الدولة الإسلامية ، سقط من جرائه مالا يعدّ ولا يحصى من القتلى ، وشغل العرب فيما بينهم بالاقتتال عن القتال في ساحات الجهاد ، فضعف شأن المسلمين

---

(١) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٤ / ٣٢٣ - ٣٣٦) .

(٢) انظر التفصيل في ابن الأثير (٤ / ٣٤٢ - ٣٤٧) .

(٣) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣ / ٣٤٨ - ٣٥٩) .

في البلاد لمفتوحة ، واجتاحتها الفتن والاضطرابات والفوضى .

لقد كانت سنة ثلاث وسبعين الهجرية سنة الوحدة الشملة للدولة لإسلامية .

والدرس الذي نتعلّمه ، أن من أسباب فتوح المسلمين وحدتهم بالاسلام ، وأنّ الفتوح تمتدّ شرقاً وغرباً في أيام الوحدة ، وتنحسر في كلّ مكان في أيام الفُرْقة .

ولم تكن إرمينية أسعد حظّاً من البلاد المفتوحة الأخرى ، بل كانت مثلها في انتقاض أهلها واستقلالهم عن الدولة الاسلامية .

٢ ـ جهاد محمد بن مروان :

لما كانت فتنة عبدالله بن الزبير ، انتقضت إرمينية[١] ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) وهو عام الوحدة ، ولّى عبد الملك بن مروان أخاه محمد

(١) فتوح البلدان (٢٨٩).

ابن مروان على الجزيرة وإرمينية ، فغزا منها وأثخن في العدو[1] وقتل وسبى وغلب على البلاد[2] . وفي سنة أربع وسبعين غزا محمد بن مروان الصائفة الرُّوم[3] ، كما غزا الروم سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤ م) الصّائفة أيضاً[4] .

وفي سنة ست وسبعين (٦٩٥ م) غزا محمد الروم من ناحية (مَلَطْيَة)[5] .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠ م) غزا محمد إرمينية فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها بعد أن صالحهم ، فغدروا به وقتلوه غدراً[6] .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) غزا محمد إرمينية فصاف فيها وشتى[7] .

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٣٦١) .
(٢) فتوح البلدان (٢٨٩) .
(٣) ابن الأثير (٤/ ٣٧٣) .
(٤) ابن الأثير (٤/ ٣٩١) .
(٥) ابن الأثير (٤/ ٤١٨) .
(٦) ابن الأثير (٤/ ٤٧٦) .
(٧) ابن الأثير (٤/ ٥١٤) .

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) عزل الوليد بن عبد الملك عمه محمد بن مروان عن إرمينية والجزيرة واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك[1].

لقد كان محمد بن مروان قائداً متميّزاً، له شخصية قويّة نافذة، وقد أعاد الهدوء والاستقرار إلى إرمينية، وخافهُ أهلها[2].

٣ ـ جهاد مَسْلَمَة بن عبد الملك[3]:

(أ) ـ ولايته الأولى:

عزل الوليد بن عبد الملك عَمّه محمد بن مروان عن (الجزيرة) و(إرمينية) سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة[4]. ولما أراد الوليد عزل عمه، لم يقدم أحدٌ عليه إلاّ مَسْلَمَة[5].

وفي هذه السنة غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب)،

---

(١) ابن الأثير (٤/٥٥٥).
(٢) فتوح البلدان (٢٨٩).
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الروم
(٤) ابن الأثير (٤/٥٥٥).
(٥) ابن الأثير (٥/٧٠).

وفتح مدائن وحصوناً ، وبصب عليهم المجانيق[1] .

وأمضى مسلمة السنوات التالية في غزو بلاد الرُّوم ، وفي سنة خمس وتسعين الهجريه (٧١٣ م) غزا مسلمة مدينة (باب الأبوب) وفتحها وخرّبها ، ثم بناها بعد ذلك[2] بعشر سنين[3] أو تسع سنين[4] ، وقد انتقضت هذه المدينة فأعادها للمسلمين مرة أخرى ، والظاهر أنها استعصت . وغزا مسلمة بلاد الروم سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) وسنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م).

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م - ٧١٧ م) عزل سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة وولاه قائداً عاماً لقوات المسلمين المعتزمة فتح القُسْطَنْطِينية[5] ، فسار على رأس جيشه نحو هدفه .

---

(١) الطبري (٦/٤٥٤) وابن الأثير (٤/٥٥٥) وابن خلدون (٣/١٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٢) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٢).

(٢) البداية والنهاية (٩/٣٢٨).

(٣) البداية والنهاية (٩/١١٧) والمعارف (٣٦٥).

(٤) البداية والنهاية (٩/٣٢٨).

(٥) أبو الفدا (١/٢٠٠) والعبر (١/١١٦) .

(ب) ولايته الثانية :

وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م)، استعمل هشام بن عبد الملك أخاه مَسْلَمَة على إرمينية وأذْرَبِيْجان خلفاً للجرّاح بن عبدالله الحكمي[١] فاستعمل مسلمةُ الحارث بن عمرو الطائيّ[٢]، فافتتح رستاقاً وقرى كثيرة، وأثّر فيها أثراً حسناً[٣].

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦ م)، حاصر الترك مدينة (ورْثان)[٤] ورموها بالمنجنيق، فقصدهم الحارث بن عمرو بأمر مَسْلَمَة وعبر نهر (الرّس) بالقرب من (وَرْثان)، والتقى بالترك وانتصر عليهم بعد أن كبّدهم خسائر فادحة بالأرواح[٥].

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي
(٢) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٣/٤٥٦).
(٣) ابن الأثير (٥/١٣٧ - ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٠).
(٤) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين وادي الرس فرسخان ، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٣/٤٥٦).

وفي سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧ م) ، غزا مسلمةُ التركَ من ناحية (أَذْرَبِيْجان) ، فغنم وسبى وعاد سالماً[1].

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨ م)، غزا مَسْلَمَةُ التركَ في باب (اللان) ، فلقي خاقان[2] في جموعه ، ونشب القتال بين الجانبين قريباً من شهر واحد ، وأصابهم مطرٌ شديد ، فانهزم خاقان وعاد مسلمة منتصراً[3].

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م)، استعمل هشام بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحَكَمي على إرمينية وأذربيجان وعزل أخاه مسلمة[4].

---

(١) ابن الأثير (١٤٥/٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٢/٢).

(٢) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك

(٣) ابن الأثير (١٥٥/٥) . وكانت هذه الغزوات من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة ، وإشاعة الأمن والاستقرار في (أذربيجان) و(إرمينية) الجبليتين ذات البرد القارس والسكان الجبليين الماهرين في الحروب الجبلية والمتميزين بالشجاعة والاقدام . .

(٤) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤٣) والنجوم الزاهرة =

ومن الـواضـح أن مسلمـة وطـد أكـاف إرمينيـة وأذربيجان وأحرزَ انتصـارات باهـرة على الخَزَر والترك ، فأدّى واجبه على أحسن وجه ، ولم يبق ما يسوّغ بقاءه في منصبه بعيداً عن عـاصمة الخلافة (دِمشق) ، وبخـاصة فـإن وجوده في دمشق يفيـد جميع الأقـطار الاسلاميـة ولا يقتصر على قطرين إسلاميين حسب . ولعل عـزل مسلمة كـان لحـرص هشـام عـى أن يبقى مسلمـة إلى جـانبـه ، مـستشاراً ناصحاً وقائداً لامعاً وإدارياً حازمـاً ، فاستـأثر بـه لنفسـه من أجل مصلحـة الدولـة الاسلاميـة كلهـا ، إذ لا يمكن الاستغناء عن كفاية مسلمة الذي أصبح قائد الدولة البـارز غير منـازع في كفايتـه وإخلاصـه إلّا لتـولي مهمـة جـديـدة هي أكبـر من مهمتـه الكبيـره والياً على إرمينيـة وأذربيجان . ومن المحتمل ان عـزله كـان لأسباب قـاهرة كـالمرض مثلاً ، لأن هشام بن عبـد الملك لا يمكن أن يعزل أخاه مسلمة بدون رغبته إلا لأسباب قـاهرة ، سكت المؤرخون عن ذكرها .

= (١ / ٢٧٠) وابن خلدون (٣/٢٩٩) وتاريخ المـوصل (٣٠) وتـاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٣).

ولم يغز مسلمة سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) خلافاً لعادته التي التزم بها في الغزو كلّ سنة مرّة أو مرّتين . وفي تلك السنة سارت الترك إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم[1] ، مما يدلّ على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد ممن يعملون بإمرته ، وهذا يدلّ على أنّ مسلمة كان في (دمشق) لأسباب غير عاديّة ، فأراد هشام أن يولّي غيره دون أن يعزله لريبة أو تقصير .

(ج) ولايته الثالثة :

استُشهد الجرّاح بن عبدالله الحكميّ سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، فاضطربت إرمينية وأذربيجان ناراً ، وأصبح الموقف العسكري حرجاً مما يهدّد البلاد المفتوحة بأفدح الأخطار .

وأعاد هشام مَسْلَمَة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية[2] (٧٣٠ م) ، ليتدارك الموقف المتردي

(١) ابن الأثير (٥/١٥٨) .
(٢) فتوح البلدان (٢٩٠)

فيه ، بعد أن استفحل أمر الخَزَر والترك فأبادوا قائد المسلمين وجيشه[1] .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) ضمَّ هشام إلى مسلمة أذربيجان أيضاً[2] ، وانطلق مسلمة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مسرعاً لاستعادة هيبة الدولة وإعادة الأمن ، فليس مسلمة من الذين يسكتون على استشهاد قائد من قادة المسلمين وإفناء جيشه دون أن يعيد المعتدين إلى صوابهم .

وكان على مقدمة مسلمة سعيد بن عمرو بن أسود الحَرَشيّ[3] فواقع سعيد الخَزَر وقد حاصروا (وَرْثان) فكشفهم عنها وهزمهم ، وانسحب الخزر إلى (بيْمَذ) من عمل أذْرِبيجان ، فلما تهيّأ لقتالهم أتاه كتاب مسلمة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه ، ويعلمه أنه قد عزله وولى قيادة عسكره غيره . وسلّم سعيدُ القيادة ، فأخذه رسول مسلمة وحبسه وأخذه مقيداً إلى (بَرْذَعَة) وحُبس

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٨).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا   قادة فتح المشرق الاسلامي

في سجنها ، وانصرف الخزر ، فاتهم مسلمة وكتب بذلك إلى هشام ، فكتب هشام إلى مسلمة :

أتَتْرُكُهُمْ بِمِيْمَذ قد تَراهُم
وتَطْلُبُهُم بمنقطع التراب!

وأمر هشام باطلاق سراح سعيد من السجن .

وقد كان الخزر بميمذ ، فلم يناجزهم مسلمة أولاً ، بل قصد مدينة (باب الأبواب) ثم عبرها ، فتبعه[1] الخزر . وكان على مسلمة أن يبدأ بها ، حتى لا يعرِّض خطوط مواصلات جيش المسلمين للخطر ، ولكن حصل العكس ، مما أدّى الى الاختلاف بين مسلمة وسعيد من جهة وبين مسلمة وهشام من جهة اخرى ، وكن سعيد وهشام على حق ، وكان مسلمة على خطأ.

وصالح مسلمة أهل (خَيْزان) وأمر بحصنها فهدم[2] ، مما يدل على تكرار انتقاضها وشدّة مقاومتها للفاتحين .

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٢) فتوح البلدان (٢٩١).

وسالم مسلمة ملوك الجبال : جبال القفقاس ، وسار إليه صاحب (مَسْقَط)[1].

وهاجم مسلمة مدينة (باب الأبواب)، وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخَزَز ، فحاصرهم ورماهم بقنابل الحجارة والحديد ، فلم ينتفع بهذا القصف ، وبقيت المدينة ثابتة .

وعمد مسلمة إلى العَيْن التي كان أنو شرْوان أجرى منها الماء إلى صهريج المدينة ، فذبح البقر والغَنَم ، وألقى فرثها وفضلاتها الأخرى في الصهريج ، فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد ، فلما جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة[2] وهكذا استعاد مسلمة مدينة (باب الأبواب) بعد حصار طويل وقتال مرير .

ووطّد مسلمة العزم على ترصين مدينة باب الأبواب لجعلها قاعدة متقدمة للمسلمين ، فأسكن المدينة أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشّام على العطاء ، فأهل الباب لا

---

(١) فتوح البلدان (٢٩١).
(٢) فتوح البلدان (٢٩١).

يدعون عاملاً يدخل مدينتهم إلاّ معهُ مال يفرّقه بينهم[1].

وبنى مسلمة في مدينة باب الأبواب هُرْياً للطعام ، وهُرْياً للشّعير ، وخزانة للسلاح ، وأمر بتطهير صهريج المدينة ، ورمّ المدينة وشرّفها[2]. وهكذا جعل مسلمة من هذه المدينة قاعدة أمينة متقدِّمة في محاولة لعدم انتقاضها مرة أخرى ، ولكي ينطلق منها المسلمون شمالاً لحماية البلاد المفتوحة ولإضافة فتح جديد

وقد فرّ الخزر من مدينة باب الأبواب باتجاه منطقة باب (اللان) ، فطاردهم مسلمة الى هناك للقضاء عليهم وإجبار قواتهم الضّاربة على الاستسلام .

ولقي مسلمةُ (خاقان)[3] في جموعه ، فنشب بين الجانبين قتال مرير استغرق قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزم خاقان في السّابع من جمادى الآخرة من هذه السنة .

---

(١) فتوح البلدان (٢٩١).
(٢) فتوح البلدان (٢٩١).
(٣) الخاقان . لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

وهـذه الغزوة تسمى غـزوة الطِّين ، وكـانت ملحمة عـظيمة ، لهـطول الأمـطار الغـزيـرة التي جعلت سـاحـة المعركة تغصّ بالطِّين[1] .

لقد قضى مسلمة هـذه السنة صيفـاً وشتاء غـازياً ، وكان من عادة المسلمين أن يغـزوا الصّائفـة ويستقرّوا في الشتاء ، ولكن سير الحـوادث في تلك السنة أجبـره على ألاّ يُـريـح ولا يستـريـح ، للقضـاء على مقـاومـة الخـزر الأشدّاء الأقوياء المتمرّسين على الحروب الجبليّة .

وفي سنـة ثلاث عشـرة ومئة الهجـريـة (٧٣١ م)، فـرّق مسلمـة الجيـوش ببـلاد خـاقـان ، ففتحت مـدائن وحصـوناً على يـديه ، وقتـل منهم وأسر وسبى وأحـرق ، ودانَ له من وراء جبال (بَلَنْجـر) من بلاد الخـزر ، وقتل ابن خـاقان[2] ، فـاجتمعت تلك الأمم جميعهـا : الخـزر والترك وغيرهم عليـه في جمع لا يعلم عـددهم إلاّ الله . وكـان مسلمـة قـد جـاوز مـدينـة (بَلَنْجَـر) ، فلمـا بلغـه خبرهم ، أمر أصحابه فأوقدوا النيـران ، ثم ترك خيـامهم

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٧) وتاريخ الاسلام (٤ / ٣٠٤)
(٢) في المعارف (٣٦٥) : انه قتل ملك الترك .

وأثقالهم ، وعاد وعسكره جريدة[1] ، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطووا المراحل : كلّ مرحلتين في مرحلة واحدة ، حتى وصل الى (الباب) في آخر رمق[2] ، فأكمل بناء الباب وحصّنها[3] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو ابن عمه على (الجزيرة) و(أذربيجان) و(إرمينية) وعزل أخاه مسلمة[4]، فعاد أدراجه الى دمشق .

ولم يكن الموقف العسكريّ بصالح المسلمين عند عزل مسلمة ، وما مثل مسلمة يرضى بأن يتخلّى عن القيادة ، والبلاد التي بأمرته ورجاله والمسلمون في موقف عصيب .

---

(١) الجريدة : خيل لا رجالة فيها ، ويقصد : أن الجيش كان مسرعاً كسرعة الخيالة .

(٢) ابن الأثير (٥/١٧٣ - ١٧٤).

(٣) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ ابن خياط (٢/٣٥٩)

(٤) ابن الأثير (٥/١٧٧) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٣) وابن خلدون (٣/٣٠٠).

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة بدون موافقة مسمة المسبّقة ، وليس من المعقول أن يُعْزَل مسلمة لقلة كمايته ، لأنّ كفايته فوق الشبهات ، ولأنّ هشام بن عبد الملك ولّاه لكفايته المتميزة ، ليعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النظر ، أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية أو قيادة منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م)، حتى توفاه الله سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٧ م) أو إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٢٨ م) .

وغيابه عن تحمّل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الواجب ، ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ في مثل تلك الظروف الحرجة .

وإذ كان بالإمكان ان يتخلى مسلمة عن تولي المناصب الإدارية ، فليس بالإمكان أن يتخلى عن تولي المناصب القياديّة ، وهو الذي يؤثر أن يكون غازياً لا

والياً ، فقد حمل السّلاح قائداً وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقضى كلّ سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلّى عن تولي المناصب القيادية لأسباب خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أنّ تخليه عن تولي القيادة ، لم يكن بإرادته ولا بإرادة الخليفة هشام ، بل تخلّى عنها مُكرهاً ، وذلك لاصابته بمرض أقعده عن تولي هوايته المفضّلة ، ومن المعروف أن من مزايا القائد المتميّز تمتّعه بالقابلية البدنيّة المتميّزة ، ليستطيع تحمّل أعباء الجهاد ، وما أثقلها من أعباء

وإلاّ فليس هنا أيّ سبب آخر يسوّغ ابتعاده عن ساحات الجهاد غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش بكفاية وقوّة وأمانة .

٤ـ جهاد الجراح بن عبد الله الحكمي[١] .

(أ) في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) ، ولّى

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .

يــزيــدُ بن عبــد الملك الجــرّاح بن عبــدالله الحكمي إرمينية[1].

وسبب تولية الجرّاح ، أنّ المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجريّـة (٧٢١ م)، دخلوا بلاد الخَـزَر (القفقاس) من إرمينيـة وعليهم ثُبيت النَّهراني[2] ، فـاجتمعت الخـزر في جمـع كثير ، وأعـانهم الترك من مختلف أنـواعهم ، فلقـوا المسلمين في موضـع يعرف بـ(مَـرْج الحجـارة) . ونشب القتــال بين الجانبين بشـدّة وعُنف ، فقُتــل من المسلمين بشر كثير[3] واستولى الخزر على معسكـرهم ، وغنمـوا جميع مـا فيه[4] ، وذلـك في عزّ الشتـاء من شهر رمضان من سنة ثلاث ومئة الهجرية[5] (٧٢١ م) .

---

(١) ابن الأثيـر (١١١/٥) وتاريـخ خليفـة بن خيـاط (٣٣٧/١) والعبر (١٢٦/١) وتاريخ الموصل (١٧).

(٢) في تـاريخ خليفـة بن خياط (٣٣٦/١) : أن قـائـد المسلمين كـان معلق بن صفار البهراني .

(٣) في تـاريـخ خليفــة بن خيـاط (٣٣٦/١): فـأصيب من المسلمين جميعاً .

(٤) ابن الأثير (١١٥/٥)

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١)

وهكـذا تجمّعت على المسلمين حُشـود الخـزر الضحمة وحلفاؤهم ، وبـرد الشتاء القارس في عنفوانه ببلاد جبلية باردة جداً ، فأدّى هذان العاملان إلى هزيمتهم .

وأقبل المنهزمون إلى الشام ، على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثُبَيْت ، فوبّخهم يزيد ، فقال ثُبَيْت : « يا أمير المؤمنين ! ما جبنتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي ، وضاربت حتى انقطع سيفي ، غير أنّ الله سبحانه وتعالى يفعلُ ما يُريد »[1].

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين ، طمع الخزر في البلاد ، فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يزيدُ بن عبد الملك على إرمينية وأذْرَبِيْجان الجرّاح بن عبدالله الحَكَمي ، وأمدّه بجيش كثيف ، وأمرهُ أن يغزو الخزر وغيرهم من الأعداء ، وقَصْدَهم في عقر دارهم . وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين ، فلجأوا إلى مدينة

(١) ابن الأثير (٥/١١)

(بـاب الأبـواب). ووصـل الـجـرّاح الـى مـديـنـة (بَـرذَعَـة)[1] ، فـأقام بهـا حتى استراح هـو ومَنْ معـهُ . وتوجّه نحو الخزر ، فعبر نهر (لكُـرّ)[2] فسمع أن بعض مَنْ كانَ معهُ في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخـزر يخبرُه بمسيـر الجرّاح اليـه ، فأمـر مناديه فنادى بالناس : « إنّ الأمير مقيم ههنا لعدّة أيـام ، فاستكثروا من الميـرة » ، فكتب ذلك الـرجـل إلى ملك الخزر يخبرهُ أنّ الجراح مقيم ، ويشير عليه بترك الحـركة لئلا يطمع المسلمون فيه[3].

ولما كان اللّيل ، أمر الجرّاح بالرّحيل ، فسار مُجِداً حتى انتهى الى مدينة (باب الأبواب) ، فلم ير الخزر ، ويبـدو أنهم انسحبوا بسـرعـة من المـدينة الى منـطقـة حشـودهم ، فدخـل المسلمون المـدينه ، وبثّ الجـرّاح

---

(١) برذعه : مدينة من مدن إرمينية الأولى ، انظر التفصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٩ - ١٢٢).

(٢) نهر الكر . نهر ينبع من كورة جرزان (جورجيا) من جبال (جلدير) ويمر بمدينة تفليس ، ويبلغ طوله نحو (٩٤٠ كم) ، انظر ما جاء عن هذا النهر في . معجم البلدان (٧/ ٢٣٧ - ٢٣٨).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١١١).

سراياهُ على ما يجاور المدينة ، فغنموا وعادوا في الغد .

وسار الخزر وحلفاؤهم إلى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان) ، فالتقوا عند نهر (الرّان)[1] فنشب القتال الشديد بين الجانبين ، وحرّض الجراح أصحابه ، فظفر المسلمون بالخزر ، وهزموهم ، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقُتل منهم خلق كثير ، وغنم المسلمون جميع ما معهم ، وفُتح حصن (الحُصَيْن) سلماً ، ونقل أهله عنه .

وسار الجرّاح بالمسلمين الى مدينة (يَرْغوا)[2] ، فأقام عليها ستة أيام ، وهو مجد في قتال أهلها ، فطلبوا الأمان ، فأمّنهم ونقلهم منها[3].

وسار الجرّاح الى (بَلَنْجر) وهو حصن مشهور من حصونهم وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة ،

---

(١) نهر الران : هو نهر (أران) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢١٣ - ٢١٤) ، ومنطقة أران من إرمينية الأولى .

(٢) يرغوا : لم أجد لهذه المدينة ذكراً في معجم البلدان ، وقد وردت في كتاب : تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٧) : يزعوا .

(٣) ابن الأثير (٥/١١٢).

شدّوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها ، وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن ، وكان تلك العجل أشدّ شيء على المسلمين في قتالهم[1].

وخرج رجل من المسلمين فقال : «مَنْ يَشْري الله نفسه»؟ ، فأجابته جماعة ما بلغت عدّتهم ثلاثين رجلاً ، فكسروا جفون سيوفهم ، وشدوا على العجل ، وأجلوا الرجال عنها ، وأخذوا عجلة منها[2].

وجدّ الخزر بقتالهم ، ورموا من النشاب ما كان يحجب الشّمس ، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا الى العَجَل ، وتعلقوا ببعضها ، وقطع الحبل الذي يمسكها ، وجذبوها ، فانحدرت ، وتبعها سائر العَجَل ، لأن بعضها كان مشدوداً الى بعض ، وانحدر الجميع الى المسلمين[3].

والتحم القتال واشتدّ ، وعظم الأمر على الجميع ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، فانهزم الخزر وحلفاؤهم ،

---

(١) ابن الأثير (٥ /٢ ح ١).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١ /٣٣٧).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١ /٣٣٧).

واستولى المسلمون على الحصن عَنْوَةً وأصابوا جميع ما فيه غنائم للمسلمين ، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، وكانت تلك المعركة في ربيع الأول[1] من سنة أربع ومئة الهجرية[2].

وسار الجرّاح عن (بَلَنْجر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بَلَنْجر) وأهله ، فبعث الجرّاح إليه وأحضره وردّ أمواله وأهله وحصنه إليه ، وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم .

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر)[3] وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجرّاح على مال يؤدونه[4].

وسار الجرّاح الى (وَرْثان)[5] ، فأدركه الشتاء ،

(١) كان فتح بلنجر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول ، انظر خليفة بن خياط (١ / ٣٣٧)

(٢) ابن الأثير (٥ / ١١٢) وتاريخ خليفة بن خياط (١ / ٣٣٧)

(٣) وبندر : لم أجد لهذا الحصن ذكراً في كتاب : معجم البلدان ، ويبدو من سير القتال أنه يقع في منطقة أران .

(٤) ابن الأثير (٥ / ١١٢).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١ / ٣٣٨) ، وفي ابن الأثير (٥ / ١١٣) : أنه عاد الى رستاق (ملي).

فأقام المسلمون فيها .

وكتب الجرّاح الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه ، وأن أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، ويسأله المدد .

ووعد يزيد أن يبعث بالمدد إلى الجرّاح ، ولكنّ الأجل أدركه قبل أن يبعث بما وعد به ، فأرسل هشام بن عبد الملك الى الجرّاح .لمدد ، وأقرّه على عمله[1] .

(ب) وفي سنة خمس ومئة الهجريّة (٧٢٣ م)، زحف الترك نحو إرمينية وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك ، فالتقى الجانبان في موضع يقال له : (الزمّ)[2] بين نهري (الكُرّ) و(الرَسّ) من إرمينية في شهر رمضان من هذه السنة ، واستمرّ القتال أياماً ، فانهزم الترك[3] .

---

(١) ابن الأثير (٥/١١٣).

(٢) الزم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر معجم البلدان (٥/ ٤٠٥)، وليست هي المقصودة هنا ، لبعدها عن ساحة القتال ، بل هي موضع بين نهري (الكر) و(الرس) في إرمينية .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٩).

والظّاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بن عبد الملك بأرساله الى إرمينية قد وصل إلى الجرّح في الوقت المناسب ، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقض من إرمينية ، فغزا الجرّاح (اللان)[1] ، وهي بلاد واسعة غنيّة ، فاستعاد الجرّاح فتحه وفتح مدائن وحصوناً وراء (بلنجر)، وأصاب غنائم كثيرة [2] .

(ج) وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤ م)، غزا الجرّاح بلاد (اللان) ، فصالح أهلها وأدّوا الجزية[3] ، بعد أن أوغل في بلاد الخزر ، وهو أول منْ قفل من باب (اللان) في إرمينية[4].

(د) وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م)، عزل هشام بن عبد الملك الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك[5] ولم يذكر المؤرخون

---

(١) اللان : بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب مدينة (باب الأبواب) مجاورة للخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٣٤).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٩) والبداية والنهاية (٩/ ٢٣١) .

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٣٤).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٤٩) .

سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان ، لأن الجرّاح لم يقصرّ في واجبه قائداً وإدارياً ، كما إنّ نزاهته كانت فوق الشبهات ويبدو أنّ هشام بن عبد الملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه مسلمة القيادية في منطقة نائية جبلية اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر ، فعزل الجرّاح واستعمل أخاه .

(هـ) وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) ، استعمل هشام بن عبد الملك الجَرّاح ثانية على أرمينية وأذربيجان ، وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك[٢].

ودخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفليس)، واستعاد فتح مدينة من مدن الخزر هي مدينة (البيضاء)[٣] ، ثم انصرف سالماً[٤].

---

(١) ابن الأثير (٥/١٣٧).

(٢) ابن الأثير (٢/١٥٨) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٢) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٠) وابن خلدون (٣/٢٩٩).

(٣) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٣٥).

(٤) ابن الأثير (٥/١٥٨) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٤).

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقيادة ابن خاقان ، فدخلوا إرمينية ، ثمّ سار ابن خاقان ، فحاصر (أرْدَبِيل)[1].

(د) وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م)، زحف الجرّاح من (بَرْذَعَة)[2] ، وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللان). وعسكر الجرّاح ومَنْ معه بمرج (أرْدَبِيل)، وقاتل جموع الخزر والترك أشدّ قتال رآه الناس ، فصبر الفريقان صبراً جميلاً[3] .

وتكاثر الخَزَر والتُّرك على المسلمين ، فاستُشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثني عشرة ومئة الهجرية ، وغلبت الخَزر على أذربيجان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوصل) ، وعظم الخطب على المسلمين[4] ، وتكبدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال .

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤ - ٣٥٥).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٥).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٦).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٦)

٦ـ جهاد سعيد بن عمرو الحرشي

لما بلغ هُشام بن عبد الملك خبر استشهاد الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ ، دعا سعيداً الحَرَشي ، فقال له : « بلغني أنّ الجرّاح قد انحاز عن المشركين »! قال : « كلاّ يا أمير المؤمنين ! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قُتل » قال : « فما رأيك ؟ » ، قال : « تبعثني على أربعين دابّة من دواب البريد ، ثمّ تبعث اليّ كلّ يوم أربعين رجلاً ، ثمّ اكتبْ إلى أمراء الأجناد يوافوني » ، ففعل ذلك هشام[١] وولاّه مقدّمة مَسْلَمَة بن عبد الملك[٢] الذي ولاّه إرْمينية وأذَرْبِيْجان[٣].

وسار الحَرَشيّ ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَن يريد الجهاد في سبيل الله

ووصل الى مدينة (أَرْزَن)[٤] ، فلقيه جماعة من

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، وانظر الطبري (٧/ ٧٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥).

(٢) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٣) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٤) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة ، انظر ـ

أصحاب الجرّاح وبكوا وبكى لبكائهم ، ففرّق بينهم نفقة وردّهم معه .

ووصل الحَرَشي على رأس المقدّمة التي كانت مؤلفة من جيش كامل ـ وإنما سميت مقدّمة لأن الحَرَشي انطلق بسرعة قبل مَسْلَمَة ـ وصل إلى (خِلاط)[1]، وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء ، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعة)[2] بعد فتح (خِلاط) عَنْوة .

ونزل (بَرْذَعة) ، وكان ابنُ خاقان يومئذٍ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة (وَرْثان)[3] ، فخاف الحَرَشي أن يملكها ، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل (وَرْثان) سِراً يعرِّفهم بوصوله ويأمرهم بالصبر ؛ فسار الرَّسول ولقيه بعض الخَزر ، فأخذوه

= التفاصيل في معجم البلدان (١/١٩٠ ـ ١٩١) .

(١) خلاط : مدينة مشهورة ، وهي قصبة إرمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٩٣) .

(٢) برذعة : مدينة كبيرة جداً في إرمينية انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١١٩ ـ ١٢٢).

(٣) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين نهر (الرس) فرسخان ، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣ ـ ٤١٤).

وسألوه عن حاله ، فأخبرهم وصدقهم !وقال الخـزر له : إنْ فعلتَ مـا نأمرك به ، أحسنَّ إليـك وأطلقنـاك ، وإلاَّ قتلناك . قال : « فما الذي تريدون »؟ قالوا : تقول لأهل (وَرْثان): إنكم ليس لكم مدد ولا مَنْ يكشف مـا بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد الينا . فأجابهم إلى ذلك .

وقـارب الـرُّجـل المسمُ المـدينـة ، فـوقف بحيث يسمع أهلها كلامه ، والخزر يترصدونه ويسمعون كلامه ، فقال لأهل (وَرْثان) : « أتعرفوني »؟ قالـوا : نعم ، أنت فلان ! قال . « فإن الحَرَشيّ قد وصل إلى مكانه كـذا في عسـاكر كثيـرة ، وهو يـامركم بحفظ البلد والصبـر ، وفي هذين اليومين يصـل إليكم » ، فرفعـوا أصواتهم بـالتكبير والتهليل .

وقتلت الخَـزَر ذلك الـرُّجل ، ثمَّ رحلوا عن مـدينة (وَرْثان)، فوصلها الحَرَشيّ في العساكر وليس فيهـا أحد من الخزر .

و رتحل الحَرَشيّ يطلب الخَزَر في (أَرْدَبِيْـل)[1] ،

---

(١) اردبيـل : من أشهر مـدن أذربيجان ، وكـانت قبل الفتح الإسلامي قصبـة أذربيجان ، انظر التفصيـل في معجم البلدان (١/١٨٢ - ١٨٤).

فاسحب الحزر منها .

ونزل الحَرَشي (باجَرْوان)[1] ، فجاءه مَنْ يخبره أنّ الخزَرَ في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا ، وقد نزلوا على بُعْدِ أربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه .

وسار الحَرَشي ليلاً ، فوافى الخَزَر آخر الّليل وهم نيام ، ففرّق أصحابه في أربع جهات ، وكبّس الخَزَرُ مع الفجر ، ووضع لمسلمود فيهم السيف فما بزغت الشمس حتى أُبيد الخَزر ، وحتى أصبح أسرى المسلمين وسباياهم أحراراً ، فأخذهم الحَرَشي معه إلى (باجَرْوان).

ولم يكد يستقرّ به المقام في (باجَرْوان) إلاّ أتاه مَنْ يخبره بأنّ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجُرّاح وأولاده في مكان قريب .

وأسرع الحَرَشي إلى هدفه الجديد ، فلم يشعر

---

(١) باجروان : مدينة من نواحي (باب الأبواب) قرب مدينة (سروان) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤)

الخَـزَر إلاّ والمسمـون معهم ، فـوضعوا فيهم السّيف وقتلوا كيف شـاؤوا ، ولم يفلت من الخزر إلاّ الشّـريد ، واستنقـذ المسلمون مَن معهم من المسلمين والمسلمـات الأسرى والسبايا ، وغنموا أموالهم ، وأخذوا أولاد الجرّاح وحُـرَمه وأكـرموهم وأحسنوا اليهم ، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان) أيضاً .

وبلغ ما فعله الحَرَشي بعساكر الخَزر ابن ملكهم ، فوبّخ عســاكـره وذمّهم ونسبهم إلى العجـز والـوَهَن ، فحـرّض بعضهم بعضاً ، وأشـاروا عليه بجمـع أصحـابه والعود إلى قتال المسلمين .

وجمـع ابنُ ملك الخَزَر أصحــابــه من نـواحي أذربيجان ، فاجتمع معه جيش كثيف .

وســار الحَـرَشيّ إلى جمـوع الخَـزَر ، فـالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْـد)[1] ، ونشب القتال بين الجـانبين بشـدّة وعنف . وانحـاز المسلمـون وقتـاً

(١) برزند : بلدة من نـواحي تفليس من أعمـال جـرزان من إرمينية الأولى ، بينها وبين أردبيل خمسة عشر فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٢٤).

يسيراً ، وتصدّعت صفوفهم ، ولكن الحَرَشي حرّضهم على القتال وأمرهم بالصبر ، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة .

واستغاث مَنْ مع الخَزَر من أسارى المسلمين ، ونادوا بالتكبير والتهليل والدُّعاء ، فتصاعد استقتال المسلمين ، ولم يبق أحد إلاّ بكى لبكاء الأسرى .

واشتدت حملة المسلمين على الخَزَر ، فولّوا الأدبار منهزمين ، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّس)[1] ، ثمّ عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم ، وغنموا أموال الخزر ، وساروا عائدين أدراجهم الى قاعدتهم . المتقدِّمة : (باجَرْوان) .

وجمع ابن ملك الخزر مَنْ لحق به من عساكره ، وكرّ راجعاً إلى المسلمين ، فنزل على نهر (البَيْلَقَان[2]) ،

---

(١) نهر الرس : نهر مخرجه من (قاليقلا) ويمر بأران ثم يمر بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو ونهر الكرو بينهما مدينة البيلقان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ / ٢٥٠ ـ ٢٥١) .

(٢) البيلقان : مدينة قرب (باب الأبواب) تعد من إرمينية الأولى قريبة ـ

فالتقى الخزر بالمسلمين هناك .

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة ، في منطقة نهر (البَيْلقان) ، فتضعضعت صفوف الخزر . وتتابعت حملات المسلمين ، فصبر الخَزر صبراً عظيماً ، ثم كانت الهزيمة عليهم ، فولّوا الأدبار منهزمين ، وكان مَنْ غرق في النهر منهم أكثر ممّن قُتِل .

وجمع الحَرَشي الغنائم ، وعاد إلى (باجَرْوان) فقسمها[1] .

وقَدِم مَسْلَمَة بن عبد الملك إرمينية ، والخَزَر قد انسحبوا إلى (مِيْمَذ)[2] ، والحَرَشي يستعدّ لقتالهم ، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخَزَر قبل قدومه ، ويُعْلِمه أنه قد عزله وولّى قيادة جيشه غيره .

وسلّم الحَرَشي القيادة لخلفه ، فأخذه رسولُ

* من (شروان اسطر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٤٠-٣٤١).

(١) ابن الأثير (٥/١٥٩-١٦٢).

(٢) ميمذ : مدينة بأران في إرمينية الأولى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٧)

مَسْلَمة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْدَعة).

وكتب مَسْلَمَة إلى هشام بن عبد الملك بما حدث ، فكتب هُشام إلى مَسْلَمة :

أتتركُهُمْ بميمَذْ قد تراهم
ونطلبهم بمنقطع الطريق !

وأمر هشام بإطلاق سراح الحَرَشي من سجنه[1] ، فرحل إلى دمشق[2] .

٧ ـ جهاد مروان بن محمد بن مروان الأموي

تولّى مسْلَمَة بن عبد الملك إرْمينية وأذْرَبيجان للمرة الثالثة سنة ثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) بعد استشهاد الجرّاح بن عبد الله الحكميّ كما ذكرنا ، وكان معه ابن عمّه مَرْوان بن محمد بن مروان ، فنزل مروان الخَزر مع مسلمة وأبلى وقاتل قتالاً شديداً[3] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ،

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٦٢).
(٣) فتوح البلدان (٢٩٢).

استعمل هشامُ بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمّه على (الجزيرة) وأذربيجان وإرمينية وعزل مَسْلَمَة بن عبد الملك أخاه عن إرمينية وأذربيجان[1] ، وكان ذلك في مستهل شهر المحرّم من هذه السنة[2] .

وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة إلى إرمينية ، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوعة مئة وعشرون ألفاً . وأظهر مروان بعد إكمال حشد رجاله أنه يريد غزو (اللان) وقصد بلادهم ، وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه إلى ذلك ، وأرسل ملك الخزر إلى مروان وفداً لتقرير شروط الصلح ، فأمسك مروان الوفد عنده إلى أن فرغ من جهازه ، ثمّ أغلظ للوفد الخَزَرِيّ القول وآذنه بالحرب . وسيّر مروان وفد الخَزر إلى ملكهم بذلك ، ووكل به مَن يسيّره على طريق فيه بُعْد ، ثم نطلق هو في أقرب الطرق ، فما وصل الوفد الخَزَرِيّ إلى ملكهم إلا ومروان قد وافاهم . وأعلم

(١) الطبري (٧ / ٩٠) وابن الأثير (٥ / ١٧) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧٢)
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٩).

الـوفد ملكَ الخزر بإخفـاق المفاوضـات مع المسلمين ، وأنهم قد قرّروا الحـرب ، فاستشـار الملك أصحـابه ، فقالوا : إنّ مروان قد أغرّك ودخل بلادك ، فإن أقمتَ إلى أن تجمع رجالك ، لم يجتمع عندك إلى مدّة فيبلغ منـك ما يريـد ، وإن أنت لقيته على حـالك هـذه هزمـك وظفر بـك ، والرأي أن تنسحب إلى أقصى بلادك وتدَعه ومـا يريد . فقبِل رأيهم وسار حيث أمروه .

ودخـل مروان البـلاد وأوغل فيهـا وأخـربـهـا وغنم وسبى حتى انتهى إلى آخرها في توغّله ، وأقام فيهـا عِدّة أيام حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم[1] .

وفي روايـة ، أنّ ملك الخـزر حين بلغـه كثـرة مَنْ وطىء به مرون بلاده من الرجال وما هم عليـه في عُدّتهم وقوّتهم ، امتلأ قلبـه رعباً . ولمـا دنا مـروان من عاصمـة ملك الخـزر ، أرسل الى ملك الخـزر رسولاً يـدعوه إلى الإسلام أو الحرب . فقال الملك : « قد قبلتُ الإسلام ، فأرسل اليّ مَنْ يعرضه عليّ » ، ففعل مروان .

وأظهر ملكُ الخَزَر الإسـلام ، ووادع مروان الـذي

(١) ابن الأثير (١٧٨/٥).

اقرّه في مملكته ، وسار مروان مع الملك بخلق من الخَزَر ، فانزلهم ما بين (السَّمُور) و(الشّابَران)[1] في سهل أرض (اللَّكْز)[2].

وكان مروان قبل أن يتقدّم إلى بلاد الخَزَر ، قد نزل مدينة (كِسال) وهو الذي بنى مدينتها وهي من (بَرْذَعة) على أربعين فرسخاً ، ومن (تَفْلِيس) على عشرين فرسخاً ، ثمّ دخل أرض الخَزَر مما يلي باب (اللان) برَتلٍ تحت قيادته ، وامر أسِيد بن زافر السُّلَمي أبا يزيد ومعه ملوك الجبال أن يدخل أرض الخزر من ناحية (باب الأبواب على راس رَتَل آخر ، فأغار مروان على (صقالبة)[3] كانوا بأرض الخَزَر . فسبى منهم

---

(١) السمور والشابران : لم أجد لمدينة السمور ذكراً في معجم البلدان ، أما الشابران ، فهي مدينة من اعمال أران ، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠٥) ، والظاهر أن مدينة السمور في تلك المنطقة أيضاً قريبة من الشابران .

(٢) فتوح البلدان (٢٩٢).

(٣) الصقالبة . (ج) صقلب : حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في اعالي جبال الروم ، انظر التفصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٢ - ٣٧٣) .

عشــرين ألـف بيتٍ ، رأسكـنهـم (خَـاخيْط) ، ولـكنّ الصقــالبة قتلوا أميــرهم وهــربــو ، فطاردهم مــروان وقتلهم[1] .

ودخل مروان بلاد ملك (السّرير)[2] ، فأوقع بأهله وفتـح قلاعـاً ودان له الملك وصـالحـه على ألف رأس : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية في كل سنة ، وعلى مئة ألف مُدي[3] تحمل إلى أهراء مدينة (الباب)، وأخذ منه الرهن .

وصالح مـروان أهل (تُـومان)[4] على مئة رأس : خمسين جـاريـة وخمسين غـلامـاً وعشــرين ألف مـدي للأهراء في كل سنة .

ثمّ دخـل أرض (زِريكِران) فصـالحه ملكهـا على خمسين رأساً وعشرة آلاف مدي بالأهراء في كل سنة

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٢).

(٢) السـريـر : مملكـة واسعـة بين (الـلان) وبـاب الأبــواب ، انـظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٨٠).

(٣) المدي : مكيال في الشام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً

(٤) تـومان : لـم أجـد لها ذكـراً في معجـم البلدان ، والظاهـر أنهـا في منطقة اللان .

ثم أتى أرض (حمـــزين)، فـــأبى حمـــزيـــن أن يصــالحه ، فحصــرهم وفتح حصنهم بعـد أن حاصـرهم شهراً ، فأحرق وأخرب ، وكان صلحه ياه على خمسمائة رأس يؤدونها دفعة واحدة ثم لا يكون عليه سبيل ، وعلى أن يحمـل ثلاثين ألف مـدي الى أهـراء البـاب في كـل سنة .

ثم اتى مروان (سُغْدان)[1] ، فافتتحها صلحاً على مئة رأس يعطيها إيّاها صاحبها دفعة واحـدة ، ثمّ لا يكون عيه سبيل فيما يُسْتَقبَل ، وعلى ان يحمـل في كل سنـة إلى أهراء الباب خمسة آلاف مدي .

ووظف مَرْوان على أهل (طبر سرانشـاه)[2] عشرة

(١) سعـدان : وردت كـذلـك في ابن الأثيـر (١٧٨/٥) ، ووردت : سدان في فتوح البلدان (٢٩٣) ، والأول (أصح)

(٢) ملك أنو شران ملوكاً رتبهم ، وجعل لكل أمرىء منهم شاهية ناحية من النواحي ، فمنها خاقان الجبـل ، وهو صـاحب السريـر ويدعى وهـرازانشـاه ، ومنهم ملك فيـلان وهـو فيـلان شـأه ، ومنـهم طبرسرانشاه ، وملك اللكز ويدعى جرشانشاه ، وملك لبران ويدعى ليران شاه ، وملك شروان ويدعى شروانشاه ، انـظر التفاصيـل في فتـوح البلدان (٢٧٦ ـ ٢٧٧) ، وهم ملوك الطوائف في إرمينيـة الذين كانوا يحكمون باسم الفرس في حينه .

آلاف مدي في كل سنة تحمل الى أهراء الباب .

ولم يوظّف على (فيلا نشاه) شيئاً ، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه وإحماده أمره .

ثمّ نزل مروان على قلعة (اللكْز) وقد امتنع صاحبها من أداء شيء من الوظيفة وكان صاحبها قد خرج يريد صاحب الخزر فقتله راع بسهم رماه به وهو لا يعرفه ، فصالح أهل اللّكزْ على عشرين ألف مدي تحمل الى أهراء مدينة الباب .

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوان) وهي تدعى (خِرْس)[1] وهي على البحر ، فأذعن أهلها بالطّاعة والانحدار إلى السهل ، وألزمهم عشرة آلاف مدي في السنة .

وجعل مرْوان على صاحب (شَرْوان) أن يكون في المقدّمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخَزَر وفي السّاقة إذا رجعوا .

---

(١) خرس : وردت في فتوح البلدان (حرش) خطأ من الناشر والمحقق ، وهي حصن بارمينية على البحر ، انظر التفصيل في معجم البلدان (٣/ ٤١٩).

وجعل على فيلا نشاه أن يغزو مع المسلمين فقط ، وعلى طَبَرَ سَرانشاه ان يكون في السّاقة إذا بدأوا وفي المقدمة إذا انصرفوا .

وسار مروان إلى (الدُّودانية)[1] ، فأوقع بهم ، ثم عاد أدراجه إلى مقره[2].

ومن الواضح أنّ مروان أحرز انتصارت باهرة في غزوته هذه لسنة ، فافتتح عهده في إرمينية افتتاحاً موفقاً : استعاد المناطق التي انتقضت ، وقاتل الذين أصرّوا على انتقاضهم وصالح الذين احبّوا الطّاعة والسّلام ، وأدب الذين اعتادوا إشاعة الفوضى وكافأ الذين اعتدوا النِّظام ، وطبّق عملياً مبدأ العقاب والمكافأة بالنسبة للمسيئين والمحسنين ، وقسّم الواجبات القتاليّه على القادة المحليين والواجبات لإدارية على الإداريين .

ولم يكن لمروان سنتي خمس عشرة ومئة الهجرية (٧٣٣ م) وست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤ م) أيّ نشاط

---

(١) قوم يدعون أنهم عرب من نسل دودان بن أسد بن خزيمة .

(٢) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٩٢ - ٢٩٤) وانظر ابن الأثير (٥/١٧٨ - ١٧٩).

عسكريّ في إرمينية . مما يدلّ على نجاح تدابيره العسكرية والإدارية فيها .

ولكنه بعث بَعْثين سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥ م) إلى جبل (القَبق) وهو جبل القفقاس الكبرى ، فافتتح أحدُ البعثين ثلاثة حصون من (اللان) ، ونزل البعث الآخر على توفانشاه ، فنزل تومانشاه على حكم مروان ، فبعث به مروان إلى هشام بن عبد الملك في (دمشق) ، فردّه هشام إلى مروان ، فأعاده مروان على مملكته[1] .

ومن الواضح أن الاضطرابات التي حدثت في إرمينية كانت اضطرابات طفيفة ، لذلك بعث مَن يعالجها ولم يتولَّ معالجتها بنفسه ، كما أنّ عفوه عن تومان شاه وإعادته الى مملكته دليل على أن اضطراباته لم تكن خطيرة فتمّ تسويتها بسلام .

وفي سنة ثماني عشرة الهجرية (٧٣٦ م) غزا مروان ارض (وَرْتَنِيسْ)[2] فدخلها من ثلاثة أبواب ، فهرب

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٢) وابن الأثير (٥/١٨٦).

(٢) ورتنيس : حصن في بلاد سمياط . انظر التفصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣).

ورْتَنيس إلى الخزر وترك القلعة ، فنصب مروان عليها المجانيق وقُتِل وَرْتَنِيس في طريقه إلى الخزر ، فبعث مَن قتله برأسه إلى مروان ، فنصبه لأهل حصنه ، فنزلوا على حكم مروان ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية[1] .

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٧٣٧ م) غزا مروان في إرمينية ، فدخل من باب اللان ، واخترق هذه الولاية حتى خرج منها إلى بلاد الخزر ، فمرّ بمدينة (بَلَنْجَر) و(سَمَنْدر) وانتهى إلى (البيضاء) عاصمة خاقان ، فهرب خاقان منه[2] .

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة الإسلامية ومقدرتها على قمع كلِّ انتقاض بكفاية وسرعة .

ويبدو أن هذه الغزوة أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية ، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إرمينية

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٣) وابن الأثير (٥/١٩٨) ، وورد فيه : ورنيس .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٤) وابن الأثير (٥/٢١٥) وانظر النجوم الزاهرة (١/٢٨٢) .

بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكان الأصليين ، إذ لم يَغْزُ مروان هذه السنة ، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها ، وأكملت استحضاراتها لجهاد جديد .

وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م)، غـزا مروان في إرمينية ، فأتى قلعة بيت السّرير فقتل وسبى .

ثم أتى قلعة ثانية ، فقتل وسبى أيضاً .

ودخل مروان (غـوْمَشْك)[1] وهو حصن فيه بيت الملك يكون فيه ملك السّرير ، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له (خنْرج)[2] فيه سرير الذّهب ، فأقام مروان عليه شتوةً وصيفةً ، فصالحه على ألف رأسٍ في كل سنة ومئة ألفِ مُدْي .

وسار مروان ، فدخل أرض (تُومان)، فصالحه تومان ملكُها .

---

(١) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/٣٦٧) ، أما في ابن الأثير (٥/٢٤٠) فقد وردت : غومبك .

(٢) ورد كذلك في تاريخ بن خياط (٢/٣٦٧) ، أما في ابن الأثير (٥/٢٤٠)، فقد وردت : خيزج .

وسار مروان ، فدخل أرض (زَرُوبكزان)[1] فصالحه ملكها .

وسار حتى أتى (حمزين)[2] فأخرب بلاده ، وحصر حصناً له شهراً فأحرب بلا حمرين ، ثم سأله حمزين الصلح فصالحه .

وأتى مروان أرض (مسدار)[3] فافتتحها على صلح ، ثم نزل على (كِيْران)[4] ، فصالحه طَبَرْسَرانشاه وفيلان شاه .

وكلّ هذه الولايات على شاطىء البحر من إرمينية إلى (طَبَرستَان)[5] .

---

(١) وردت كذلك في ابن خياط (٢/٣٦٧) ، أما في تاريخ ابن الأثير (٥/٢١٥) ، فقد وردت : أزرو بطران .

(٢) وردت كذلك في ابن الأثير (٥/٢٤٠) ، أما في تاريخ بن خياط (٢/٣٦٧) فقد وردت : خمري .

(٣) وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/٣٦٧) ، أما في تاريخ ابن الأثير (٥/٢٤٠) ، فوردت : مسدار .

(٤) كيران - مدينة بأرمينية بالقرب من بيلقان . انظر معجم البلدان (٧/٣٠٥) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٧) وابن الأثير (٥/٢٤٠) .

ومن الواضح أنّ هـذه الغزوة كـانت لغرض فـرض سيـطرة الدولـة على الذين انتقضـوا وإظهار قـوّتهـا للذين حالفو وللذين يترددون في إعلان محـالفتهم ، والقوّة هي السبيل الوحيد لقمع الفوضى وفرض النّظام .

وقد تهيأ لمـروان في هذه السنـة من الفتوحـات أمْرٌ عـظيم ، ووقـع في قلوب الخَـزر والتـرك منـه رعـبٌ عظيم[1].

وقـد وطّـد أركـان الأمن والاستقـرار في إرمينيـة ، وأصبـح الـذين كـان دأبهم ، الإنتقـاض على الـدولـة والشغـب عليها وقطع الجزيه عنها أو المماطلة في أدائها يخافون مروان ويهابونه ويـطيعونـه وينفذون أوامـره ، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس السكّان لذلك نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار ، وانصرف مروان إلى التعمير ، حتى عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق على رأس جيش ضخم سنـة سبـع وعشـرين ومئـة الهجـريـة (٧٤٤ م) مـطالبـاً بالخلافـة ، فتولى الخـلافة بعـد يزيـد بن الوليـد بن عبد

(١) العبر (١/ ١٥٣).

الملك ، فانتهى برحيله عن إرمينية ما نعِمَت به خلال ست سنوات من نعمة السلام والاستقرار والتعمير ، وهي سنوات لم تنعم إرمينية بمثلها قبل مروان ولا بعده ، فكانت ولايته خيراً على إرمينية : « فتح خلالها بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة ، لأنه كان لا يفارق الغزو ، وأحرز انتصارات باهرة على التُّرك والخزر واللان وغيرهم وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي »[1]

وبقدر نجاحه قائداً في المجال العسكري ، كان إخفاقه خليفة في المجال السياسيّ ، فخسرته العسكرية ولم تربحه السياسة ، فقد كان مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

ولم يستطع خلفه على إرمينية أن يملأ الفراغ الذي تركه مروان ، وشغل أيامه بالاقتتال الذي أشاعه خصوم الدولة من العرب لأسباب قبليّة ومذهبية وطائفية ، فأثاروا موجة عارمة من الفوضى والاضطرابات والفتن ، ولم يبق له وقت ولا قوّات للقتال لإيقاف موجة الإنتقاض الذي

---

(1) البداية والنهاية (١٠/ ٤٧).

أظهره أعداء المسلمين ، وبذلك أصبح الاقتتال هو القاعدة والقتال هو الاستثناء ، وأصبحت سيوف العرب المجاهدين على العرب لا على اعدائهم .

وتوقف الفتح واستعادة الفتح بسقوط الأمويين ، وكان قصارى ما يطمح اليه العباسيون هو المحافظة على البلاد المفتوحة ، أما إضافة فتح جديد فقد ذهب إلى غير رجعة .

عِبْرة استعادة الفتح

بمقارنة سير الحوادث في فتح إرمينية بسير الحوادث في استعادة فتحها تبرز حقائق واضحة جليّة ، ما أحرانا أن نعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا ، لأن التاريخ ليس قصّة للتسلية وتبديد الوقت سدى ، بل للعبرة للدارسين والباحثين والسّامعين ، لا بدّ من الاعتبار بها من أجل حاضر أفضل ومستقبل أحسن ، وفائدة التاريخ تكمن في اتخاذ حوادثه عبرة للأمة التي سجل أحداثها بخاصة ولغيرها من الأمم بعامة .

وكان المسلمون الأوّلون يحرصون على تعليم

القرآن الكريم والحديث الشّريف واللّغة والتاريخ وعلى تعلّمه ، لتقويم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم لبناء الفرد المسلم إنساناً ، ولبناء المجتمع الإسلامي أمةً ، حتى يتربّى الفرد مثالياً والأمة لا تقهر أبداً .

وكان الفرد يعتبر بالتاريخ ليتأسّى بالمُحسنين فيسجّل بأعماله صفحات من نور في تاريخ أمّته ، ويترفّع عن أخطاء المُسيئين حتى لا يُسَوِّد صفحات أمته ويلحق بها العار .

وكانت الأمّة تعتبر بالتاريخ ، للتأسّي بالأمم المُحْسنة ، فتسجّل بأعمالها صفحات من نور في تاريخها تنافس بها الأمم الأخرى ، وتترفّع عن أخطاء الأمم المسيئة . حتى لا تسوِّد تاريخها وتلطّخه بالعار .

لقد فتح المسلمون إرمينية لأول مرة بسهولة ، ولكنهم استعادوا فتحها بصعوبة .

وكان الفتح بسرعة ، وكانت الإستعادة ببطء .

وكان الفاتحون قليلين عدَداً ، فأصبحوا كثيرين عدداً وعُدَداً في أيام استعادة الفتح .

وكان الفاتحون قليلي الخبرة والتجربة ، فأصبحوا خبراء بالبلاد وسكّانها وأصحاب تجربة عملية طويلة في أيام استعادة الفتح .

وكانت خسائر الفاتحين بالأموال والأرواح قليلة ، فأصبحت خسائر المُسْتعِيْدين بالأموال والأرواح كثيرة

فكيف أصبحت النتائج بعكس المقدِّمات ؟!

إنّ المفروض في حالة ازدياد تعداد الفاتحين وعددهم ، وتكاثر خبرتهم وتضاعف تجربتهم في ابلاد وأهلها ، أن يكون استعادة الفتح أسهل من الفتح لا أصعب منه وأسرع في استعادة الفتح لا أبطأ منه ، وأن تكون الخسائر بالأرواح والأموال أقلّ في استعادة الفتح لا أكثر منها في الفتح ، وبخاصة أنّ أهل البلاد لم تتطوّر قوّتهم الضّاربة بعد الفتح ولا في أيام استعادة الفتح ، فما تغيّر أهل البلاد ، ولكن الفاتحين في أيام استعادة الفتح غيّروا ما بأنفسهم ، فتزعزعت معنوياتهم التي كانت الحافز الأول للفتح ، وضعفوا واستكانوا ولم يفلحوا أبداً .

لقد كان المسلمون أيام الفتح محرِّرين كما رآهم أهل البلاد ، فأصبحوا أيام استعادة الفتح مستعبدين في نظر أهل البلاد ، لأنّ المسلمين كانوا يطبِّقون الحرب العادلة نصاً وروحاً في أيام الفتح ، تلك الحرب التي تنصّ عليها تعاليم القتال في الاسلام ، فكانوا محرِّرين للشعوب حقاً ، هدفهم إعلاء كلمة الله ونشر الفضيلة والتسامح والإخاء والمثل العليا بين الناس ، فلابد أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأن يقبلوا على تعلّم العربية الفصحى لأنها لغة الكتاب العزيز ولغة الإسلام ولغة الفاتحين ، رهبان الليل وفرسان النهار الذي كانوا يمثلون تعاليم الإسلام في تطبيقها العملي بشراً سوياً يمشون على الأرض ويأكلون الطعام كسائر البشر ، فكان الفتح فتح مبادىء لا فتح سيوف ، لذلك كان فتحاً سهلاً سريعاً ميسراً .

وقال قائل أهل البلاد المفتوحة من إرمينية : « والله لأنتم أحبّ إليّ مَلَكَةً من آل كسرى ، والله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفّى مَلِكُكم[1] ، وكان هذا القائل هو

(١) الطبري (٤/١٥٩).

شهر براز ملك مدينة (باب الأبواب) الـذي تولّى الملك على عهد كسرى قبل أن يفتح المسلمـون بلاده ، وتـولّى على عهـد المسلمين الفاتحين ، فجرّب حُكْم كسرى ، ثم جرّب حكم المسلمين ، فقال ما قاله نتيجةً لتجربته لا نتيجة لعاطفته .

ولما غزا عبـد الرحمن ذو النـور بن ربيعة البـاهليّ بـلاد الخَـزر لأول مـرة سنـة اثنتين وعشـرين الهجـريـة (٦٤٢ م) على عهـد عمـر بن الخـطّاب رضي الله عنـه ، والخـزر من أشـدّ الأمم قـوةً وشجـاعـة وإقـدامـاً ، قـال الخـزر : ما اجتـرأ علينا هـذا الرّجـل إلاّ ومعه المـلائكة تمنعه من الموت[1] فتحصن منـه الخَزَر وهـربوا ، فـرجع بالغُنْم والظّفر بدون خسائر في الأرواح[2] .

ولكن تغيّـر كثير من الـذين تحمّلوا أعبـاء استعـادة الفتح ، فقد كان جند الكوفة حينذاك ينهض بمهمة الفتح واستعادة الفتح في الجبهة الشرقية للدولة الإسـلامية ومنها

---

(١) الطبري (١٥٨/٤) وابن الأثير (٣٠/٣) .
(٢) الطبري (١٥٨/٤).

إرمينية ؛ فتبدّل أهل الكوفة لاستعمال مَن ارتدّ في جيوش المسلمين استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فساداً أن سادهم مَن طلب الدنيا[1] .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٦٥٢ م) قاد عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهليّ جيشاً إلى (بَلَنْجَر) في بلاد الخَزَر من إرمينية ، أي إلى المنطقة التي هاجمها قبل عشر سنوات فقط ، فكان الجيش الذي قاده في الغزوة الأولى مؤلفاً من عناصر وصفهم عبد الرحمن بقوله : « أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر - يريد هذا الدين - نيّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزل هذا الأمر لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَنْ يغلبهم ، وحتى يُلْفتوا عن حالهم بمن غيّرهم » ، فغزا في هذه الغزوة الأولى (بَلَنْجَر) وبلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر) بدون خسائر في الأرواح أما في غزوته الثانية التي

---

(٣) الطبري (٤/١٥٨)

كانت سنة إثنتين وثلاثين الهجرية ، بعد تغيّر في نفوس الفاتحين أو تغيّر قسم من نفوس الفاتحين ، فقد غزا (بَلَنْجَر) فاستشهد عبد الرحمن وانهزم المسلمون وتفرّقوا[1].

وقد انتبه عثمان بن عفّان إلى تغيّر نفوس قسم من الفاتحين ، فكتبَ إلى عبد الرحمن قبل أن يخوض معركة (بلَنْجَر) الثانية يقول : « إنَّ الرعيّة قد أبْطَرَ كثير منهم البِطْنَة ، فقصِّر ، ولا تقتحم بالمسلمين ، فإنّي خاشٍ أن يُبْتلوا » ، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته[2] ، فقُتِل وقتل كثير من رجاله ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء !!.

إنّ أكثر الذين خاضوا معارك الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد من أصحاب (القلوب)، فأصبح أكثر الذين خاضوا معارك استعادة الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد المفتوحة ، من أصحاب (الجيوب).

---

(١) الطبري (٤/١٥٨).
(٢) الطبري (٤/٣٠٤).

وبتعبير آخر ، إنَّ أكثر جنود الفتح وقادته ، كانوا من ذوي العقيدة الراسخة التي تجعلهم يتحلّون بمزية : (إرادة القتال) لتحقيق هدفها الواضح ، وهو : إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن : النصر أو الشهادة .

وأصحاب العقيدة الرّاسخة ، يعملون لعقيدتهم التي هي المصلحة العليا للمسلمين كافة في العزّة والكرامة ، والدفاع عن الأرض والعِرْض ، ونشر الفضيلة والأخوّة والمُثُل العليا بين الناس ، والترفّع عن الظلم والاستغلال والاستثمار والمصالح الشخصيّة للفرد .

أما أكثر جنود استعادة الفتح وقادته ، فقد تخلّوا بدرجات متفاوتة عن عقيدتهم الرّاسخة التي قادت سلفهم إلى النصر ، وخسروا مزيّة : (إرادة القتال)، فأصبحوا يعملون لأنفسهم لا لعقيدتهم أو لمصلحة المسلمين العليا ، فتخلّى عنهم النصر ، واستهان بهم عدوهم .

والفرق بين أصحاب العقيدة الرّاسخة وأصحاب العقيدة المهزوزة ، أن كلّ فرد من الأولين يتمنى أن يموت قبل صاحبه ، وكلُّ فرد من الآخرين يتمنى أن

يموت صاحبه قبله !

وليس معنى ذلك ، أنّ جميع الذين شهدوا الفتح صالحون خيّرون ، وأنّ جميع الذين شهدوا استعادة الفتح طالحون سيئون ، ولكن كان الغالبية العظمى من الذين شهدوا الفتح من ذوي العقيدة الراسخة والأقليّة النادرة من ذوي العقيدة المهزوزة ، بينما انتشر الانحراف بين الذين شهدوا استعادة الفتح ، وثبت قسم على عقيدتهم الرّاسخة فلم يُبدلوا أو يغيُروا ولم يتبدّلوا أو يتغيّروا .

فقد قرأنا أنّ قائداً من قادة الفتح قُدّمت له ياقوتة حمراء هي أغلى من مدينة (باب الأبواب)، فردّها إلى صاحبها غير مكترث بها ولا بقيمتها[1] ، لأنّ أمانته أعلى عليه ، فآثر الأمانة على الخيانة ، وما عند الله مفضل على ما عند الناس .

وقرأنا أن قائداً من قادة استعادة الفتح ، اصطفى أموال المغلوبين وذراريهم ، فأخذ منها ما أعجبه ، وأمر

---

(١) الطبري (٥/١٥٩ ـ ١٦٠).

بتقسيم الباقي على رجاله[1] ، لأن أمانته هانت عليه ، فآثر المَغْنَم على الأمانة ، وما عند الناس على ما عند الله .

ولكن لم تخل أجْناد استعادة الفتح وقادته من عناصر صالحة خيِّرة تعتبر نماذج عالية في الصَّلاح والخير .

فقد استشهد الجرّاح بن عبدالله الحكمي في إرمنية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مقبلاً غير مُدْبر ، صابراً محتسباً[2] .

واشترى أحد جنود استعادة الفتح حُوْنة[3] بدرهمين ممَّن يتولى بيع ما تبقَّى من الغنائم في مراد عدي ، فلما عاد بها إلى خيمته في المعسكر فتحها ، فوجد فيها سبائك من ذهب ، فرجع وهو واضع يده على لحيته كأنه

---

(١) الطبري (٧/١٠).

(٢) ابن الأثير (٥/١٥٩).

(٣) الحونة : سفينة مستديرة مغشاة بالجلد يحفظ فيها العطار الطيب ، وفي الحديث في صفته ﷺ : « فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من حونة عطار » ج : جون .

رمى وردّ الحونة وأخذ الدرهمين ، فلما ذاع الحبر طُلب فلم يوجد[1]!

وبعث قائد من قادة استعادة الفتح أحد رجاله سراً إلى مدينة يحاصرها العدو ويضيق عليها الخناق ، وهي غاصّة بالمسلمين وذريّاتهم ، ليعرِّفهم وصول المدد من المسلمين إليهم قريباً ويأمرهم بالصبّر واخترق الرجل موضع العدو الحصينة متحدّياً الأهوال والأخطار ، فألقي القبض عليه ، فسألوه عن حاله ، فأخبرهم وصدقهم ، فقالوا له : إن فعلت ما نأمرك به أحسن اليك وأطلقناك : تقول لأهل البلد المحاصرين ، إنكم ليس لكم مَدَدٌ ولا مَن يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا . . . فأجابهم الى ذلك .

ولما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه ، فقال لهم : « أتعرفوني ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان . فقال : « فإنّ جيش المسلمين قد وصل إلى مكان كذا في عساكر ، وقائد الجيش يأمركم بحفظ البلد

---

(1) الطبري (٧/١٠).

والصبر . وفي هذين اليومين يصل إليكم » ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل .

وقتل العدو ذلك الرجل ، ورحلوا عن المدينة المحاصرة ، ونجا أهلها من القتل والأسر والسبي[1]!

وأوغل الخَزَر في بلاد المسلمين ، وقتلوا قائدهم في إرمينية وأبادوا رجاله وأسروا قسماً منهم وسبوا ، فعيّن الخليفة قائداً جديداً ، وأرسله إلى إرمينية على دواب البريد ليتدارك الأمور هناك ويستنقذ المسلمين ويستعيد الفتح .

وسار القائد الجديدمسرعاً إلى إرمينية ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَنْ يريد الجهاد[2].

ولقد وضعتُ (خطاً) تحت تعبير : **مَنْ يريد الجهاد** ، فالموقف الرّاهن الذي هو عبارة عن اكتساح بلاد المسلمين ، فأوغل العدو في البلاد حتى قاربوا

---

(١) ابن الأثير (٥ / ١٦٠)

(٢) ابن الأثير (٥ / ١٦٠)

مدينة (المَوْصل) ، وعظم الخطب على المسلمين[1] .

في مثل هذا الموقف يصبح الجهاد فرضاً عَيْنِيّاً على حدِّ تعبير الفقهاء ، يشمل كلَّ قادر على الجهاد بماله ونفسه من المسلمين : القادر على الجهاد بماله يجاهد بماله ، والقادر على الجهاد بنفسه يجاهد بنفسه ، والقادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً ، لا فرق بين غني وفقير ، او أمير وأجير ، أو كبير وصغير وليس لمسلم في مثل هذا الموقف ان يريد أو لا يريد ، لأنَّ الجهاد ليس من المسائل المزاجية ، بل هو فرض من الفروض المقدَّسة الذي يلتزم بها المسلم الحق ، وإلا كان من الخوالف : يعتزله المسلمون في الدنيا ويقابلونه بالاحتقار ، وينال عقاب الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف في الآخرة .

لقد كان جنود الفتح في الأغلب من أمثال صاحب الجُوْنة في أمانتهم المثالية ، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال صاحب الجُوْنة ومن اللاهثين وراء الثراء .

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٥٩)

وكـان معظم جـنود الفتح من أمثـال الفدائيّ الـذي ضحّى نفسـه لإنقاذ المسلمين المحـاصرين ، وكـان في جنود استعادة الفتح من أمثال ذلك الفدائي قليل .

وكان المسلمون كلّهم بدون استثناء في أيـام الفتح مجـاهـدين ، فـأصبح قسم من جنـود استعـادة الفتـح مجاهدين وقسم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف .

وما تغيّرت العقيدة ، ولكنّ المسلمين تغيروا .

وكان تغيير المسلمين ما بأنفسهم من عقيدة راسخة طفيفاً ، ثم ازداد التغيير شيئاً فشيئاً ، كالزاوية تبدأ صغيرة ثم يبتعـد الضلعـان قليـلاً قليـلاً ، فتـزداد المسـافـة بين الضلعين بالتدريج ، حتى أصبح المسلمون بمرور الـزمن بعيدين عن روح الإسلام الصحيح .

لقد كان الفتح بالإسلام في دعوته للجهاد بـالأموال والأنفس سريعاً سهلاً حاسمـاً قليل التكـاليف ، ثم أصبح استعادة الفتح بالمجاهدين الصدقين وغيرهم بطيئـاً صعباً متـردداً كثير التكـاليف ، لأنّ المجاهـدين الصـادقين قلّوا عدداً بالنسبـة لعَددهم أيـام الفتح وكثـر الجنود النظاميّون

الـذين يقاتلون لأنهم يتقـاضـون مـرتبـاتهم الشهـريّـة من الدولة ، وشتّان بين المجاهـدين الصادقين الـذين يقاتلون من أجـل إعلاء كلمـة الله وبين الجـنود الـنظاميّين الذين يقاتلون من أجل قبض المرتّبات .

وبالرغم من ازدياد عدد الجيوش وعُدَدها وتضاعف تجاربها القتالية في أيام استعادة الفتح ، فإنها لم تحقق ما حققه المسلمون في أيام الفتح اندفاعاً وتضحيةً ونصراً ، وهـذا دليل عمليّ من سيـر حوادث الفتـح وسير حـوادث استعـادة الفتح ، يـدلّ بشكـل قـاطـع على كـذب ادعـاء العرب والمسلمين من الأجانب وغير الأجانب « أنّ الفتح كـان لضعف الحكومـات القائمـة في أيام الفتـح ولعدم وجـود جيش منظم قـويّ يستطيـع صدّ الفتـح الإسلامي ويحمي البـلاد المفتـوحـة ، ولأنّ الحـرب الـسّـاسـانيـة البيزنطيـة قد استنـزفت كلّ قـوى الدولتين ، وأنّ مصـاولة الفـاتحين اقتصـر على لسكّـان المحلـيّين أو الـقـوّات المحلية بطاقـاتهم المحدودة » . فقـد قاتـل الفاتحـون في معارك حاسمة جيوش الفُرس والروم وانتصروا عليها ، ولم يقاتل المسلمون في أيام استعادة جيوش الفرس والروم

في معـارك حاسـمـة ، لأنّ دولة الفـرس انقرضت والـرّوم كانوا في شغل شاغل في الدفاع عن وطنهم الأم ومحاولـة استعـادة جزء من البـلاد التي فتحها المسـلمـون . كما أنّ معـارك المسلمين في أيام استعـادة الفتـح اقتصـرت على السكّـان المحليين والقوّات المحليـة بطاقـاتها المحـدودة ومـع ذلـك خسـر المسلمـون معـارك كثيـرة ولم يخسـروا معركة واحدة من معارك الفتح .

إنّ وقـائـع التـاريـخ تكـذّب ادعـاء أعـداء العـرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب وغير الأجـانـب في أنّ الفتح الإسلامي كان للأسباب التي يردّدونهـا والتي ذكرنـا مجملها ، وهدف هؤلاء هو (التهوين) من شأن الإسلام في إحراز النصر ، ومن أثره في تحقيق الفتح ، فقد حقد هؤلاء على الإسلام لأنه أكل قلوبهم وفتح بلادهم وانتشر في أرجـاء العـالم وأصبـح القـوّة التي تخفيهم وتقضّ مضـاجعهم وتهـدّد حـاضـرهم ومستقبلهم كمـا هـدّدت ماضيهم .

ولكنّ الواقع شيء ، واتباع الهوى شيء آخر .

ولو كان انتصار المسلمين على أعدائهم في أيام الفتح ، لضعف أعدائهم دون سائر الأسباب الأخرى وعلى رأسها انتصار الفاتحين بالإسلام الذي وحّد صفوفهم وأهدافهم ، وأشاع فيهم الأنسجام الفكري الذي يؤدي إلى التعاون فيما بينهم جماعات وأفراداً ، وأرسى دعائم مجتمع الأخوة : (إنما المؤمنون إخوة)[1]. «ولا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[2] ، فجعل هذا المجتمع كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، ورفع معنوياتهم . لكان انتصار المسلمين بعد ازدياد عدَدهم وتضاعف خبرتهم في القتال ومعرفتهم بطبيعة البلاد المفتوحة وصفات سكّانها الأصليين ، مع بقاء عدوّهم على تفرّقهم وضعفهم وانهيار معنوياتهم ، أسهل وأسرع وأثبت في أيام استعادة الفتح ، ولكنّ الواقع التاريخي كان عكس ذلك تماماً ، مما يدل على أنّ انتصار المسلمين في أيام الفتح كان انتصار

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠).

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أنس ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٦٦).

عقيدة راسخة ، وتعثر انتصارهم في أيام استعادة الفتح كان لأنّهم غيّروا ما بأنفسهم فكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، فتعثّر انتصارهم ولولا بقيّة من بقيا الصالحين فيهم لما انتصروا أبداً .

وكان من بوادر انحراف المسلمين في أيم استعادة الفتح عما كانوا عليه في أيام الفتح ، ظهور العصبيّة القبيّة ، والتفرقة المذهبية والطّائفية ، والتكالب على المادة أموالاً ومساكن وطعماً وشراباً وجنساً ، والحرص على المناصب الادارية والرُّتب العسكرية ، والتهالك على حبّ الدنيا وكراهية الموت .

كان رجال الفتح يحبّ أحدهم أن يموت قبل صاحبه (مجاهداً) إلّا من غضب الله عليه وهم قِلّة قليلة .

فأصبح رجال استعادة الفتح يحبّ احدهم أن يموت صاحبه قبله (قاعداً) إلّا مَن رحم الله .

وما استطاع رجال استعادة الفتح أن ينتصروا إلّا بالرجال الذين تمسكوا بعقيدتهم الرّاسخة جهاداً في سبيل

الله ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ولكن بمرور الزّمن تناقص عدد المجاهدين الصادقين ، فتبدّل حال المسلمين من حال إلى حال .

والعرب مادّة الإسلام كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهم قادة الفتح وجنوده وعلى أكتافهم وبجهادهم وجهودهم تحقّق النّصر فتحاً واستعادة للفتح ، وهم الذين غيّروا ما بأنفسهم يوماً بعد يوم ، حتى ساءت الحال وتردّى المآل .

لقد كان العرب قبل الإسلام مستعبدين للفُرس في العراق وللروم في أرض الشام ، وحتى للأحباش في اليمن .

وجاء الإسلام ، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام أن يوحّد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ، ولا يعرف التاريخ أحداً وحدها قبله ولا بعده حتى هذا اليوم .

وكان تعداد صحابة رسول الله ﷺ الذين خلفهم

من بعده مئة وخمسة وعشرين ألفاً في أكثر ما ذكره المؤرخون .

وارتدّ قسم من العرب بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى ، فاستطاع خليفته على المسلمين أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أن يستعيد بهم الوحدة إلى شبه الجزيرة العربية ، واستطاع بهم أن يخوض معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت للمسلمين أبواب أرض الشام ، كما استطاع أن يخوض بهم معارك ثانوية مهّدت للمسلمين فتح العراق .

وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، فأكمل الفتح الذي بدأه أبو بكر الصديق رضي الله عنهما ، ففتح العراق وإيران وأكثر مناطق ارمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ، ومصر وليبيا والنّوبة ، وكان عهد عمر بن الخطّاب هو عهد الفتح الإسلامي الذهبي بدون منازع[1] .

ومع كلِّ فتوحات عمر بن الخطّاب ، فقد كان

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا : الفاروق القائد ـ ٩٣

حسنة من حسنات أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما .

وستمرّ مدّ الفتح الإسلامي عارماً في أوائل عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، حتى نشبت الخلافات بين المسلمين ، فانتقض أهل فرس سنة تسع وعشرين ومئة الهجرية[1] (٧٤٦ م) وانتصر الخَزَر على المسلمين لأول مرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م)، فقتلوا قائد المسلمين عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ في (بَلَنْجر) وكبدوا المسلمين خسائر فادحة بالأرواح والأموال[2] وانتشرت الفوضى في عقر ديار المسلمين ، حتى قتل عثمان بن عفّان في المدينة عاصمة المسلمين سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٠٥ م) بيد العرب لا بيد أعدائهم[3].

وبدأ الأقتتال بين الفاتحين بعد استشهاد عثمان بن عفان ، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم ، فانتقضت البلاد المفتوحة ، وضعفت هيبة الدولة داخلياً

---

(١) ابن الأثير (٣/١٥١).

(٢) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/١٣١ - ١٣٣).

(٣) ابن الأثير (٣/١٤٥ - ١٧٩) .

وخارجياً ، حتى استطاع عبدلملك بن مروان جمع شمل العرب مرة اخرى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) وإعادة الوحدة اليهم ، فكانت هذه السنة سنة الوحدة بحق ، فانطلق الفتح من جديد وانطلق استعادة الفتح ، ولكنّ عوامل التفرقة ظلّت كالنّار في الرماد لا تخمو مدة إلّا لتظهر في مدة ثانية ، حتى توقّف الفتح نهائياً سنة مئة الهجرية (٧١٣ م).

وكان عصر الفتح وهو القرن الأول الهجريّ هو خير القرون ، ويمكن أن نقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام : عهد الفتح أولاً ، وهو من غزوة (بدر الكبرى) في السنة الثانية الهجرية (٦٢٣ م)، وكانت هذه الغروة من الغزوات التاريخية الحاسمة ، بدأ فيها الفتح تدريجياً حتى شمل شبه الجزيرة العربية كلّها في وحدة عربية شاملة تحت لواء الإسلام ، وانتهى هدا العهد في سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٥٠ م) في أوائل خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وعهد الأقتتال الداخليّ من سنة تسع وعشرين الهجرية حتى سنة الوحدة في أيام عبدالملك بن مروان

سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م)، وفي هذا العهد توقّف الفتح لأن الفاتحين شغلوا بالاقتتال فيما بينهم ولم يشغلوا بالجهاد ، فانتقضت كثير من البلاد المفتوحة وشاعت الفوضى في البلاد المفتوحة التي تنتقض ، حتى أدّى المسلمون الجزية للرُّوم ولغيرهم ، فأصبح الغالب مغلوباً والقائد مقوداً والمنتصر مهزوماً .

وعهد الفتح واستعادة الفتح من سنة الوحدة أي سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى انسحاب لمسلمين من حصار القُسْطَنْطِينيّة بقيادة مَسْلَمَة بن عبد الملك[1] وفي هذا العهد فتح المسلمون (السِّند) بقيادة محمد بن القاسم الثقفي ، وما وراء النهر (تركستان الشرقية) بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلم البَاهلي[2] وشمالي إفريقية : الجزائر والمغرب ، بقيادة موسى بن نصير[3] والأندلس بقيادة طارق بن زياد[4] وموسى بن نصير اللّخميّ ، وبعد تلك

---

(١) انظر سيرته في كتاب : قادة فتح بلاد الروم

(٢) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المشرق الإسلامي

(٣) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١ / ٢٢١ ـ ٣٠٩)

(٤) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار

المتوح توقف الفتـح نهائيـاً إلّا ما كـان من فتوح قليلة في (صِقِلّيْة) بقيادة أسـد بن الفرات ، والقُسطَنطِينيّـة بقيادة محمـد القـاتـح ، ومـا كــان من استعـادة فتــح القـدس وفلسطين وأجزاء من أرض الشام بقيـادة صلاح الـدين الأيوبي .

وهذه الفتوح واستعادة الفتح التي جـرت في القرن الأول الهجـري يمكن اعتبارهـا فتوحـات سَوْقِيـة لأهميتها المصيرية ، وما عداها تعتبر فتوحات تعبويّة لأنها ثانوية .

وبعد سنة مئة الهجرية حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجـرية (٧٤٩ م) وهي سنـة سقوط الـدولة الأمـوية في الشام ومولد الدولة لعباسية في بَغْداد ، حـدثَ شيء من استعـادة الفتح في خُـراسان سنة ثـلاث ومئـة الهجـريـة (٧٢١ م) وسنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) وفي إرمينية في تلك السنة أيضاً ، وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) وأربـع عشـرة ومئــة الهجـريــة (٧٣٢ م) في إرمينيه وبلاد الخَزَر ، وكذلـك سنة إحدى وعشرين ومئـة الهجرية (٧٣٨ م)، كما حدثت عـدّة غزوات دفاعية في هدفها هجومية في أسلوبها خلال هذه المدّة هنـا وهناك ،

لها طابع محلي وصفة تعوية ، ثم توقّف استعادة الفتح أيضاً حتى سقطت الدوله الأموية سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية .

وسبب توقف الفتح واستعادة الفتح في هذه المدة الفاصلة من حكم الدولة الأموية : تفرق كلمة الفاتحين واقتتالهم فيما بينهم ، وإقبالهم على الدنيا وانغماسهم بالترف ، واستشراء النزعة القبلية والطائفية بينهم وغياب الوازع الديني الذي قادهم للنصر : فقد كان في العراق خلال سنتي إحدى ومئة واثنتين ومئة الهجريتين ثورة يزيد بن المهلب هدّدت كيان الدولة ، وكان في خراسان اقتتال لسنة ست ومئة الهجرية بين مُضَر واليمن ، وتصاعد نشاط دعاة بني العباس في خُراسان بخاصة وفي أقطار المشرق الإسلامي بعامة ، وازدادت ثورات الطالبيين وكثرت مقاتلهم ، وفسدت اليمانية وفسدت قضاعة وهم واليمن أكثر جند أهل الشام[1] وأشدّهم بأساً .

ولم تقتصر التفرقة على العرب المسلمين بل

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٨١).

شملت البيت الملك ، فقد قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك نتيجة لمؤامرة يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وبذلك بدأت المؤامرات بين رجال البيت المالك ، حتى قال قائلهم : هَلَكَ بنو مروان[1]!

ونُويع يزيد بن الوليد بن عبدالملك بالخلافة سنة ست وعشرين ومئة الهجرية[2] (٧٤٣ م) وهو الذي تآمر على ابن عمِّه وقتله ، فاضطرب أمر بني أميّة وهاجت الفتنة ، فوثب سليمان بن هشام بن عبدالملك بعد قتل الوليد بعَمّان ، وكان قد حبسه الوليد بها ، فخرج من الحَبس وأخذ ما كانَ بها من الأموال وأقبل إلى دمشق[3] ، وخالف مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان على إرمينية وأذربيجان فترك ولايته وأنفذ إلى الثغور مَنْ يضبطها ويحفظها له وسار على رأس رجاله إلى دمشق[4] .

---

(١) ابن الأثير (٥/٢٨٧).

(٢) العبر (١/١٦٢)

(٣) ابن الأثير (٥/٢٩٢).

(٤) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/٣٠٩ ـ ٣١٠).

ومات يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية بعد سنة أشهر وليتين من تولية الخلافة[1]، فتولاّها بعده أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك[2] الذي لم يتم له الأمر، فكن يُسلّم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يُسلّم عليه بواحدة منهما، فمكث أربعة أشهر، ثم سار إليه مروان بن محمد بن الحكم فخلعه[3].

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤ م) بويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق بالخلافة[4]، وأعانه على تولي الخلافة جنوده الذين كانوا معه في الجزيرة وإرمينية فتركوا موطنهم وعادوا إلى دمشق وخاضوا في طريق العودة معارك طاحنة دارت بينهم وبين القوات الموالية لابراهيم بن الوليد بن عبدالملك[5]، تكبّد الجانبان فيها خسائر فادحة بالأرواح والأموال، كما

(١) ابن الأثير (٥/ ٣١٠).
(٢) العبر (١/ ١٦٢)
(٣) ابن الأثير (٥/ ٣١١).
(٤) العبر (١/ ١٦٤).
(٥) العبر (١/ ١٦٤).

تعرّضت البلاد المفتوحة للفتن وتوقّف الفتح وستعادة الفتح دون مسوّغ .

ولم يكد مروان يستقرّ على عرشه ، حتى خلعه سليمان بن هشام بن عبدالملك ، فدارت معارك طاحنة بين العرب الفاتحين من أنصار مروان وأنصار سليمان[١]

وكان من نتيجة اختلاف الأمويين وتفرّقهم ، تفشّي الخلاف في البلاد الإسلامية ، فخالف أهل حمص[٢] ، وخالف أهل فلسطين[٣] واضطربت أمور خراسان[٤] ، وحارب أهل اليمامة عاملهم الذي ولّاه الخليفة[٥] ، ووقع الاختلاف بين أهل خراسان[٦] ، واضطربت أمور المغرب العربي[٧] وذلك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٣ م).

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٣١ - ٣٣٤).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٩٢ - ٢٩٤).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٢٩٤ - ٢٩٧).
(٤) ابن الأثير (٥/ ٢٩٧ - ٢٩٨).
(٥) ابن الأثير (٥/ ٢٩٨ - ٣٠١).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٣٠٢ - ٣٠٧).
(٧) انظر التفاصيل في (٥/ ٣١١ - ٩).

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤ م) ، انتقض اهل حمْص[١] وخالف أهل (الغوطة) وهي جزء من دمشق وولّوا عليهم أميراً وحاصروا دمشق[٢] وخالف أهل فلسطين[٣] ، واضطرب أمر العراق[٤] ، وخلع أهل الأندلس أميرهم الشّرعي[٥] ، واشتد ساعد شيعة بني العبّاس في خراسان وأقطار المشرق الإسلامي [٦] ، وهكذا شلمت الفتن الأقطار الإسلامية البعيدة والقريبة وامتدّت إلى قلب عاصمة الدولة : دمشق ، بعد أن شملت العرب الفاتحين والمسلمين كافة وامتدّت إلى قلب الدولة الإسلامية : البيت المالك .

وأصبحت الدولة تهتزّ أركانها بعنف شديد ، فضاعت هيبة الدوله وتبدّدت هيبة الحُكم ، وشغل العرب عن الفتح واستعادة الفتح بالفتن والاضطرابات الداخلية .

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).
(٢) انظر ابن الأثير (٥/ ٣٢٩).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٤) ابن الأثير (٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧).
(٥) ابن الأثير (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

وهكذا أصبحت سلطة الخلافة لا تتجاوز عاصمة الدولة أو لا تتجاوز القصر الذي يسكنه الخليفة ، بينما كانت سلطة الخلافة تمتدّ من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوباً ، وإنما كانت سلطة الخلافة بالتمسّك بروح الإسلام الذي جعل الجهاد فريضة على القادرين على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فأمر بالوحدة ونهى عن الفرقة ، وحارب العصبيّة والتعصّب ، وحارب الاتجاه نحو المادة تطاولاً في البنيان واكتنازاً للأموال والجشع والترف .

وليستْ بي حاجة إلى تعداد المآسي والفتن التي حاقت بالعرب في تلك السنين التي انحرف المسلمون أو أكثرهم عن دين الله ، فغيروا ما بأنفسهم ، فقد قامت الدولة العباسيّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) ، وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أُمية شريداً طريداً في مدينة نائية من مدن مصر سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، وبانقضاء عهد بني أُميّة انقضى عهد الدولة العربية التي كانت تؤمن بأنّ العرب مادة الإسلام ، وبقيام الدولة العبّاسية تزعزع مركز العرب

وارتفع شأن الفُرس لأنهم أعانوا على قيامها بقيادة أبي مسْلم الخُراسانيّ الذي نفذ التعليمات الصّادرة إليه وبالغ بتنفيذها ، وكان نصّ تلك التعليمات في خطاب موجّه إلى أبي مسلم الخُراساني : « إنك رجل منّا .. وأما مُضَر فإنهم العدوّ القريب الدار ، واقتل مَنْ شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تَدَعَ بخُراسان مَن لا يتكلّم بالعربية فافعل ، وأيّما غلام بلغ خمسَة أشبار تتهمه فاقتله ... »[1] فقتل مئات الألوف من العرب الفاتحين صبراً وغدراً في خُراسان وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي ، وسدد العنصر غير العربيّ على العنصر العربيّ بالعصبية والتعصّب لا بتطبيق تعاليم الإسلام .

وبدأ بقيام الدولة العباسية عصر التنافس بين العرب وغيرهم ، ودام هذا التنافس حتى توفّي المعتصم العباسي سنة سبع وعشرين ومئتين الهجرية[2] (٨٤١ م) ، وفي هذا العصر اصبحت الدولة الإسلامية الواحدة دولا ، وضعف شأن العرب وقلّت قيمتهم المعنوية وتولى القيادة

(١) ابن الأثير (٥/٣٤٨).

(٢) العبر (١/٤٠٠)

الادارية والعسكرية على الأكثر غير العرب ، وقلّ المجاهدون وكثر المحترفون

وبعد المعتصم ساد العنصر الأعجمي على العنصر العربي ، وكثرت دول الطوائف ، وسيطر غير العرب على الخلفاء ،وأصبحت الخلافة منصباً رمزياً له سمة دينية حسب والحكم لغير الخليفة ، حتى انقرضت الدولة العباسية على أيدي التاتار سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨ م)، وكان هذا العصر عبارة عن مآس قاصمة للظهر وحقت بالمسلمين ، لأنهم تخلوا عن الجهاد إلاّ من رحم الله ، وفي هذا العصر ذلّ العرب لأنهم غزوا في عقر ديارهم وانصرفوا عن الجهاد ، واعتمدوا على غيرهم للدفاع عنهم وعن أرضهم وعرضهم .

وبدأ بعد سقوط الدولة العباسيّة عصر الظلمات ، فهان لعرب على انفسهم وعلى الناس ، وتولى قيادتهم الفعليّة غيرهم من الأمم ، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، حيث بدأ عصر استعمار الدول العربية .

واستقر المسلمون سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في أواخر النصف الأول من القرن العشرين الميلادي وفي أوائل النصف الثاني من هذا القرن ، ولكنهم يعانون من الاستعمار الفكريّ البغيض حتى اليوم ، في غيب الجهاد عنهم وغياب التمسك بتعاليم الدين الحنيف .

وكانت انتصاراتهم في عصر الفتح الذهبيّ وعصر استعادة الفتح انتصار عقيدة ، وحّدت صفوفهم وجمعت كلمتهم وجعلتهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، فاصبحوا في توحيدهم ووحدتهم قوّة لا تقهر أبداً .

فلما غيّر المسلمون بأنفسهم وانحرفوا عن عقيدتهم ، لم ينتصروا أبداً ، لأنّ أنفسهم هانت عليهم فهانوا على الأمم .

وقد جرّب المسلمون مبادىء وعقائد شتى ، فما زادتهم إلّا ضَعْفاً وهواناً على الناس ، ولا يزالون يجربون مبادىء وعقائد جديدة ، ولكنهم بقوا في آخر قائمة الأمم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ، وحسبهم أن تعتبرهم الأمم المتقدمة في قائمة الأمم النامية ، وهو التعبير

التخديري لذي معناه . الأمم المتخلّفة !

لقـد أصبـح المسلمـون في سنـوات معـدودات بـالإسلام في الأوج ، فقـادوا العالم عسكـريـاً وسيـاسيـاً وحضارياً ، وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس .

وأمسى المسلمون منذ قرون طويلة بغياب الإسلام في الحضيض ، ففقـدوا ما فتحـوه وخسـروا دار الإسـلام واستعبدتهم الأمم ، وأمسوا أهون أمة في العـالم ، وحتى أصبح للصهاينة في بلادهم دولة وكيان . لا لقوّة الصهاينة ولكن لضعف العرب .

فمتى يعـود العـرب والمسلمـون إلى الإسـلام من جـديـد ، ليستعيـدوا مكـانهم ومكـانتهم في الأرض ، ويعودوا خير أمة أخرجت للنّاس ! .

تلك هي عبرة : استعادة الفتـح ، لعلّ فيهـا فائـدة للمسلمين في كلّ مكان .

إن الـطريق وضحـة لمعـالم ، ولكنّ الاستعمـار الفكري الذي يسيطر على قلوب المسلمين وعقولهم معـاً

هو الذي جعل المسلمين يتيهون في متاهات لا أوّل لها ولا آخر ، وهو الذي جعلهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فمتى يميّز المسلمون بين الحق والباطل ، فيقلعون عما صنعه أعداؤهم فتقبّلوه وفيه هوانهم الأبدي ؟! . . .

قادة فتح إرْمِنْيَة

المسلسل	القائد الفاتح	البلاد المفتوحة	الاقليم	التاريخ هـ	التاريخ م	الخليفة
١	عياض بن غنم الفهري	١ـ بِدْليس ٢ـ خِلاط ٣ـ العين الحامضة	إرْمِينية الرابعة	١٧	٦٣٨	عمر بن الخطاب
٢	عثمان بن أبي العاص الثقفي	إرمينية الرابعة	إرمينية الرابعة	١٩	٦٤٠	عمر بن الخطّاب
٣	سُراقة بن عمرو	باب الأبواب	إرمينية الأولى	٢٢	٦٤٢	عمر بن الخطّاب
٤	سلمان بن ربيعة الباهليّ	١ـ البَيْلَقان ٢ـ بَرْذعة ٣ـ ولاية أرّان ٤ـ شَمْكُور ٥ـ مجمع نهري	إرمينية الأولى	٢٥	٦٤٥	عثمان بن عفّان

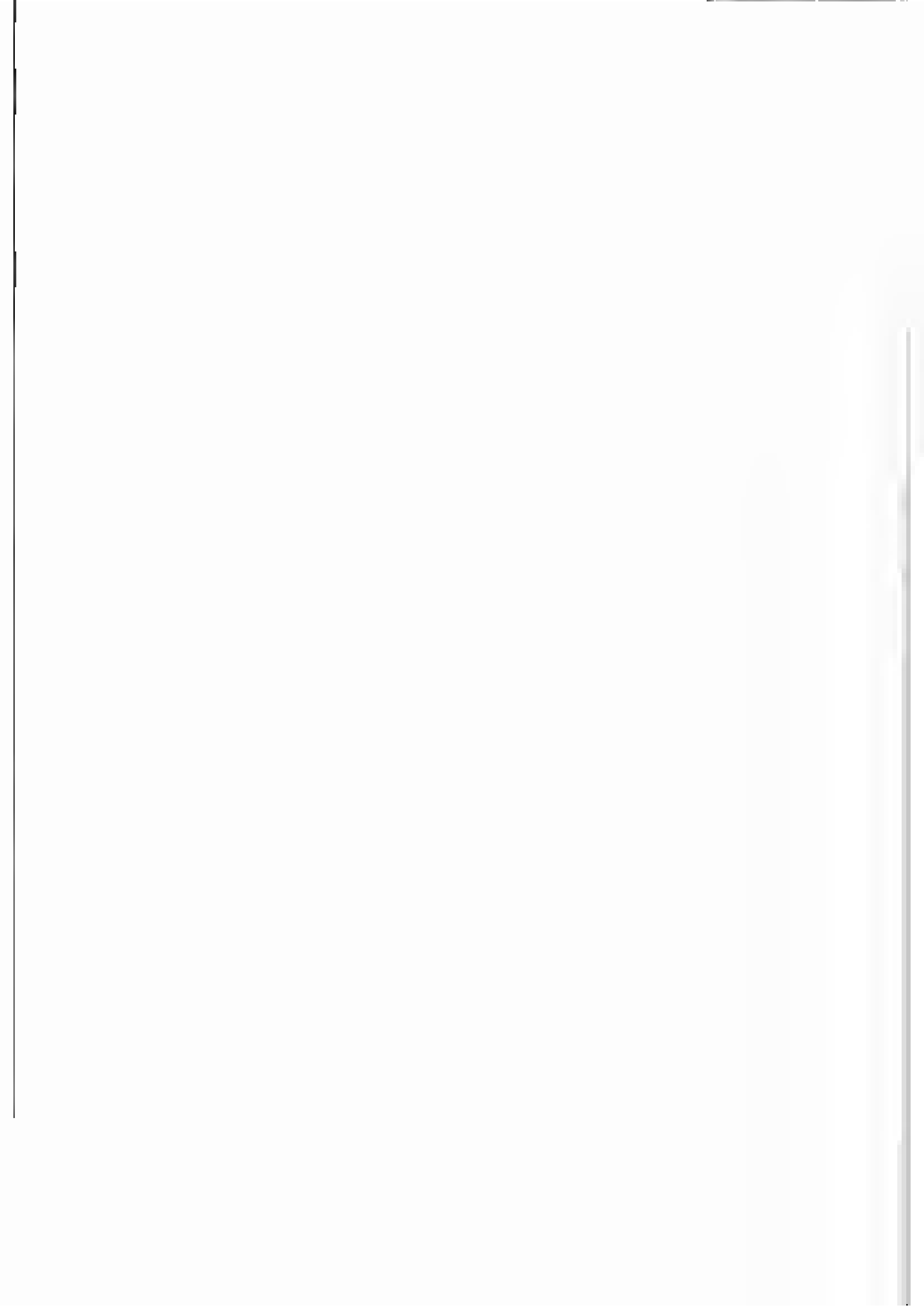
تابع

		الرّس و لكر				
		٦- شروان				
		٧- مسقط				
		٨- الشابران				
٥	حبيب بن مسلمة الفهري	١- شمشاط	إرمينية الرابعة	١٩	٦٤٠	عمر بن الخطاب
		٢- قاليقلا	إرمينية الرابعة			
		٣- برْبالا	إرمينية الرابعة			
		٤- لكّس	إرمينية الرابعة			
		٥- أرْجيش	إرمينية الرابعة	٢٥	٦٤٥	عثمان بن عفان
		٦- باخنيش	إرمينية الرابعة			
		٧- أرْدشاط	إرمينية الثالثة			
		٨- دزيل	إرمينية الثالثة			
		٩- النشوى	إرمينية الثالثة			
		١٠- البسفرجان	إرمينية الثالثة			
		١١- جرزان	إرمينية الثانية			
		١٢- تفليس	إرمينية الأولى			

الجزء الثاني

بلادُ الرُّوم

قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه



الموقع والحدود

كان المسلمون يسمون أقاليم الدولة البيزنطية في جملتها : بلاد الروم . ولفظ الرومي أي الروماني في العصور الإسلامية الأولى ، كانت ترادف عند المسلمين كلمة : المسيحي أو النصراني . سواء كان الموصوف بها من اليونان أو اللاتين .

وكانوا يسمون البحر الأبيض المتوسط : بحر الروم ، اسماً لأقرب الأقاليم المسيحية من بلاد الإسلام .

ومن ثم صارت بلاد الروم اسماً : لآسيا الصغرى عند العرب ، وهي البلاد العظيمة التي انتقلت نهائياً في

نهاية السنة المئة الخامسة الهجرية (القرن الحادي عشر الميلادي) إلى أيدي المسلمين باستيلاء السلاجقة عليها .

وكانت الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد الروم في أيام بني أمية وبني العباس ، بل حتى قبل أن يقضي المغول القضاء المبرم على الدولة العباسية في بغداد بما ينيف على قرن ونصف قرن ، تتألف من سلسلتي جبال طوروس وجبال طوروس الداخلة (أنتي طوروس). وكان يحد هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع التي تعرف بالثغور ، يمتد من (ملطية) على الفرات الأعلى ، إلى (طرسوس) بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان المسمون يفتحون هذه القلاع تارة ويحتلها الروم تارة أخرى .

وتنقسم هذه القلاع إلى مجموعتين ، احداهما تحمي الجزيرة ، وتسمى : ثغور الجزيرة ، وهي الشمالية الشرقية ، والثانية تحمي الشام ، وتسمى : الثغور الشامية ، وهي الجنوبية الغربية

وكان من ثغور الجزيرة : ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور ، وبهنسا ، والحدث[1] . ثم مرعش ، والهارونية ، والكنيسة وعين زربة (عين زربى)، وهي الثغور الشامية ، أما الثغور الشامية التي بالقرب من الساحل لخليج الاسكندرونة فهي : المصيصة ، وأذنة ، وطرطوس .

يحدها من الغرب : بحر الروم وخليج القسطنطينية وبحر القرم ، ومن الجنوب بلاد الشام والجزيرة ، ومن الشرق ارمينية ، ومن الشمال بلاد الكرج وبحر القرم .

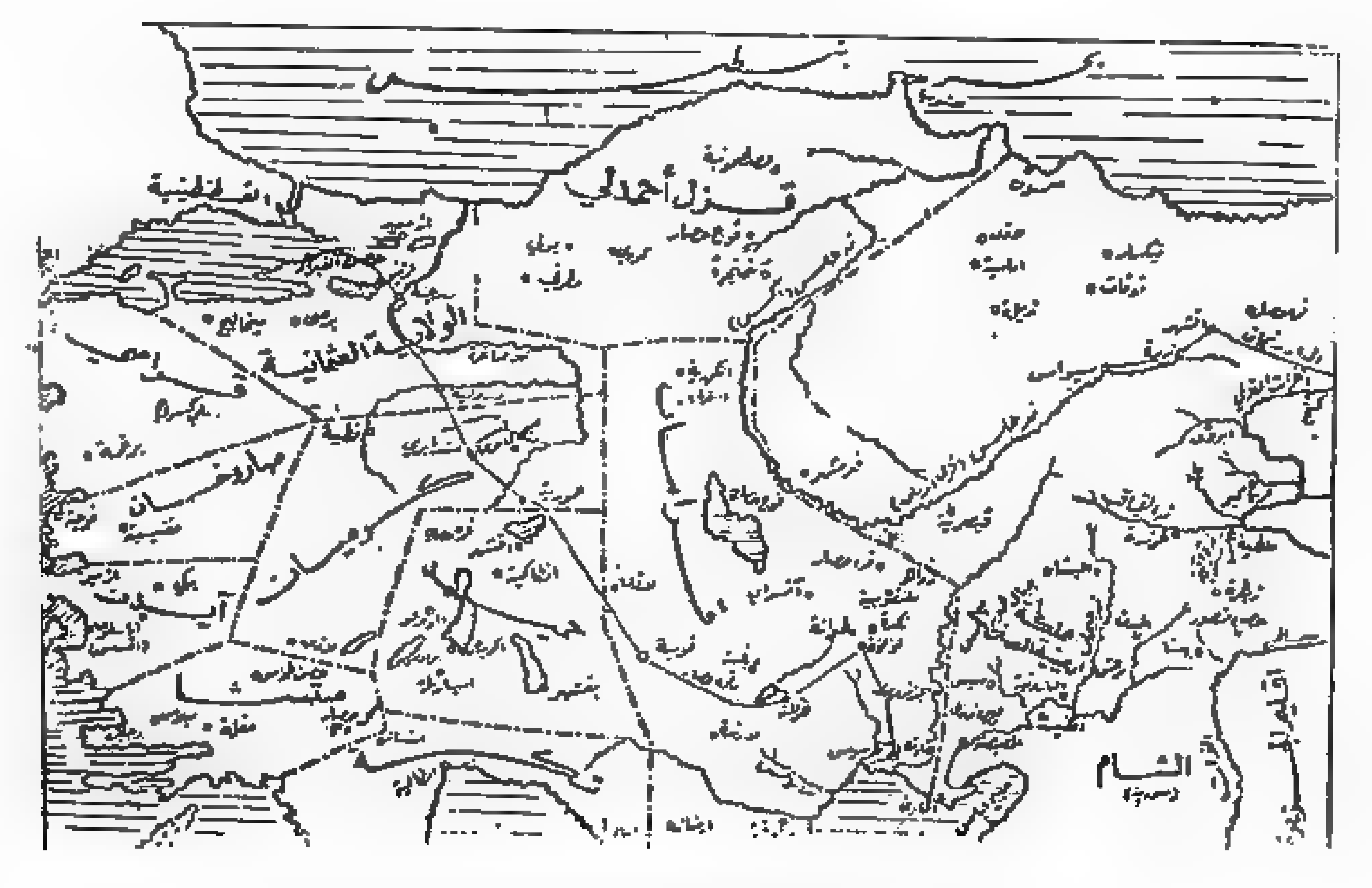
الثغور الشامية

١ - مَرْعَش :

سماها الروم : (مراسيون Marasıon)، ويقال أنها قامت في موضع جرمانيقية .

وهي مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها

(١) انظر ما ورد عن هذه الثغور في بحث : بلاد الجزيرة قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه .


القسطنطينية
قزل أحمدلي
الولاية العثمانية
صاروخان
كرميان
آيدين
سيواس
الشام

سوران وخندق ، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، ثم حصّنها هارون الرشيد أيضاً .

٢ ـ عين زَرْبَى = عين زَرْبَة :

بلد يشبه مدن الغور ، بها نخيل ، وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعي ، ولها سور مكين ، تقع في الجبل ، ذات قلعة مستعلية عنها ، وهي من الثغور من نواحي المصيصة .

٣ ـ الهارونية :

مدينة صغيرة بالقرب من مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام ، استحدثها هارون الرشيد ، وعليها سوران وأبواب حديد . وجبل اللكام : اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتي طوروس

٤ ـ الكنيسة :

بلد بثغر المصيصة ، ويقال لها : الكنيسة السوداء ، وسميت بالسوداء ، لأنها بنيت بحجارة سود ، بناها الروم قديماً ، وبها حصن منيع قديم أخرب فيما

أحرب مهها ، ثم أمر هارون الرشيد ببنائها وإعادتها إلى ما كانت عليه وتحصينها ، وندب إليها المقاتلة ، وزادهم في العطاء ، بينه وبين الهارونية اثنا عشر ميلاً .

٥ ـ المصّيصَة :

حصن على ساحل البحر قرب المصيصة ، سمي : المثقب ، لأنه في جبال كلها مثقبة فيها كوى كبار ، وكان أول من بنى حصن المثقب هشام بن عبد الملك .

٦ ـ المصيصَة :

مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرسوس . وهي من ثغور الإسلام ، ذات سور وخمسة أبواب ، فتحها عبد الله بن عبد الملك وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع فيها سكاناً من الجند من أرباب البأس والنخوة ، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن . وبعد وقت قصير من فتحها نشأ في الجانب الآخر من نهر جيحان (نهر بيرامس) ربض أو ضاحية جديدة سميت . كفربيا ، بنى

فيها عمر بن عبد العزيز جامعاً اتخذ فيه صهريجاً ، ثم ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أنشأ ربضاً ثالثاً في شرقي نهر جيحان يقال له : الخصوص ،وبنى عليه حائطاً وأقام عليه باب خشب ، وخندق خندقاً .

٧ ـ أَذَنَة :

بلد من الثغور قرب المصيصة ، تقع على نهر سيحان (نهر سارس)، وهي مدينة خصبة عامرة حصينة .

٨ ـ طَرَسُوس :

مدينة من أهم مدن الثغور الشامية ، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، بينها وبين أذنة ستة فراسخ ، عليها سوران وخندق واسع ، ولها ستة أبواب ، وهي تشرف على الدرب المشهور عبر طوروس

وعني الخلفاء العباسيون الأولون ، ولا سيما المهدي وهارون الرشيد بتحصين طرسوس وشحنها بالرجال .

المدن الأخرى

١ ـ العلايا :

بلدة محدثة ، أنشأها علاء الدين أحد ملوك السلاجقة فنسبت إليه ، فقيل لها : العلائية ، ثم خففها الناس وقالوا : العلايا .

وهي بلدة صغيرة على بحر الروم ، وهي من فرص تلك البلاد ، وهي في الجنوب من أنطالية على مسيرة يومين منها ، عليها سور ، وهي كثيرة المياه والبساتين ، ومساحتها أصغر من أنطالية .

٢ ـ أنطالية :

بلدة كبيرة من مشاهير بلاد الروم ، وهي حصن من حصون الروم المنيعة تقع على بحر الروم ، ولها بابان إلى البحر وإلى البر ، والمياه جارية بداخل البلد وخارجه ، ولها بساتين كثيرة من المحمضات وأنواع الفواكه ، تقع غربي قونية وعلى مسافة عشرة أيام منها .

٣ ـ أنقِرَة :

اسم للمدينة المسماة : أنكورية ، وهي بلدة لها

قلعة على تل عـال ، وليس لها بسـاتين ولا ماء سـارح ، وشـرب أهلها من آبـار نبـع قـريبـة المـدى ، وبين أنقـرة وقسطمونية خمسة أيام : قسطمونية في الشرق والشمال ، وأنقرة في الغرب والجنوب .

وهي مـدينة قـديمة ، ورد ذكـرها في شعـر امـرىء القيس ، كما ورد ذكرها في شعر أبي تمام الطائي أيضاً .

٤ ـ عَمورِيّة :

بلدة كبيـرة ، ولهـا قلعـة داخلهـا حصيـنة ، وأكثـر ساكنيها التركمان ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر ، وهي التي فتحهـا المعتصم الخليفـة العبـاسي في سنـة (٢٢٣ هـ) وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية في قصة طويلة معروفة ، وكانت من أعظم فتوح الإسلام .

٥ ـ آقشار = آقْ شَهر :

من أنـزه المـدن ، وبهـا بسـاتين كثيـرة وفـواكـه مفضلة ، تبعد عن قونية ثلاثة أيام شمالاً بغرب .

٦ ـ قونية :

مدينة مشهورة ، لها جبـل في جنوبيهـا ، ينبع منه

نهر ويدخل إلى قونيــة من غربهــا ، ولها بســاتين من جهة الجبل بقرب من ثلاثة فراسخ ، وبقلعتهـا تربـة أفلاطـون الحكيم ، ونهـرها يسقي بسـاتينها ثم تصيـر مياهـه بحيرة ومروجاً ، والجبال دائرة بها من كل جـانب ، وتبعد عنهـا من جهة الشمال ، والفواكه بهـا كثيرة ، وهنـاك المشمش المعروف بقمر الدين .

٧ ـ قَيسارِيَّة = قَيصارِيَّة :

بلدة كبيـرة ذات أشجـار وبسـاتين وفـواكـه وعيـون تدخل إليها ، وداخلها قلعة حصينة ، وبهـا در للسلطنة ، وهي منسوبة إلى قيصـر ، وفي شرقـهـا مدينة سيواس ، وبين قيسارية وأقصرا أربعة مراحل .

٨ ـ أقصرا = أقسرا :

بلدة في عرض آقشار وأطول منها ، كثيرة الفواكه ، تحمل منها إلى قـونية على المحـل في بسيط من الأرض كلها مراع وأودية ، بينها وبين قوبية ثمانية وأربعون فرسخاً وكذلك من أقصرا إلى مدينة قيسارية ، وبين أقصرا وقونية ثلاث مراحل .

وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة ، ولها نهر كبير داخل في وسط البلد ، ويدخل الماء إلى بعض بيوتها من نهر آخر ، ولها قلعة كبيرة حصينة في وسط لبلد .

٩ ـ هَرقْلَة :

بلدة في شرقي نهر ينزل من جبل العلايا إلى آخر سنوب ، وهرقلة تقع قرب البحر ، وفي شرقيها جبل الكهف ، ويقال : ان فيه الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف .

١٠ ـ أماسية :

بلدة كبيرة ، لها سور وقلعة وبساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بها ، مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين ، بينها وبين سنوب ستة أيام ، فيها معدن الفضة .

١١ ـ مَلَطْية :

بلدة ذات أشجار وفواكه أرصفها تحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها ، وهي قاعدة الثغور ، مسورة في بسيط من الأرض والجبال

تحف بها من بعد ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور لبلد ، وهي شديدة البرد ، تقع في جنوبي سيواس بينهما ثلاث مراحل ، وفي شمالي زبطرة وبينهما مرحلة كبيرة .

ولملصية أيضاً قنى تدخل البلد وتجري في دوره وسككه .

١٢ ـ سِيْواس :

وهي بلدة كبيرة مشهورة ، وبها قلعة صغيرة ، وهي ذات أعين ، والشجر بها قليل ، ونهرها الكبير يبعد عنها بمقدار فرسخ ، وهي في بسيط من الأرض ، المسافة بينها وبين قيسارية ستون ميلاً ، تقع مدينة ارزن في شرقيها ، وسيواس شديدة البرد .

١٣ ـ تَوْقَات :

بلدة صغيرة في لحف الجبل ، تقع بين قونية وسيواس ، ذات قمة حصينة وأبنية مكينة ، بينها وبين سيواس يومان ، لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة ، معتدلة في الحرارة والبرودة ، وهي شمالي سيواس .

١٤ ـ أرْزَن :

مدينة مشهورة قرب خلاط ، وهي اخر بلاد الروم من جهة الشرق ، وفي شرقيها وشماليها منبع الفرات .

١٥ ـ القسطَنْطِينية :

مدينة شهيرة جداً ، كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠ م)، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً ، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً .

١٦ ـ مرج الأسقف :

موضع قريب من غرب بدنوس (البذندون) .

١٧ ـ مَطْمُورة :

بلد في ثغور الروم ، بناحية طرسوس .

١٨ ـ ذو القلاع :

كانت قلعة مشهورة ، واسمها عند الروم تفسيره : الحصن الذي مع الكواكب .

ويبدو أنها تطابق : (سيديروبوليس Sideropolis)

في بلاد القباذق .

١٩ ـ اللؤلؤة :

قلعة قرب طرسوس ، واسمها عند البيزنطيين : لولون ، سماها العرب لؤلؤة ، ليضفوا على اسمها معنى من المعاني .

٢٠ ـ طُوانة :

بلد شعور المصيصة ، اسمها القديم : تيانا .

٢١ ـ الصَّفْصاف :

كورة من كور المصيصة ، ويرد ذكرها أحياناً : مدينة الصفصاف أو حصن الصفصاف ، وهي قرب لؤلؤة على طريق القسطنطينية .

٢٢ ـ حصن الصقالبة :

حصن يقع في جنوبي البدندون ، وسمي باسم الصقالبة الذين فروا من البيزنطيين وعسكروا فيه . وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد جعلهم في هذا الحصن لحراسة الدرب .

٢٣ - مَلَقونِيَة :

بلد من بلاد الروم ، قريب من قونية ، تفسيره مقطع الرحى ، لأن من جبلها يقطع رحى تلك البلاد .

٢٤ - أقسوس :

بلد بثغور طرسوس في بلاد الروم .

٢٥ - أنطاكية :

مدينة مشهورة تعتبر قصبة العوصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير .

ولها سور فيه ثلاثمائة وستون برجاً من أبراج المراقبة ، وشكل البلد كنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قمته ، وفي رأس الجبل دار السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب .

وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له : السويدية ترسى فيه المراكب ، فترفع

الأمتعة إلى أنطاكية على الدواب

٢٦ ـ أطْرابزُنْدَة - طرابزون :

مدينة من أعيان مدن الروم على ضفة القسطنطينية الشرقي ، وهو المعروف بحر بنطس (البحر الأسود). وإلى هذه المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطعه البحر ، وهي مشرفة على البحر وماؤه محيط بها كالخندق محفور حولها بأسرها ، وعليه قنطرة إذا دهمهم عدو قطعوها ، ولها اقليم واسع ، ومقابلها مدينة كراسنده على ساحل هذا البحر الغربي ، وولايتها كلها جبال وعرة ، وهي من أعمال القسطنطينية .

وهي أجل ميناء ، كانت تجلب إليها السلع من القسطنطينية وتحمل منها إلى بلاد الإسلام وكان التجار العرب ووكلاؤهم ينقلون السلع منها عبر الجبال إلى ملطية وغيرها من مدن الفرات الأعلى ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج والأكسية الرومية ، وكلها كان يجلب بحراً من الخليج إلى البسفور .

الجبال والأنهار

١ ـ الجبال :

بلاد الروم ، أو ما يطلق عليها الجغرافيون المحدثون اسم : آسيا لصغرى (تركيا الحديثة)، عبارة عن شبه جزيرة عظيمة مكونة لهضبة تحدها الجبال ، وتنحدر على وجه العموم نحو البحر الأسود[1] .

وتقطع هضبة آسيا الصغرى سلسلة بُنْتِك في الشمال وجبال طوروس في الجنوب[2] .

وجبال بلاد الروم المهمة هي : طوروس ، وأنتي طوروس ، وهما سلستان جبليتان كانتا الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس ، وكان يعين هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، يمتد من ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ، ومن أهم

---

(١) الجغرافية العمومية ـ اسمدرد بالاشتراك ـ القاهرة ـ ١٩١٩ ـ ص (١٨١).

(٢) الجغرافية العمومية ـ (١٦٩).

هذه الثغور : المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس .

وجبل اللكام اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسة جبال أنتي طوروس[1] ، وقالوا في وصفه : « الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس »[2] ، ثم يمتد إلى ملطية وسميسط وقاليقلا إلى بحر الخزر ، فيسمى هناك جبل القبق[3] ، وهذ يتصل بجبال القوقاز الممتدة شمالاً وبجبال هندكوش التي تتصل بجبال هملايا[4] .

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة ، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الروم .

الدرب الأول : درب الحدث ، وهو في الشمال الشرقي ، وكان من مرعش فشمالاً إلى (أبلستين Ablastin)، وقد عرفت هذه المدينة بـ : (البستان)،

---

(١) بلدان الخلافة الشرقية - (١٦٢).
(٢) معجم البلدان - (٧/ ٣٣٧).
(٣) معجم البلدان - (٧/ ٣٢٠).
(٤) الجغرافية العمومية - (١٦٩).

وهي : (أبلشا البيزنطية Ablastho) أي (عربسوس اليونانية Arabissus)، وكان يحمي هذا الدرب حصن (الحدث Adatha).

والدرب الثاني : وكثيراً ما كان يسلك في الأزمنة القديمة ، وهو الدرب الضارب شمالاً من طرسوس ، ومنه يأخذ الطريق العام إلى القسطنطينية ، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد وتمر منه القوافل والوفود ، كما أنه الطريق التي تتبعه موجات المحاربين من المسلمين والنصارى ، وكان هذا الدرب يعرف في قسمه الجنوبي بدرب السلامة . وقد وصفه ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، فقال : « من طرسوس إلى العليق اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى الرهوة ـ أي المكان المنخفض ولعلها : مسكرينة Mopsukrene القديمة ـ ثم إلى الجوازات اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى الجردقوب سبعة أميال ، ثم إلى الذندون Podandos سبعة أميال ، ثم إلى معسكر الملك على حمّة لؤلؤة ـ لولون Loulon ـ والصفصاف عشرة أميال ـ قرب فوستينوبوليس Fanstinopolis ـ ونصير إلى معسكر الملك وقد قطعت

الدرب ـ النهاية الشمالية من الدرب الذي اخترق الجبل ـ واصحرت . ومن معسكر الملك إلى وادي الطرفاء اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى مني عشرون ميلاً ، ثم إلى نهر هرقلة ـ وهرقلة هي أراكيلة الحديثة وهركلية Heraclia عند الروم ـ اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى اللن ثمانية أميال ، ثم إلى رأس الغابة خمسة عشر ميلاً . ثم إلى المسكنين ستة عشر ميلاً ، ثم إلى عين برغوث اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى نهر الاحساء ـ أي النهر الذي تحت الأرض ـ ثمانية عشر ميلاً ، ثم إلى ربض قونية ـ ايكونيوم Iconium ثمنية عشر ميلاً ، ثم إلى العلمين خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى ابرومسمنة عشرون ميلاً ، ثم إلى وادي الجوز اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى عمورية ـ آموريون Amorion ـ اثنا عشر ميلاً ». وطريق آخر : « من العلمين إلى عمورية يبدأ من العلمين إلى قرى نصر الاقريطي خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى رأس بحيرة الباسليون ـ بحيرة الأربعين شهيداً ـ عشرة أميال ، ثم إلى السد عشرة أميال ، ثم إلى حصن سنادة ثمانية عشر ميلاً ـ وسنادة هي سنادس Synades . ثم إلى مغل خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى غابة عمورية ثلاثون

ميلاً ، ثم إلى قرى الحرّاب خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى صاغري ـ وهو Sangarius نهر عمورية ميلان ، ثم إلى العلج اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى فلامي الغابة خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى حصن اليهود اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى سندابري ـ سنتابربس Santabaris ثمانية عشر ميلاً ، ثم إلى مرج حمر الملك في درولية ـ دوريليوم Dorylaeum خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى حصن غروبلي خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى كنائس الملك ـ وهي Basilica of Anno Comnena ثلاثة أميال ، ثم إلى التلول خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى الأكوار خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى ملاجنة خمسة عشر ميلاً ـ وملاجنة هي Malagina ثم إلى صطبل الملك خمسة أميال ، ثم إلى حصن الغبراء ـ وهي كيبوتس Kibotos ـ ثلاثون ميلاً ، ثم إلى لخبيج ـ وهو بوسفور القسطنطينية Bosporus ـ أربعة وعشرون ميلاً ، وتبقية بإزاء الغبراء (أي حنوب الغبراء)[1] .

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٠٠ و ١١٠ و ١١٣) وقد جاء في (١٠٢ ـ ١٠٣) وصف طرق تختلف بعض الشيء عن هذا الطريق . وانظر كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٦٦ ـ ١٦٧).

وهذا هو ما يطلق عليه الدرب ، وإذا أطلق هذا اللفظ أريد به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب ، وإيه عنى امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول مُلكاً أو نموت فنُعذرا[1]

ولجبال طورس وأنتي طورس فروع يذكر قسماً منها البلدانيون المسلمون بأسماء مختلفة ، وهي عبارة عن فروع من طورس وأنتي طورس .

٢ ـ الأنهار :

أهم أنهار بلاد الروم نهران هما : سيحان وجيحان ، وقد أطلق المسلمون على نهر (سارس Sarus) اسم نهر سيحان ، وأطلقوا على نهر (بيرامس) اسم نهر جيحان ، وكانا حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم .

---

(١) معجم البلدان ـ (٤ /٤٨).

ومنابع هذين النهرين في المرتفعات شمال ارمينية الصغرى ، وكان نهر جيحان الذي كان يقارب نهر الفرات في الكبر ، وتسميه العامة : جهان ، يسير من الشمال إلى الجنوب بين جبال في حدود الروم ، حتى يمر بالمصبصة من شمالها ، وجريانه عندها من الشرق إلى الغرب ، يتجوز المصيصة مغربٌ ويصب بالقرب منها في بحر الروم[1] بمدينة تعرف بكفربيا بإزاء المصيصة ، وعليه عند هذه المدينة قطرة عجيبة رومية من حجارة قديمة عريضة ، فيدخل منها إلى المصيصة وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ، ثم يصب في بحر الروم[2] .

أما نهر سيحان الذي يمر ببلاد الروم ، فيجري من الشمال إلى الجنوب غربي مجرى جيحان ، وهو دون جيحان قدراً فهو أصغر منه ، ويمر على سور أذنة من شرقيها ويتجاوز أذنه ، وهي دون مرحلة عن المصصة ، ويلتقي مع جيحان تحت أذنة والمصيصة ، ويصيران نهراً

---

(١) تقويم البلدان ـ (٥٠)

(٢) معجم البلدان ـ (٣/١٨٦)

واحداً ، ويصبان في بحر الروم[١] . ونهر سيحان هو الذي ذكره المتنبي في مدح سيف الدولة فقال :

أخو غزوات ما تُغِبُّ سيوفُه
رقابَهم إلاّ وسَيْحانُ جامدُ

يريد أنه لا يترك الغزو إلا في شدة البرد إذا جمد سيحان[٢] .

ونهر حماة ، ويسمى نهر : الأرنط ، والنهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال ، ويسمى أيضاً : العاصي ، لأن غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تسقي الأرض ، ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع منه الماء . وهو يجري بكليته من الجنوب إلى الشمال ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى : (الراس) في الشمال من بعلبك على نحو مرحلة عنها ، ويسير من الراس شمالاً حتى يصل إلى مكان يقال له : (قائم الهرمل) بين

(١) تقويم البلدان ـ (٥٠)
(٢) معجم البلدان ـ (١٩١/٥).

جوسية[1] واراس ويمر بوادٍ هناك ، وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له : (مغارة الراهب).
ويسير شمالاً حتى يتجاوز جوسية ويصب في بحيرة : قَدَس[2] ، في غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص إلى : الرستن[3] ، إلى حماة ، ثم إلى شيزر[4] ثم إلى بحيرة : أفامية ثم يخرج من بحيرة أفامية ويمر على : دركوش ، إلى جسر الحديد ، وذلك جميعه في شرقي جبل اللكام .

فإذا وصل إلى جسر الحديد ، ينقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ، ويمر على سور أنطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية[5] .

---

(١) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق انظر معجم البلدان (٣/١٧١).

(٢) قدس : بلد قرب حمص ، تضاف بحيرة قدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٨٠ ـ ٨١) و (٧/٣٥).

(٣) الرستن : بليدة قديمة بين حمص وحماة ، انظر معجم البلدان (٤/٢٤٩)

(٤) شيزر : قلعة قرب المعرة ، انظر معجم البلدان (٥/٣٢٤)

(٥) السويدية : شمالي اللاذقية ، وهي ميناء أنطاكية ، انظر تقويم .

ويصب في نهر الأرنط المذكور عدة أنهر ، منها نهر منبعه من تحت أفامية ، يسير مغرباً إلى بحيرة أفامية ، ويختلط بنهر حماة . ومنها نهر في شمالي أفامية على نحو ميلين ويعرف بالنهر الكبير ، يسير مداً قريباً ويصب أيضاً في بحيرة أفامية ، ويخرجان منها مع نهر الأرنط . ومنها النهر الأسود ، يجري من الشمال ، ويمر تحت دربساك[1] . ونهر يغرا[2] ، ومنبعه قرب يغرا ، ويصب في النهر الأسود المذكور ، ويصبان في بحيرة أنطاكية ، أيضاً . ونهر عفرين[3] ، يأتي من بلاد الروم ، ويمر الراوندان[4] إلى الجومة[5] ، ويمر في الجومة

= البلدان (٣٩) .

(١) دربساك : بلدة من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، انظر تقوم البلدان (٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) يغرا : قرية على نهر باسمها بالقرب من بحيرة أفامية ، انظر تقويم البلدان (٤٢).

(٣) عفرين : اسم بلد على نهر باسمها ، انظر معجم البلدان (٦/١٨٩)، ويبدو أنها قريبة من قنسرين وحلب .

(٤) الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة مخشبة مشجرة ، من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٤/٢١٤).

(٥) الجومة : من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٣/١٧٦).

ويتجاوزها إلى العمق[1] ، ويختلط بالنهر الأسود ، ونصير هذه الأنهر الثلاثة ، أعني النهر الأسود ونهر يغرا ونهر عفرين نهراً واحداً ، ويصب في بحيرة أنطاكية ، ويخرج منها ويصب في نهر عاصي حماة فوق أنطاكية بالغرب منها[2] .

أما نهر أنقرة فيسقي مروجها وضياعها ، ويصب في بحر الروم ، وجريانه من الجنوب إلى وسط الشمال[3] .

أما نهر هرقلة ، فينزل من جبال العلايا[4] إلى جهة سنوب[5] ، وهرقلة على شرقي هذا النهر قرب البحر[6] .

والبردان نهر بثغر طرسوس ، مجيئه من بلاد الروم ، ويصب في بحر الروم على ستة أميال من

---

(1) العمق : كورة بنواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٦/ ٢٢٤).
(2) المعلومات الخاصة بنهر حماة من : تقويم البلدان (٤٩ ـ ٥٠)
(3) تقويم البلدان (٥٠ ـ ٥١).
(4) علايا : بلدة محدثة صغيرة في الجنوب من أنطاليا على بحر الروم ، انظر تقويم البلدان (٣٨٠ ـ ٣٨١).
(5) سنوب : بلدة بالقرب من القسطنطينية
(6) تقويم البلدان (٥١).

طرسوس : « ولا أعرف بالشام موضعاً أو نهراً يقال له : البردان غيره ». وابردن أيضاً نهر يسقي بساتين مرعش وضياعها ، مخرجه من أصل جبل مرعش ، ويسمى هذا الجبل : الأقرع[1] ، ويصب في بحر الروم ، وهو نهر كوردس القديم .

وعلى مرحلة طرسوس ، نهر كان يؤلف حداً مائياً في الأزمنة الأولى ، وهو نهر (لموس Lamos) ، سماه العرب نهر : اللامس ، وعليه يكون الفداء إذا فودي بين المسلمين والروم[2] .

ونهر الفرات الذي ينبع من شمالي مدينة أرزن الروم وشرقيها ، وأرزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ النهر إلى قرب ملطية ، ثم يأخذ إلى سميسط ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم ، وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها ، ويمر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ، ثم يدخل الفرات

---

(١) معجم البلدان (٢/ ١١٥).

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٥)

بلاد الشام ، ومنه إلى لعراق[1] ، وقد ذكرنا الحزء الذي يمر ببلاد الروم فقط من هذا النهر .

أما نهر دجلة ، فينبع من جبال شهرزور فوق آمد على حدود ارمينية ، ويمر بجبال السلسلة ، ثم بمدينة آمد ومدينة ميافارقين في ديار بكر اقليم الجزيرة قبل أن يصل إلى مدينة الموصل .

وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الروم والجزيرة فقط من هذا النهر ، لأن هذا ما نحتاج إليه في هذا المكان[2] .

وتكثر العيون في بلاد الروم ، لتساقط الثلوج شتاء ، وذوبانها في الربيع والصيف ، فترفد العيون والأنهار بهذه المياه .

وعلى كل حال ، فإن المياه متوفرة في جميع أصقاع بلاد الروم .

---

(١) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥١ ـ ٥٣)

(٢) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥٣ ـ ٥٧).

الموارد الاقتصادية

١ ـ مجمل الزراعة والصناعة .

بلاد الروم عموماً غنية في إنتاجها الزراعي ومواردها الطبيعية ، يرويها بضعة أنهر كبيرة وصغيرة ، وعيون كثيرة جداً ، والأمطار ومياه الثلوج .

وقد ذكر قسم من البلدانيين المسلمين بعض ما يتيسر في تلك البلاد من موارد اقتصادية ينعم بها سكانها المحليون ، ويصدرون ما يفيض منهم على حاجاتهم المعيشية .

فالعلايا كثيرة المياه والبساتين[١] ، وأنطالية بداخل البلد وخارجه المياه جارية ، ولها بساتين كثيرة من الحمضيات وأنواع الفواكه[٢] . وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير ، تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ورياضها مزدهرة ومياهها متفجرة[٣] . ومدينة

(١) تقويم البلدان (٣٨١).

(٢) تقويم البلدان (٣٨١).

(٣) معجم البلدان (١/٣٥٤).

آق شهر (أقشار) من أنزه المدن ، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة [1] وأماسية لها بساتين ونهر كبير وسواعير تسقى بها ، وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين [2] . وأدنة في مرج وقرى مدانية جداً وعمارات كثيرة ، وهي على نهر سيحان [3] . ومدينة توقات لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة [4] . ومنطقة (سيواس Sebastia) مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها ، وهي ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح [5] . وعمورية لها دخل وافر ، ولها رحىً تغل مالاً [6] ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر [7] . أما قيسارية فبلدة كبيرة ، ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل إليها [8] . ومدينة قونية لها جبل في جنوبيها ، ينزل منه

---

(١) تقويم البلدان (٣٨٣).
(٢) تقويم البلدان (٣٨٤).
(٣) معجم البلدان (١/ ١٦٦)
(٤) تقويم البلدان (٣٨٥)
(٥) بلدان الخلافة الشرقية (١٧٩ ، ١٨٠) نقلاً عن المستوفي .
(٦) معجم البلدان (٦/ ٢٢٧).
(٧) تقويم البلدان (٣٨١).
(٨) تقويم البلدان (٣٨٣) .

نهر ويدخل إلى المدينة من غربيها ، ولها بساتين من جهة الجبل ، ونهرها يسقي بساتينها ثم تصير عنه بحيرة ومروج ، والفواكه بها كثيرة ، وهناك المشمش المعروف بقمر الدين[1] الذي يصدر إلى العراق والجزيرة وبلاد الشام ، وينمو في مزارعها القطن والقمح[2] . ومدينة المصيصة على شاطئ نهر جيحان ، وبها بساتين كثيرة يسقيها هذا النهر[3] . ومدينة ملطية ذات أشجار وفواكه وأنهر ، ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباحة لا مالك بها ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة[4] . ومياه بلاد الروم كثيرة غزيرة[5] ، والأرض التي بين القسطنطينية وأنطاكية مأهولة مسكونة لا تنقطع سبلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها ، وهو رستاق كثير الخير والمير إلى خليج القسطنطينية[6] ، وما يقال عن اقليم أنطاكية

---

(١) تقويم البلدان (٣٨٣).

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (١٨١).

(٣) معجم البلدان (٨ / ٨٠).

(٤) تقويم البلدان (٣٨٥).

(٥) صورة الأرض (١٨١)

(٦) صورة الأرض (١٨٣)

يقل عن سائر أقاليم بلاد الروم .

وما ذكر عن خيرات المدن ، يشمل أقاليم تلك المدن أيضاً وقراها ، فهذه البلاد زراعية بالدرجة الأولى ، وأرضها مزروعة أو مروج ومراعٍ للأغنام والماشية والأبقار والخيول والبغال والحمير .

وحاصلات البلاد الزراعية تتلخص في : القمح ، والشعير ، والعدس ، والحمص ، والباقلاء ، والبصل والثوم ، والقطن ، وأنواع الفواكه ، والحمضيات ، وأنواع المخضرات ، والزيتون ، والجوز ، واللوز ، والفستق ، والبندق ، والبلوط ، والكروم .

ويصنع فيها النبيذ ، وتربى بها دودة القز[1] ، والأغنام ، والمواشي ، والأبقار ، وتصدر إلى بلاد الشام والجزيرة والعراق المواشي ولأغنام والأبقار والبغال .

أما الصناعة في البلاد ، فموجزها هي . أن المصيصة كانت تعمل بها الفراء التي تحمل إلى الآفاق ،

---

(١) الجغرافية العمومية (١٨١) .

وربما بلغ ثمن الفرو ثلاثين ديناراً[1] ، وكانت سيواس مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها[2] ، وكانت تجلب السلع إلى طرابزون من القسطنطينية ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج ، والأكسية الرومية ، وكلها يجلب من لخليج أي البسفور ، وكان في ملقونية يقطع الرحى لتلك البلاد من جبل تلك المدينة[3] .

٢ ـ الزراعة :

كانت الأرض أسلم أنواع الاستثمار المالي ، لأن الأرض شيء ثابت ، فوضع صاحب رأس المل ماله في الأرض ، وكذلك فعلت الدولة ، لأن الأرض كانت أضمن موارد دخلها ، وكان الكيان المالي تبعاً لذلك ، يستند في الدولة البيزنطية على دعامة رئيسة هي ضريبة الأرض التي كانت تجبى في كل مكان بشدة وقسوة

---

(١) معجم البلدان (٨ / ٨٠).

(٢) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٨) نقلاً عن : صورة الأرض لابن حوقل .

(٣) معجم البلدان (٨ / ١٥٢).

وبدون لين أو رحمة .

وكـانت ضريبـة الأرض تجمع على شكـل جزء من محصول الأرض ، لتموين الجيش والموظفين المدنيين . وكن على الولايات أن تقدم من صـرائبها الجـرايات التي لـم يكن الامبراطور على استعداد لشرائهـا ، فكان يصـدر مـرسوم يسمى : (التفـويص الإلهي) تقـدر فيـه نفقـات الامبراطورية . ومقدار م ينبغي على الفرد دفعه في العام التالي .

وقـد قسـمت الأرض إلى درجـات ، روعي في تقسيمها قدرة تربتها على الإنتـاج : فهناك الصحـراء التي لا يبللها القطر فتعجـز عن الانبات ، وهنـاك الأرض التي يمكن استصلاحها ، وهناك أرض تغذيها الأنهر مباشرة أو بالنواعير ، وهناك أرض تغمرها الميـاه فيتعذر النمـو على البـذور . وتتـوقف درجـات الإنتـاج الـزراعي على هـذا التصنيف الواضح للأرض ، وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تصنف وتسجـل هذه الاختـلافات في نـوعية الأرض ، وتضـع خطاً بيـانياً يحدد طاقـة كـل منهم فمثلاً كانت الوحدة المكونة من خمسة أفدنـة من

الكروم ، تساوي عشرين فداناً من الأرض المحروثة ، وتساوي خمساً وعشرين ومائتي شجرة من الزيتون إذا كانت الأرض تلالاً . وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأرض المزروعة ، جعلت مساحة الواحدة منها عشرين فداناً وأربعين فداناً وستين فداناً ، بالنسبة لإنتاجها الزراعي كل سنة .

وهكذا قسمت الأرض المنتجة إلى وحدات ضرائبية ، نقدر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض في مدد منظمة بين حين وآخر ، وكانت هذه الضريبة تجبى على الأرض المفلوحة .

ومن الواضح أن نظاماً كهذا النظام ، لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح إلا إذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأرض ووحدات العمل التي كانت مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وكانت المحافظة على هذا التعادل مصدر قلق للمالك وللحاكم البيزنطي ، وكان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاح الحر (معمر الأرض Colonus) بالأرض التي يحرثها .

وعلى ذلك ، حين يقرر (التفويض الإلهي) حاجة الامبراطورية من المال اللازم لإدارتها في السنة المقبلة ، توزع هذه الكميه الضخمة من المال المطلوب على ألوية الامبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء بتقسيمها بين الولايات التي ينقسم إليها لواؤه ، ثم يعهد لحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ما تدفعه كل من القرى الواقعة في نطاق بلدهم ، وأخيراً يقوم موظفو القرية بتقدير المبلغ الذي يخص كل وحدة ضريبية في نواحيهم .

وكان هناك ميل قوي خلال القرن الرابع للميلاد ، لاستبدال ما يعادل الضريبة العينية من المال بالضريبة العينية ، وانتهى الأمر بتعميم قبض الضريبة مالاً لا عيناً ، وجعل ذلك اجبارياً ، وأصبح (التفويض الإلهي) يقرر لضريبة المالية المعادلة لها في نفس الوقت .

وكان الحاكم المطلق يضع نصب عينيه دائماً أن يهيىء لرعاياه بأي ثمن ، الوسيلة لزراعة الأرض وتوفير الأيدي العاملة لها . ولهذا كان رجال الدولة البيزنطية

ينظرون إلى ما كان يعمد إليه الفلاحون الأحرار من العمل عند غيرهم بالتعاقد مع من يعطيهم أكبر أجر ممكن، وعلى أنه خطر اقتصادي، فربطوا الفلاح بالأرض التي يشتغل عليها. وهكذا أصبحت الطريقة التي يعمر بها الناس الأرض تقوم على أساس تشريعي، ذلك أن معمر الأرض كان شخصاً متميزاً عن العبد، وكان يعتبر عاملاً حراً له الحق في أن يحوز أرضاً وأن يمتلكها، إلا أنه أصبح مجبراً على القيام بواجبه في زراعة قطعة معينة ثابتة له من أرض الدولة، أو الأرض الداخلة في حدود أرض يمتلكها مالك كبير.

ولم يقف الأمر عند إجبار الناس على الاستقرار في قطع معينة من الأرض وإلزامهم بزراعتها، بل ألزمت الجماعة بعد ذلك بضمان هذا الإلتزام، وأصبح مفروضاً على هيئة كبراء كل بلد الذين كانوا يكونون مجلسها، أن يلتزموا بسداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى في حالة ما إذا هرب أحد الملاك ولم يخلفه في القيام بالتزاماته أحد. وما دامت المدينة تتحمل هذه المسؤولية الاجماعية، فقد أصبح من الضروري أن

بوصع ضمان لذلك لصالح الخزانة ، فكونت مجالس جديدة لتحمل هذا العبء وتريف سجلات ذلك العصر ، كيف كان هذا الحمل ثقيلاً ، بينما كان الغني يستطيع أن يرشوليحصل على الاعفاء ، كان الفقيرلا يجد من يعينه حيثما وجه وجهه ، وليس أمامه إلا القنوط ولاستسلام أو الهرب بحلده . وإذا هجر أرصه ، فإن المال المقدر عليه ، يقع على كاهل الباقين في أرضهم . وهدد الخراب الطبقات المتوسطة ، وأخذ القروي ولمزارع يبحث عمن يحميه من مطالب الدولة ، وكان المالك الكبير على استعداد للقيام بحمايته ، فتمكن بذلك من أن يحقق غاية في نفسه ، إذ أصبح ولياً للقرية يدين له أهلها بلولاء ، وأخذت هذه العلاقة بينهم وبينه أشكالاً عديدة كان أشيعها أن يتنازل المزارع لذلك المالك الكبير عن أرضه ، ويصبح مزارعاً عنده .

وقد تميز القرنان الخامس والسادس للميلاد ، بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية من وجهة الزراعة نزاعاً بين الدولة وهؤلاء الملاك الكبار . وشهد القرن السادس لميلادي جماعات من المواطنين يكونون

عصابات مسلحة ، وكانت هذه العصابات تهديداً مباشراً للأمن في الولايات ، وكانت خصومات النبلاء لكبار صوراً للرعب المقيم ، وكانوا بعصاباتهم المنظمة يتحدون السلطات المدنية ، ولكن غزوات الصقالبة من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم .

وحين استتب النظام ثانية في عهد بيت هرقل ، كانت هناك فرصة للمالك الصغير ، إلا أن الملاك الكبر ، بذلوا محاولات لتمكين سلطانهم على المزارعين الصغار .

وبالإمكان التأمل في حياة المزارع القروي البيزنطي ، ولكن علينا أن نميز قبل كل شيء بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها ، إلا أن الأرض في القرية المملوكة للسيد ، يكون مالكها هو المسؤول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممن ليس لهم الحق في

امتلاك الأرض ، فهي دائماً تحت تصرف سيدهم . أما الأرض في القرية الحره التي يسكنها المعمرون ، فتخص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم ، وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرف بها . وإذا دخلنا قرية حرة ، لرأينا أرضها تشتمل على الكروم والبساتين التي كانت تزرع فيها الخضر ، وكذلك الأرض المفلوحة والمراعي . وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات شائكة تشدها الأوتاد ، وكانت الماشية تتعرض للأذى إذا اقتحمتها . أما الأرض غير المفلوحة فلم تكن مسورة ، وكانت على الأغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته . وكانت المراعي تكون الأرض غير الصالحة للزراعة ، كالأحراش التي لم تقطع أشجارها ، والأرض الوعرة ، وكانت هذه المراعي تقع في أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة ، ثم يمتلكها المزارعون قطعة فقطعة ، ثم تنظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم على المزارعين ، وبهذا تدخل قطع جديدة في ملكية الأفراد . وقد تكون

الأحراش ملكٌ للأفراد ، فإذا أراد أحد المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب إلى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها إلى صاحبها ، ولكنه إذا زرعها بدون إذن ، فقد الحقَّ في المطالبة بمحصولها .

وكان رعاة الماشية يسوقونها في الصباح إلى هذه الأحراش العامة لترعى ، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة . حتى إذا صطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها إلى حظائرها وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضل ، وأذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ، ألزم بدفع تعويض مقابل تلك الخسارة .

وكانت دعامه ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان الماشية بأنواعها ، وكان الراعي يأخذ أجره على عمله ، فيعهد إليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع : فإذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم ، لم يضع على الراعي

أجره ، ولكن ألزم بتعويض الخسارة . وكانت الحيوانـات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التي كانت ترصد الخراف والحمير لتفترسها ، وإذا هـاجمت هذه الـوحوش القطيع ليـلاً ، فالـويل كـل الويـل للص الذي يتضـح أنه سرق كلب الحراسة ، إذ كان يلزم بدفع قيمة الخسرة ، فيدفع تعويضات عن القطيع كله والكسب . وكـان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع ، إلا أنه لم يكن يسمح لرجـل أن يطلق مـاشيته في أرضـه إلا إذا فرغ كل جيرانه من حصادهم .

أما مكانة المزارع ، فقـد يكون صـاحب حصه من الأرض ، ويستطيع في هذه الحالة أن يتصرف بها تصرفـاً مـطلقاً في حـدود دائرة جمـاعته . وقـد يكـون مستـأجـراً لـلأرض ، وهو في هـذه الحالـة أحد اثنين : أمـا مـزارع لمزرعة في حالة جيدة ، أو مستأجـر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيـدها لصـاحبها بعـد أجل معين ، ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيس لإقامة مـا يلزم من المنشآت في المزرعـة ، ولا تؤجر المـزرعة في هذه الحالة إلا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع

للسيد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السنوي ، وهو ما يقابل في حسابنا أكبر إيجار يمكن دفعه ، وعلى المؤجر في الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أي أنه في واقع الأمر يقوم بإنشاء مزرعة جديدة ، ويكون استئجاره للأرض على هذا إما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوي عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضي شروط أخرى ، أن يؤدي لصاحب الأرض بعض الخدمات ، أو أن يؤدي إليه كميات من المحصول .

وكانت روابط القرابة في الجماعات القروية متينة جداً بطبيعتها ، وإذا وجدنا فلاحين مشتركين في ملكية أرض ، فلا بد أن نجد أنهما متصاهران في نفس الوقت غالباً . فإذا أراد أحدهما أن يبيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة إذا دفع ثمناً مساوياً لما يدفعه أي غريب عنهما ، وحتى إذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تمتعوا بحق مشابه .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ، فقد كان المالك الكبير دائم السعي لتوسيع

ملكه ، فكان من السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر إلى التخلي عن أرضه لجاره القوي وحول التشريع الإصلاحي في القرن العاشر الميلادي أن يحرم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى في حدود أرض القرية ، سوء كان ذلك عن طريق لهبة ، أم لاعتبار آخر مهم ، وسوء أكان ذلك المالك سيداً مدنياً أم هيئة كنسية . ولكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلاً في هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين ، وأخذ بالقاعدة التي تقول بأن انتقال الملكية لا يصح إلا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينقل للفقير ، والغني للغني ، أي كل لمن هو من طبقته في كل حاله . وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكيه نقلاً مطلقاً من كل قيد أمام ما كانت السياسة تفرضه على رجال الدولة من حماية الضعيف ، وظل مركز المالك الكبير القوي بالنسبة للمزارع الصغير الضعيف ، في الامبراطورية البيزنطية الشرقية وسلامته يعتبران القاعدة التي يجب أن تنحني أمامها سائر النظريات القانونية ، وبقي المجتمع مقسماً إلى طبقات بعضها فوق بعض ،

وكان ذلك دعامة بناء المجتمع في القرن الرابع الميلادي ، كما كان دعامته في القرن العاشر الميلادي أيضاً[1] .

٣ ـ التجارة والصناعة :

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لإيطاليا في عصور الامبراطورية الأولى ، فقد كانت تستورد من الشرق أسباب الترف التي كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب . وكانت التجارة مع الشرق لا تزال تستنزف معظم نشاط تجار الروم ، بعد أن نقلت العاصمة من رومة إلى القسطنطينية . وكانت الدولة بدورها تبدي اهتماماً بالتجارة ، إذ أن كنوز الهند والصين التي كانت الدولة تغدقها على أمراء القبائل المتبربرة في الغرب ، كانت كافية للإبقاء على سيادتها الامبراطورية حتى في النواحي التي لم تكن جيوشها قادره على السيطرة عليها .

---

(١) مقتبس من الفصل السدس ، بعنوان : ملكية الأرض والضرائب ، كتاب . الامبراطورية البيزنطية ـ نورمان بيتز ـ تعريف الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ . ص (١٢٩ ـ ١٤٦) .

وكانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى إلى التاجر الرومي : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصغد (سمرقند وبخارى) مخترقاً فارس ، ومن ثم إلى حدود الامبراطورية البيزنطية . والثاني يخترق المحيط الهندي إلى البحر الأحمر ، والثالث وهو طريق أكثر صعوبة ، يمتد من وسط آسيا إلى بحر الخزر ، ومن ثم إلى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس . وقد ازداد الاقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف ، واصبح ارتداء الثياب الحريرية المصنوعة من الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيتيه ، وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للألبسة الكهنوتية ولستر والأعطيه ، ولتزيين المذابح ـ بعد أن كانت أول الأمر ترفض استخدام الحرير للأغراض الدينية ، بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس في مراسم البلاط . وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في مدادها بهذه المادة الجديدة . وقد لحق بتجارة الروم

ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الحريرية الخام ، وكنتيجة لتحميل لبضائع المستوردة ضرائب كمركية باهظة قبل أن تجتاز الحدود إلى بلاد الروم ، وبسبب الحروب البيزنطية الفارسية .

ومنذ القرن الخامس الميلادي ، أخذت الدولة تتدخل في التجارة ، فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء الدولة في الحدود ، لكي لا يكون لها منافس ، ومن ثم يباع إلى الأفراد بالسعر الجاري بعدئذ .

وجلبت شرانق دود القز إلى بلاد الروم في أواسط القرن السادس الميلادي ، وبدأت أشجار التوت تزرع ، وأخذت الامبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير ، وظلت الدولة تحافظ على احتكارها لصناعة الحرير باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال في ذلك .

وفي خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي فتح طريق التجارة الشمالي بعد انقطاعه ، وكانت موانىء القرم تتاجر مع الهون وجنوب روسيا ، فتجلب الجواهر وتحف الصناعة الرومية الفاخرة وتستبدل

بها الجلود والعبيد من الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر .

وكان طريق التجارة الجنوبي أهم من ذلك بكثير ، حيث تمر التجارة الهندية والصينية والحبشيه بالبحر الأحمر ، وكانت سيلان أهم مركز تجاري في حينه ، يلتقي على أرضها تجار الشرقين الأقصى والأدنى وتجار الهند والحبشة والصين . كما كان للروم تجارة مع الروس ، واستطاع الروس دخول القسطنطينية على شريطة أن يكون دخولهم من بوابة واحدة غير مسلحين ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم في المرة الواحدة ، وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم عن ذلك وكانت الحكومة البيزنطية تهيء المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس طول مدة زيارتهم دون مقابل ، وكانت تختص رسل أمير (كييف) الروسية التجاريين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس على ضرائب كمركية . وكانت التجارة جميعها تقريباً تجري على أساس المقايضة ، فكان المرء

الروسي والشمع والعبيد تقايض بالخمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية . وكانت الدولة البيزنطية تجهز التجار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم ، كما كانت تمنحهم أدوات لسفنهم كالمرسي والحبال الضخمة والصغيرة والأشرعة ، مما كانوا بحاجة إليها لإصلاح سفنهم ودامتها .

وفي القرن العاشر الميلادي ، أصدرت الدولة البيزنطية مجموعة القوانين لنقابات القسطنطينية التجارية . وأبرز مواد تلك القوانين ، تلك التي تنص على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ، فكانت الدولة تحرم على التجار جمع البضائع من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق ، فكان يجب ـ في حدود الامكان ـ أن يشرى كل شيء ويباع دون تدخل الوسطاء . ووضعت مدة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه ، وتكبح جشع الرأسماليين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما . وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم ،

وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرماً .
وفي الحالات التي تمس مصلحة الدولة ، كحالة التموين مثلاً ، نجد أن القواعد التي كان أعضاء النقابة لخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصلة تفصيلاً خاصاً ، فكانت الحكومة تقرر الثمن التي تشتري به المواد الخام وسعر بيع المأكولات ، ويظهر أنه كان في استطاعة الدولة أن تطلب بعض الخدمات من النقابات دون مقابل ، وربما كان هذا لتقليد يوناني قديم ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيه الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها . وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشترط لكي تسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات علنية ، وكان من المحتم أن تتم هذه العمليات في أماكن معينة محددة لكل حرفة وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد ثم توزعها على أعضائها ، وكانت تلك الصفقات التي يقوم بها موظفو النقابات لا تتم إلا في مواضع معينة وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرض مرتكبه للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة أملاكه ، أو

بتغريمه مـالاً ، أو بجلده وقص شعر رأسـه ولحيته ، وإذا كانت الحالة أكثر خطورة ينفى أو تقطع يـده . وكان على التجـار الأجانب حـال وصولهم العـاصمـة ، أن يخـطروا السلطات الحكومية ، ولم يكن باستطاعتهم أن يمكثوا في العـاصمـة ، أكثر من ثـلاثــة أشهـر إلا بمــوجب اتفاق خاص . وإذا انتهت هذه المدة دون أن يبيعوا بضائعهم ، قـامت الدولـة بوضـع التـرتيبـات لبيعهـا . وكـان كـل مـا يشترونه من البلدة نفسها خاضعاً لرقابة دقيقـة ، ولـم يكن يسمـح لهم أن يحملوا معهم شيئـاً من الأمتعـة التي كـان تصـديرهـا محرمـاً كالمـواد الحريـرية المتميـزة . وكانت الحكومة تكشف عن كل البضائع كشفاً دقيقاً ، فإذا أبيـح بعدئذ تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة .

غيـر أن التجارة البيـزنـطيـة اضمحلت في القـرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، لأن الدولـة اضطرت إلى أن تمنح مدينة البندقية امتيازات شديدة الخـطر ، في مقابل الحصول على معونتها ، وذلك بعد أن أخفقت في الاحتفاظ بأسطولها . ولا شـك في أن هناك أسبـاباً عـدة لاضمحلال التجارة البيزنطية ، وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر

أنه قد لعب دوراً مهماً ، وهو : لم يكن أغنياء الروم على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب إلى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم في الأرض ، لأن الأخطار البحرية كانت في الواقع عظيمة : أخطار شبوب النار في السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتربصون بالسفن على الشواطىء لاغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر . وكانت السفن تتعرض لما يسمى بالقصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى ، الحق في أن ينتقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التي اعتدى أهلها على رعاياها . وهناك خطر الوقوع في يد القرصان المسيحيين المتدينين ، الذين يكسبون عن هذا الطريق المال الذي يعينهم على الخروج للحج إلى بيت المقدس .

ومن هنا ، كانت السفن تسير جماعات في قوافل لتتبادل المساعدة ، وكانت تحمل رجالاً مسلحين للدفاع عنها .

لهذا لم يكن أغنياء الروم مستعدين للمجازفة

بأموالهم في مخاطر التجارة البحرية ، فكانوا يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتثميرها ، فاضمحلت تجارة الروم ، وتفوقت عليها تجارة البندقية فواقاً بعيداً[1] .

أما خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، فكان الصانع منهمكاً في أشغاله ميسوراً ، فدولة الروم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوهما في هذين القرنين . ولم تكن القسطنطينية في أي وقت من أوقاتها أكثر نتاجاً وأوفر ربحاً ، وأصبحت بوفرة مالها وحذق صناعها أم المال والذهب والفن والعجائب للعالم أجمع ، وقصدها أمهر الصناع وأطمع التجار من سواحل البلطيق حتى الأوسود والأدرياتيكي ، ومن ارمينية والقوقاز حتى إسبانيا والبرتغال ، وتمنى بذخها وثروتها أمراء الإقطاع شرقاً وغرباً .

فعلاوة على البقالين واللحامين والخبازين والبنائين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين

---

(١) مقتبس من الفصل الثالث عشر : التجارة من كتاب الامبراطورية البيزنطية

والرسامين ، كان هناك طبقة من التجار والصناع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب ، وهؤلاء أدهشوا العالم بدقة صنعهم ومهارتهم ، فجمعوا أموالاً طائلة ، وجعلوا من القسطنطينية قبلة أنظار أهل البذخ والترف في الشرق والغرب معاً . كما أن صناعة الروائح العطرية لم تقل شأناً عن صناعة الحرير .

وشجعت الحكومة هذه الصناعات وأخفت أسرارها ، ونظمت أمورها ، ثم حمت هذه الصناعات من مزاحمة الأجانب ، فحددت الاستيراد أو منعته[1] .

لقد كانت تجارة الروم وصناعتهم في تقدم تدريجي حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، حيث بلغت أوج تقدمها ، ثم اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلادي ، فتأخرت وتقدم عليها غيرها من الأمم ، كما ذكرنا ذلك

---

(١) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الدكتور أسد رستم ـ ص (٢/٩٦ ـ ٩٧) ـ بيروت ـ ١٩٥٦ .

تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه الأولى

١ ـ مولد الامبراطورية البيزنطية :

الروم عند العرب قبل الإسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون ، والبيزنطيون عند أنفسهم روم ، أي رومان . وعاصمتهم : (رومة الجديدة) أي القسطنطينية ، ولا يزال الروم الأرثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني حتى يومنا هذا : (رومة الجديدة) .

واللفظ : روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب ، وورد اسم الروم في القرآن الكريم في : ﴿ ألم . غُلِبَتِ الرُّومُ . في أدنَى الأَرْضِ وهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾[١] . وفي آية واحدة ، مرة واحدة فقط ، وحملت السورة التي جاءت فيها تلك الآية الكريمة اسم : سورة الروم ، وهي من السور المكية[٢] .

---

(١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ ١ ـ ٣)

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٣٢٩) ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ

وكانت رومة ، عاصمة الروم الأولى ، ولكنها تقهقرت لأسباب كثيرة نذكر أهمها بإيجاز شديد .

فقد كان من جراء التوسع العسكري الروماني ، أن تعاظم كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين ، فعادوا إلى أوطانهم متمتعين بجميع ضروب التنعم والترف ، مشبعين بغطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة ، بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود الحكم الجمهورية .

وتهافت الأغنياء والكبراء على اقتناء المزارع الواسعة المترامية الأطراف ، وحشروا فيها ما ملكوا من أرقاء . ولم يقو المزارع الصغير على مزاحمة جاره المزارع الكبير ، فضم أرضه الصغيرة إلى أرض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الأرض إلى الأبد . ومع أن هذا النظام الإقطاعي لم يجعل من المزارع الصغير الذي لا أرض له رقيقاً لسيده ، فإنه فقد حريته في أن يذهب حيث يشاء . وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع الكبيرة شاقة تعسة . وكان يكوى بمياسم ليبقى الموسم علامة يعرف بها عند الفرار ، فتمر الرقيق من صحبه سيده ،

وانقبضت نفسه عن العمل له بإخلاص وأمانة . وتضاءلت على الأيام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار قسم من المزارع وترك لينبت فيه العشب والدغل . وعتمدت روما على قمح مصر وحبوبها لتغذيه أبنائها وأبناء المدن الايطالية الأخرى ، وقلت الأيدي العاملة لهجرة الفلاحين إلى المدن ، فبارت الأرض لهذا السبب أيضاً ، وضعف الإنتاج الزراعي .

وكان هناك عداء مزمن بين الفقراء والأغنياء . فثار الأرقاء أكثر من مرة على سادتهم ، ونفر المزارعون الصغار في ايطاليا وغيرها وأحرقوا المزارع الكبيرة التي أنشأها كبار الملاكين . بيد أن الأرقاء لم ينظموا صفوفهم . ولم يكن لديهم في وقت من الأوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه ، وجل ما بلغوا إليه أنهم كرهوا أسيادهم وثاروا في وجوههم وتمنوا زوال نعمتهم ، وذلك بعمليات متفرقة في غالب الأحيان .

وأدى توسع روما في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، إلى توسع مماثل في أفق أبنائها العاملين في حقلي الصناعة والتجارة ، فخرجوا من ايطالية إلى

الولايات الجديدة يوظفون أموالهم فيها ، وقام من أبناء هذه الولايات نفسها ، ولا سيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم وإنتاجهم ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات . ومع الزمن ، فقدت ايطاليا سيطرتها الاقتصادية التي كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وقل إنتاجها الصناعي وتدنى ، فأصبح في مستهل القرن الثالث الميلادي قليلاً ، فقل الدخل عموماً وقل دخل الدولة ، لتأخر الصناعة والتجارة وانحسار دخلها ومواردها ووارداتها .

وكانت الخدمة العسكرية في أوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين ، ولما جاء يوليوس قيصر منح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات وأعيانها . وقضت ظروف الحرب والاستيلاء والتوسع بتكبير الجيش ، فجندت رومة أبناء الولايات في وحدات مساعدة ، ثم تساهلت رومة مع كل من لمست فيه استعداداً لتفهمها والامتزاج بأبنائه ومنحته هذا الحق الكبير . وفي سنة (٢١٢ م) أبيح هذا الحق لجميع سكان الامبراطورية ، فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع

عناصر حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما أدى إلى انحطاط الجيش الذي أصبح ضخماً في كميته هزيلاً بي كيفيته .

كما أن التوسع العسكري الكبير ، أدى إلى تغيير آخر في الجيش ، فالحدود الشاسعة الطويلة ، والأعمال الحربية المتتابعة ، قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والانحطاط الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية إلى أن تقطع جنود الحدود أرضاً يحرثونها ، وأن تحيز لهم أن يتأهلوا ويقيموا في أكواخهم قرب الحدود ، فقضى الجنود حياتهم بأكملها في خدمة الجيش ، وأصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها لا جيشاً من الشعب يقوم بخدمة الدولة .

كما عجل كثيراً في انحطاط الجيش ، أن الجند أصبحوا يختارون من يرضون عنه ليصبح امبراطوراً ، ويعزلون من لا يرضون عنه ويعينوا مكانه غيره ، كما أمسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام ، وهذا أدى إلى انهيار الضبط والربط في الجيش ، ولا قيمة لجيش لا

يتحلى بالضبط العالي والربط المتين .

وكان الامبراطور في بدء الأمر وجيهاً رومانياً كبيراً خول سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة ، وكانت هذه السلطة أو لقيادة تنتهي بانتهاء الحرب . ثم جاء الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها ، فوكلت رومة القيادة إلى رجل واحد طوال عمره . وبقيت سيادة الدولة الرومانية بظل هذا الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته ، وبقي هو ممثل الجمهورية الأوحد ، واستحق لقب : (أوغوسطوس) أي قديس لأنه كان في نظر الرومانيين رمز آلهة رومة لحي . وانحصرت السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ، وكذلك إدارة الدولة وفرض الضرائب وجبايتها ، ولما كانت القوة العسكرية بيد الامبراطور ، كان من الطبيعي جداً أن يتطاول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق سلطته ، وأن تتدرج الدولة الرومانية الجمهورية في سلم الملكية .

وتبين أن الجيش بعد أن انفصل عن الشعب الروماني وأصبح خليطاً من كل من هب ودب ، بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالمشاركة مع

مجلس الشيوخ ، ولكن هذه السلطة أصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش .

وتساقط الأباطرة واحداً بعد آخر قتلاً بأيدي جنودهم أو بأيدي جنود أعدائهم ، وتكاثرت الحروب على الروم ، وتصاعدت الأفكار الفلسفية التي فرقت الشعب دون جدوى .

وظهرت المسيحية ، فعانت ما عانت من اضطهاد الروم ، ويشير المؤرخون عادة إلى عشرة اضطهادات بين سنة أربع وستين للميلاد إلى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الميلادية[1] ، حيث كانت سنة البراءة التي تنفس فيها المسيحيون الصعداء .

فقد تنصر قسطنطين الكبير (٢٨٠ ـ ٣٣٧ م) سنة (٣١٢ م)، فظهرت رسوم مسيحية على مسكوكاته ، وجعل شارة الصليب على رايته ، واهتم بالنصارى واعتنى بهم ، وحرم التبشير باليهودية والدعاية لها سنة (٣١٥ م)، وأصبح حبر الأمة الأعظم يرعى جميع

---

(١) الروم (٩ ـ ٣٣)، حول التفاصيل .

الأديان وبخاصة المسيحية ، ولكنه لا يكره أحـداً على أن يـذهب مذهبـه ، ولكل من رعـاياه أن يتبـع الـرأي الـدي يراه .

وقضت ظـروف قسطنـطين السياسيـة والعسكـريـة بقـائـه في الشـرق أكثـر من الغـرب ، فعـزم على إنشـاء عـاصمة في الشـرق تسهل الـدفاع عن الـولايات الغـربية والشرقية ، ووقع اختياره على بيزنطة ، ولا نعلم بـالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديـدة ، ولكننا نعلم أن تدشينها جرى في الحادي عشر من أيار سنـة (٣٣٠ م)، وسمـاها : رومـة الجـديـدة ، ولكن الشعب أطلق عليهـا اسم : القسطنطينية[1] .

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

كانت الهوايات والنزعات في الامبراطورية البيزنطية الشرقية دينية ، وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً .

لقـد كان البيـزنطي يعيش في عـالم تملأه وتسيـطر

---

(١) الروم (٥١ ـ ٦٤)، حول التفاصيل .

عليه القوى الخفية ، فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه في الملعب تستهل بالتراتيل الدينية ، وعقوده التجارية توسم عليها علامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدس . وإذا أراد أن يستخير الله لم يفعل ذلك إلا عن طريق النساك أو عن طريق الرؤى الذي يتمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ، ويرى في الغبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجح دواء عنده . وكانت حروبه صليبية مقدسة وامبراطوره خليفة لله في أرضه ، وكل حادثة مروعة في الطبيعة فهي إما نذير أو بشير ليثنيه أو يحفزه .

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهماً ، فقد وجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات عالية في الطبقة العاملة الذين يعيشون في مساكن تحت الأرض ، وكان ذلك في طاعون القرن الرابع الميلادي ، فأعلن للملأ أن ذلك سببه قلة الهواء النقي ، فاتهم الطبيب بالكفر ولما أصيب الطبيب بالمرض وقضى نحبه ، انتصر رجال الدين المسيحي ، واعتقد الناس أن موته كان عقاباً

له على زندقته .

والحق أن البيزنطي تحول بالسليقة إلى لقديس بعد أن عاين عجز الطبيب ، وبعد أن كان الناس ينامون في الهياكل الوثنية ليبرأوا من أسقامهم ، أخذ المسيحي حينئذٍ يتردد إلى الكنيسة أو إلى مقام أحد الشهداء ، وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التي كان يتولاها الإله القديم في المعبد ، وأخذ القديس المسيحي يحل محل الإله الوثني الذي كان يدرأ الأذى عن المدينة .

وهذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الإطار الذي كان يعيش فيه الإنسان البيزنطي ، ذلك أن ميله إلى اللاهوت كان يظهر في كبر الأمور وصغارها ، وكان العالم المحجوب عن الأبصار يدور معه في الآجلة والعاجلة .

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش في جو ديني حسب ، ولكنه كان يعيش في جو خطر ، ولا شك في أن أعصابه كانت في بعض القرون تحيا في توتر مستمر ، لأن مدينته كانت تقاسي حصاراً بعد حصار . ومما لا

جدال فيه أن الامبراطورية الرومانية في الغرب سقطت لأن أعداءها فـاقوا جيوشها عدداً ، ولو تيسر للمدافعين يومئذ البارود والمدفع لباءت هجمات أعدائهم بالاخفاق ، لأن ذلك السلاح كان يكفي ليسد العجز العددي عند الرومان . وكانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق بمعنى من المعاني المدفع والبارود اللذين حرمتهما الامبراطورية الغربية ، فآل أمرها إلى الزوال . ولكن لا بد للأسوار من رجال ، وإذا كان المدافعون عنها فئة قليلة ، فلا بد من أن تلعب الخدعة والحنكة والخيانة الصراع ـ إذا دعت الحاجة إليها ـ دورها بالنيابة عنهم . وهكذا مال الخلق البيزنطي إلى ألوان من الدهاء لا تعرف المبادىء ولا حدود الأخلاق ، تلك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في الشخصيات والناس عامة . ونستطيع أن نقرر من غير حرج ، أن النفعية الذاتية التي انغرست في النفوس دون شك ، كانت شائعة في الروم الشرقيين رفيعهم ووضيعهم .

ذلك أن التوتر الدائم له رد فعل ، هو الافراط في التراخي

ومن العبث أن ننكر ، أن العنف والوحشية والجور ، وهي خصال كانت متأصلة في نفوس البيزنطيين ، كانت تلعب دوراً كبيراً ، فقد كان جمهور العاصمة ينظر باستخفاف إلى قيم الحياة البشرية نتيجة لسخطه على الساسة الذين أبغضهم بغضاً مريراً ، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يقترفان بها أمام أعينهم كلما وقع شغب وهياج . وزادت الحكومة سوءً ، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية ، بما كانت تطبقه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح ، كقطع الأيدي ، وجدع الأنوف ، وسمل الأعين

وعلى الرغم من الخطر المحدق بالعاصمة دوماً ، كان البيزنطي يتطلب لنفسه تسلية ومرحاً ، وكانت مراكز الحياة الثلاثة في العاصمة هي : القصر ، وميدان السباق ، والكنيسة . فإذا أغلقت الحمامات وأقفلت أبواب ميدان لسباق ، فقدت الحياة عند البيزنطي بهجتها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها .

وكان المتسابقون يعيشون في عالم تسوده

الخرفات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاويذ السحرية والتمائم أن يقيدوا منافسيهم برقى حتى يفوزوا دونهم ، وكثيراً ما كان السائقون يفتشون قبل بدء السباق حتى لا تكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق ، مع كثير من الشعوذات الأخرى .

وكان ميدان السباق مكاناً تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية ، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجواني - رمز السيادة - على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين . كما كان أيضاً محكمة جنايات ، يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام . حتى أن الامبراطور إذا اقتنع بارتكاب أحد لحكام جريمة من الجرائم ، قضى على المجرم أن يحرق حياً على مرأى من الرعية . وكذلك كان الملعب مسرحاً لتلك المواكب التي اعتاد الناس أن يروا فيها رجلاً من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يسار به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أركب حماراً وجعل وجهه إلى ذيله كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع من النحت القديم ، حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة

المسيحية ، وقد رضوا عما يجري في الملعب كان الملعب مرآة للعالم البيزنطي .

وكان للرجل البيزنطي بطلان هما : الفائز في سباق العربات ، والقديس المتقشف . أما الأول ، فكان تنصب الصور والتماثيل إجلالاً له في كل مكان ، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة ، فكان في نجوة من كل عقاب بدني ، وإليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم .

أما المتقشف الزاهد ، فكان الحجاج يأتون إليه من كل صوب ، يحدوهم شوق لاهف ليروا القديس على عموده ، وينالوا بركته ، وليحملوا معهم تمثالاً صغيراً من تماثيل الرجل الطاهر ، التي كانت تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الاتقياء . وهذا التمثال مع القنديل المعلق به ، كان يحمي دكان المتبرك وبيته من كل أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعوراً متجدداً بالاطمئنان وسط أخطار الحياة .

وكان هناك وحدة في الأسرة وإخلاص متبادل بين

أفرادها . والمرأة ربة البيت ، ولهـا نفوذهـا الملموس في مجال عملها على زوجها وأطفالها . وكانت البنت تتزوج في سن مبكرة ، وكان اختيار الزوج مما تعنى به الأسرة ، وقلمـا كانت البنت ترى زوجهـا قبـل الـزواج . على أن المرأة البيزنطية لم تكن سجينة بيتها على أية حال ، على الـرغم من أن الحرائـر المحصنات لم يكن يـرتـدن دور التمثيل . وكانت نظرية الروم عن السيادة لا ترى غضاضة في زواج الأمير بامـرأة لا يجري في عـروقها دم الملوك ، بل كثيراً ما كان النسل الامبراطوري يتقوى باختيار عروس من الـطبقات المتـوسطة ، حتى كـان الامبراطـور أحيـانـاً ينتخب شريكة حيـاته من بين سـرب العذارى الجميـلات اللواتي انتقين من الولايات لتلك الغية[1] .

٣ ـ السيادة البيزنطية :

جمعت السلطة النافذة داخـل حدود الامبـراطوريـة البيـزنطيـة في شخص الامبراطـور ، فكان هـو مصـدرهـا الأوحـد . ولكن ظل حق الامبـراطور في العـرش يخضع

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (١٦ ـ ٣٩)

للانتخاب طيلة تاريخ الامبراطورية ، فكان مجلس الشيوخ والجيش ينتخبان الحاكم . الجيش يمارس حقوقه الوراثية في تنصيب الملوك ، والشعب يؤيد ذلك ، فكان باستطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزكيه الطرف الآخر . أي أن انتخاب الامبراطور كان يمر بالادوار التالية (١) ينادي مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح « في وضع دستوري يحمله في مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو إلغاؤه » . (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك ، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح . (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في ميدان السباق[1] . (٤) تتويجه بالتاج على يد البطريرك الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الكنيسة . . . وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطاً أساسياً .

---

(١) كان تتويج الأباطرة منذ القرن السابع يجري في الكنيسة الكبرى ، ويحضره أعضاء مجلس الشيوخ وممثلون عن الجيش والشعب الذي يهتف للامبراطور داخل الكنيسة وخارجها ، وكان التتويج قبل القرن السابع يجري في ميدان السباق خارج المدينة

تلك هي الإجراءات التي ينص عليها التقليد الدستوري في مسح السلطان لأحد من الناس ، لكنها لا تكفل له سوى لقب بشري ، بيد أن عرش الامبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً ، فالأمبراطور صفي الإله ، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق إرادة السماء ، وإذاً فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر ، فنجاحه هو المسوغ الوحيد ، وهذا النجاح يطمس صفحة ماضيه ، وهو الأسس الذي يلزم الناس بطاعته .

وإذاً فمن الواضح أن الامبراطور ملك كاهن ، ومنصبه كهانة ملكية ، وما الامبراطور إلا أحد رجال الدين ، فهو يستطيع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقترب من المذبح حيث لا يسمح لأحد من العلمانيين (غير رجال الدين) بالمرور . وفي استطاعته أن يقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس . وعهدت له العناية الإلهية ـ كما عهدت لبطرس من قبل ـ في رعاية أتباع السيد المسيح ، ولكن يظهر هذا الجانب من كهانة

الامبـراطور بـوضوح أكثـر ، أضيف منـذ القـرن التـاسـع الميـلادي ـ على ما يظن ـ عمـل آخـر رمـزي في حفـل التتويج ، ألا وهـو أن يقوم البـطريرك بمسـح الامبراطـور بـالزيت المقـدس ، ولم يكن يعبـر بـذلـك عن إرادة الدولة ، بل عن المشيئة الإلهية .

غير أن النظريه (الإلهية) في أصل الملكية كـانت تحمل في طياتها نتيجة أبعـد مدى . فمصـدر الرفعـة هو الله يعـز من يشـاء ويـذل من يشـاء . وإذاً فـالعـرش الامبراطوري مباح للجميع ، فـلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم ، على السواء . غير أنه اشتـرط في الامبراطـور أن يكـون مسيحياً ، وأضيف بعـد ذلك أن يكـون مسيحياً أرثوذكسياً ، وفيما عدا ذلـك يمكن لأي واحد من النـاس أن يقـع عليه اختيـار الله عـظيمـاً كـان أم حقيـراً غنيـاً أم فقيراً .

بيـد أنه لم يكن هنـاك من سبيل دستوري لإسقاط الامبر طور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة ، وهنا أيضـاً لا يحـول اختيار العنـاية الإلهيـة لـه ، دون أن يعتبـر مجـرد

عدصب في حالة اخفاقه ، وبذا فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزء من الدستور المعمول به .

بيد أن اختيار الأباطرة بطريق الانتخاب وحده ، لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً ، ما دام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدولة ، ولا يعتبره لناس خيانة إلا في حالة الإخفاق ، ثم إننا لا ينبغي أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الامبراطورية في بعض الأحيان . ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة ـ فيما يختص بطريقة اختيار الحاكم لأعلى للدولة ـ كما يلي : إن تفويض الحكم للامبراطور ، يخوله حق تتويج خلف له أثناء حياته ، ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة ، رغم وجود خليفة إلى جواره ، فإذا توفي انتقل السلطان إلى خليفته من تلقاء نفسه » .

وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب ، ولم يبق أمامهم إلا أن يحيوا الحاكم الجديد ، قائلين : « مات الملك ، يحيا الملك » ! .

وقد كان مما يميز الأباطرة الشرقيين العسكريين

كفاءتهم العسكرية كقادة للجيوش في ميادين القتال

ولم يكن الامبراطور ملك الملوك[1] ، كما كان يسمى رسمياً بعد سقوط الامبراطورية الساسانية ، التي كان كسرى المنازع الوحيد له في هذا اللقب ، فقد قال المسيح : « إنه وارث هذا العالم »، فعلى نائبه ـ وهو الامبراطور ـ أن يرعى إدخال العالم في دائرة ملكه . أليس هو الآخر مخلصاً للعالم ؟ أليست قوته هي المدبرة له ؟ إذاً فهو الحاكم الأعلى ، وله الحق في السيادة على العالم كله .

ولم يكن الأمر ليقف إلى هذا الحد ، فإنه لما كانت مملكة الأرض مصوغة على مثال مملكة السماء ، إذاً فهي ليست عالمية فحسب ، بل خالدة أيضاً ، وليس باستطاعة بشر أن يقوض دعائمها . أما الأباطرة الفاسدون ، فليسوا إلا عقاباً إلهياً للناس ، حتى إذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم ، أشرقت شمس رحمة الله مرة أخرى ، وهكذا

(١) أي الباسيليوس Basileus .

تصبح المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد ، وكانت هذه العقيدة راسخة قبل المسيحية في روما ، فاستحال ذلك إلى عقيدة دينية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي القيود العمية والنظرية لتي تحد من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

بالرغم من أن الامبراطور هو المشرع الأعلى ، وبالرغم من أنه لا يسأل عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يلزم نفسه بمراعاة القوانين . ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالامبراطور ، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة ، تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد . وقد أصبح مجلس الشيوخ ـ إذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة في تنصيب الملوك ـ مجلس حكام يفضلون السبل المطروقة ، ومن المؤكد أن الأباطرة لم يعدموا كثيراً من الحكماء والناصحين ، وجدوا من الحكمة ما جعلهم يأخذون بنصحهم .

وقد كان سكان العاصمة أيضاً إلى جانب حرس

المدينة الرسمي ، حتى القرن السابع الميلادي على الأقل ، يكونون قوة فاعلة ، وكانوا على قوة تمكنهم من الاخلال بالأمن إذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خمدت المقاومة الشعبية المنظمة لإرادة الامبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نواباً للشعب ، وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة ، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الامبراطور من البطريرك الذي كان بإمكان الامبراطور أن يعزله . واستطاع الجيش أيضاً أن يوقف بعنف أي إجراءات لا يرى تنفيذها ، اعتماداً منه على قوته .

إلا أن هناك قيداً آخر أعمق مما ذكرناه ، ذلك هو التأثير الخفي لتقليد يفترض في الأباطرة : (حب الخير للناس)، يحتم على الامبراطور اسداء خدمات إنسانية جليلة لشعبه ، وكان هذا المثل الأعلى ـ في الواقع ـ قوة كابحة لجماح الامبراطور .

وأخيراً ، كان المنتخبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد من لناس السلطة الامبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمرعاة ذلك . ومع مضي الزمن ، أخذ الامبراطور عن تتويجه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسية ، ويتضمن توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السبعة ومجامع دينية محلية أخرى ، وحقوق الكنيسة وامتيازاتها ، وبعد بأن يظل خادماً مخلصاً للكنيسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحامياً لها ، ويأخذ عهداً على نفسه بأن يظل إنسانياً في حكمه لشعبه ، عادلاً بينهم ، وأن يتجنب توقيع عقوبات التنكيل بالناس أو الحكم بالإعدام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . . . وصيغة القسم من الأهمية بمكان ، بحيث تظهر لنا ما كان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

وكانت قواعد السلوك في البلاط صارمة ، وفيها وصف دقيق مفصل للأدوار التي تقوم بها كل طبقة من الهيئة الحاكمة الامبراطورية في سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التي كانت تكون : (السنة المسيحية) البيزنطية . وفيها ذكر مفصل للملابس والحركات

ومواضعها وأوقاتها ، والكلمات الرسمية التي جعلتها العادة مع مرور الزمن مقدسة .

ولنتصور زعيماً بربرياً من أحد السهول أو الصحارى ، وصل إلى البلاط البيزنطي ، ونزل في ضيافة القصر ، وشاهد عجائب العاصمة في رعاية موظفي الامبراطور ، كان عليه أن يمثل بين يدي الامبراطور ، تراه يمر في متاهات من الدهاليز الرخامية ، وغرف غنية بالفسيفساء والأردية الذهبية ، وبين صفوف حرس القصر الذين يرتدون زياً أبيض واحداً ، يحف به النبلاء والأساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ ، بينما يعزف أرغن الكنيسة ، تصاحبه فرق المغنين بالكنيسة والخصيان ، ثم أخيراً يسجد مبهوراً بهذه الفخامة التي بغير حدود ، في حضرة الامبراطور الصامت الوقور ، سيد روما الجديدة ، ووريث قسطنطين ، وهو متربع على عرش القياصرة . وقبل أن يسمح له بالنهوض ، يرى الامبراطور وقد تغيرت حلته والعرش وقد تبدلت زينته التي رآها حين نظر إليه آخر مرة . . . يرى الامبراطور وهو ينظر إليه كما ينظر الإله إلى واحد من البشر . ترى ،

من ذا الذي يسمع زئير الأسود الذهبية حول العرش ، وتغريد الأطيار ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يرفض أوامر الامبراطور ؟ وعلى هذا النحو يطويه الامبراطور تحت جناحه ، ويحارب من أجل المسيح الروماني وامبراطوريته ، وتغدق عليه الامتيازات والهبات والهدايا من أجل وعده بالدفاع عن الحدود ، وربما منح مركزاً رسمياً في الحكومة ، فيصبح نبيلاً أو قائداً في الجيش ، وربما حالفه الحظ فتكون مساعدته ذات قيمة كبيرة للامبراطورية ، فيوعد عندئذ بتزويجه من أميرة بيزنطية ، كما فعل هرقل مع زعيم الخزار ، فيعتنق المسيحية ، وسيقوم الامبراطور نفسه بدور الأشبين عند الحوض المقدس ، ومن ثم ينتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريرك القسطنطينية للاشراف على مصالح الروم في بلاده . وفي حالة قيام شعبه ضده وإسقاطهم له ، يسمح له بالإلتجاء إلى الامبراطورية ، ومن ثم يعاد بحراب الروم إلى مركزه ، وفي هذه الحالة لا يبقى عند رجال الدولة ريب في إخلاصه .

ومع أنه لم يكن للامبراطورية ممثلون دائمون لدى

الحكومات الأجنبية ، إلا أن بعثاتها كانت تتوالى ، فتحفظ تقاريرها في ديوان الرسائل الامبراطورية[1] .

٤ ـ الكنيسة الأرثوذكسية :

لم تكتب الحياة لطقوس رومة الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى اليوم بطبيعتها التي اكتسبتها أيام الأباطرة المسيحيين : فآراء هذه الكنيسة في اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهبنة والتقشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لا تزال تبقي على سلامته روح المحافظة التي لا تلين .

أصبحت القسطنطينية في عصر قسطنطين مدينة مسيحية ، إلا أنها ظلت فيما يختص بحق التشريع الكنسي تخضع لأسقف هرقلة ، ونجد أن التاريخ الداخلي للكنيسه بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ ، يكاد يكون سرداً لجهاد أسقف القسطنطينية في سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هرقلة من جهة ، وفي سبيل

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٧٣ ـ ٩٤) .

سيطرته على منافسه في الاسكندرية من جهة أخرى .
ولقد خرج بطريرك رومة لحديدة منتصراً ، وشاركه الامبراطور هذا النصر ، فقد رأس جستنيان الكنيسة كملك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها .

وكان إذا رغبت إحدى الأسقفيات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها ، نظر الناس فيما إذا كانت قد أسست على يد أحد الرسل ، وكان هذا المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض . أما الشرق ، فقد حاول أن يجد تسويغاً لهذا النظام ، وانتهى إلى النظرية القائلة : بأن اسبقية المدينة في الميدان الكنسي لا بد أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني . وسعت بيزنطة بعد ذلك إلى الانتصار على رومة . بحجة أخذتها من منطق روما نفسها ، فإذا كانت رومة تقول بأن القديس بطرس هو مؤسسها ، فقد اكتشفت رومة الجديدة أن باستطاعتها في اعتمادها على تزوير وقتي ، أن تدعي أن القديس ادريس (اندرياس) هو مؤسسها ، والقديس ادريس هو الذي أحضر بطرس

إلى المسيح لأول مرة . غير أن قساوسة لمجمع الديني العالمي الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة (٣٨١ م)، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً ، وحكموا لأسقفية العاصمة بإمكان الأول في الكنيسة الشرقية بعد السدة الرسولية في روما : « لأن القسطنطينية هي رومة الجديدة »، وبذلك تحررت مدينة الأباطرة من سيطرة هرقلة .

وقد نشأت خصومات داخل الكنيسة ، نتيجة لتصميم أساقفة الاسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم في مقاومة قوة القسطنطينية الكنسية الناشئة ، وقد انتصرت الاسكندرية ثلاث مرات على القسطنطينية[1] ، وأخيراً هزمت الاسكندرية في مجمع خلقيدونية سنة (٤٥١ م)، لأن البابا والامبراطور صمما على تحطيم كبرياء مصر ، لكن بطريرك الاسكندرية لم يذعن ، فخلع ونفي ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية والانحياز الكلي للكنيسة الشرقية .

---

(١) انظر التفصيل في كتاب الامبراطورية البيزنطية (٩٩ ـ ١٠٥).

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التي نقحها البابا ليو الكبير وأوردها في رسالته العقيدية المسماة : Tomos حيث قال « هناك طبيعتان يجب تمييز إحداهما عن الأخرى في المسيح حتى بعد تجسده وهما الإلهية والإنسانية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقياً بالرغم من وحدة الشخصية ». وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الاسكندريين تتجه دائماً إلى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى أنها لتهمل طبيعته البشرية ، وهكذا ابتلعت الناحية المقدسة الجانب البشري ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية إلى اعتقادها بطبيعة مقدسة واحدة . وهكذا وقفت الفئة التي أسست الكنيسة القائلة بطبيعة واحدة صفاً واحداً في مقاومة التعريف الذي انتهى إليه مجمع سنة (٤٥١ م) وفي نبذ عقيدة البابا ليو الكبير ، وعلى هذا فقد انتهى بالناس إلى الحرب لا إلى الصلح .

لقد وحد منشور (زينو Zeno's Henoticon) بين الكنائس الشرقية سنة (٤٨٢ م)، إلا أن ثمن ذلك كان الانشقاق عن رومة سنة (٤٨٤ م)، كما أسس يعقوب

البردعي (Jacobus Baradaeos) أسس الكنيسة اليعقوبية المستقلة في حكم جستنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لإيجاد اتحاد مع أصحاب العقيدة المقدسة الواحدة غير أن العقيدة القائلة بالقوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو إرادة واحدة في المسيح المتجسد لم يكن باستطاعتها الثبات طويلاً ، ولم تكف هذه المعضلة عن إزعاج سياسي الامبراطورية لبيزنطية ، إلا حين استولى المسلمون على سورية ومصر مؤئل الهراطقة ، واستطاعت الامبراطورية بعد ذلك أن تكون أرثوذكسية ، وهكذا استطاع جستنيان الثاني أن يعقد الصلح مع رومة .

وعندما أصبحت لبطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات في بلاد المسلمين ، بقي بطريرك القسطنطينية بلا منازع ، وأصبح تشريعه يسري على الامبراطورية ، إلا أن بطريرك العاصمة عاش في ظل القصر الامبراطوري . وكان إخفاق بابوات الغرب في نزاعهم مع كنيسة القسطنطينية ، قد علمهم كيف يحلون

المعضلة الدوناتية[1] ، ولم يعد امبراطور الدولة البيزنطية يستطيع بعد ذلك أن يترك لسلطات الكنسية حكومة الكنيسة غير المنظمة ، فقد أبان منشور الامبراطور الذي دعا به إلى عقد مجمع نيقية ووجهه لحلفائه ، الطريق بحيث لم يعد بمقدور أي بطريرك لروما الجديدة أن يقاوم الإرادة الامبراطورية ، وتوالت التشريعت في محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من الخفيدوية ، وانتصار فكرة توحيد الكنيسة ، ختاماً للنزاع الذي قام من أجل السيادة داخل الكنيسة الشرقية

وشهد القرن السادس الميلادي آخر هجوم شن على الوثنية الباقية في لامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة ، واستعمل قسطنطين لعنف في القضاء على الدوناتيين الافريقيين بحجة أنهم

(١) الدوناتية : فرقة نصرانية ظهرت في افريقية في العصر البيزنطي ، وهي منسوبة إلى أسقف يسمى : دوناتوس ، عرض أسقف قرطاجة ، والتف حوله طائفة من القساوسة ، وتكونت منهم فرقة دينية ، ظلت تناويء كنيسة قرطاجنة حتى أيام جستينيان

مهددون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة . وجعل بين السلطة وبين الاشتراك لوظائف الكنيسة ، ونفوا من القسطنطينية وحرم على الوثنيين حق الوراثة والتوريث ودخول وظائف البلاط والجيش ، وجرد الهراطقة أيضاً من حق دخول الجيش . وبالرغم من أن الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على غيرهم من المواطنين من أعباء ، فقد حرم عليهم التمتع بامتيازاتهم . وحرمت عليهم قوانين جستنيان الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت شهاداتهم القاسوية ضد الأرثوذكسيين غير مقبولة ، وأضحت وصاياهم لاغية ، وفقدوا ما يخولهم حق الوراثة ولو بوصية اختيارية ، وحق وراثة شخص توفي دون أن يوصي ، فاصبح المنشق عن الكنيسة منبوذ المجتمع . وكانت سياسة جستنيان فيما يختص بالمانويين (أتباع مذهب ماني) سيسة ابادة ، فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ، وإذاً يجب القضاء التام عى كل ما من شأنه أن يسبب العدوى .

ويمكن تلخيص آراء جستنيان في الحكومة بالعبارة

الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة .

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية ، وأدخل في القرن السادس الميلادي ألوف من الوثنيين في المسيحية قسراً دون أن يعتنقوها فعلاً . ونتج عن تلك التشريعات دخول كثير من غير المسيحيين في المسيحية ، بيد أن الغالب من هؤلاء المتنصرين الجدد كانت رهبتهم للإله المسيحي ناتجة عن خوف من الناس ، في حين ظلت قلوبهم في ودٍ آخر ، إذ ظلت على ولائها للعقيدة القديمة .

وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيسة ، وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة ، فأخذوا يجاهدون في سبيل الافلات من عالم لا يحتمل في نظرهم ، وامتلأت صحاري مصر بطالبي العزلة الذين يبغون الوصول إلى الله ، غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالاً فعلياً ، لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم ، وكانوا في غنى

عن حظيرة الكنيسة . وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيسة ، وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدولة . ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطانها في إدارتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها ، ولا مفر لأي لون من ألوان التدين من أن يؤيد قضيتها ، وإذا كان لا بد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة ، فإنها ـ أي الكنيسة ـ كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها إلى أغراضها ، فإذا لم يخضع الميل الجديد إلى التقشف لإدارتها ، أصبح من اللازم عليها تحطيمه ، وأصبح على الزاهد أن يتصل بأولئك الذين يشاركون الاعتقاد بمثله العليا ، إذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية .

ومهما يكن من أمر ، فإن مساكنهم التي اتخذوها لتنسكهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلقة فوق صخور الجبال ، هو الذي أيقظ الشعور بالإجلال والرهبة والحماسة العاطفية في نفوس عامة الشعب ، فهرع الحجاج من الشرق والغرب لإلقاء نظرة على لقديس

العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده ، حتى فقد القدرة على الوقوف ، واصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي يمسكه بعموده .

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أعراضها بشتى الوسائل ، فكان نجاحها في هذا المجال محدوداً .

وقد رأينا أن الحاج إلى الأماكن المقدسة كان يعود حاملاً معه تمثلاً أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه العادة من العوامل التي أعانت على تقوية عبادة الصور التي نشأ عنها نزاع اللاصورية الذي طال أمده .

وقد ضاعت كتابات اللاصوريين ، ونستطيع أن نتبين أسس مهاجمتهم لعبادة التماثيل مما كتبه خصومهم . فلم يكن محطمو الصور من أنصار المذهب العقلي ، بل كانوا مصلحين دينيين ، فكانوا ينظرون إلى شعور الناس بالتقديس نحو الصور والتماثيل نظرتهم إلى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الوثنية .

ولم يكن عباد الصور أقل إخلاصاً لمبدئهم ،

فالواقع أن كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء ، فشعر صناع الصور المجددون أن الخطر يتهدد مورد رزقهم ، لأنهم كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وظل بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكر منذ القرن الرابع الميلادي ، وأخذها الغرب فيما بعد ، ألا وهي أن الصور المقدسة إنجيل الجاهل ، فالصور ما هي إلا مذكر ، وهي للنظر بمثابة الكلمات للاذن ، مهمتها الافهام والتقريب .

وأخيراً ، انتصر عباد الصور ، وعاشت الصور المقدسة في الكنائس بخاصة والأماكن العامة أيضاً .

وبقي هناك موضوع الخصومة مع رومة ، فقد اتسعت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين ، حتى لقد انقطعت الصلة بين البلاطين الشرقي والغربي في أوائل القرن الخامس ، إلا أن يكون بعض ما كان يثور بينهما من نزاع في اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء ، فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاهوتي

مختلفة ، حيث أن نزعات فؤاد كنيسة الغرب كانت عملية تدور حول علاقة الإنسان بالله ، فكانت مسائلهم تختص بتخليص الإنسان أو تحريره من إرادته الإنسانية ، ومضوا تحت تأثير أوغسطين يشئون لعقيدتهم نظاماً خاصاً مقنناً . أما النزاع في الشرق فيدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الإله المتجسد . وكانت روما هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونه كل طائفة قليلة مغلوبة على أمرها في الكنيسة الشرقية ، وكان تدخل الغرب على ذلك في نظر الأكثرية تدخلاً تنظيمياً من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق ، فلم تكن كنيسة رومة على وفاق مع كنيسة القسطنطينية خلال نصف مدة القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والمجمع الديني العالمي السابع الذي عقد سنة (٧٨٧ م).

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله . فبينما كانت رومة الجديدة تقوم في وسط يتكلم اليونانية ، كانت ايطاليا في القرن الرابع الميلادي لا تعرف اليونانية ، بل تتكلم اللاتينية ، فكانت رسائل

البابوات للمجامع الدينية الشرقية تقرأ أولاً باللاتينية ثم تترجم إلى اليونانية لكي يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ، وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة .

إن الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم ، لأن كلاً منهما يجهل لغة الآخر .

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على استعداد لإطاعة ما تمليه رومة ، فانتهزوا شوق فرصة اكتسابهم محبة الشعب ، وهاجموا مزاعم البابوية . ولما كان البطريرك والبابا شخصيتين بارزتين في الوقت نفسه ، فقد نتج الانشقاق الديني عن ذلك . وكانت رومة كثيراً ما تلقن القسطنطينية درساً في موضوع الأرثوذكسية ، ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت أن تدافع عنها في وجه الغرب .

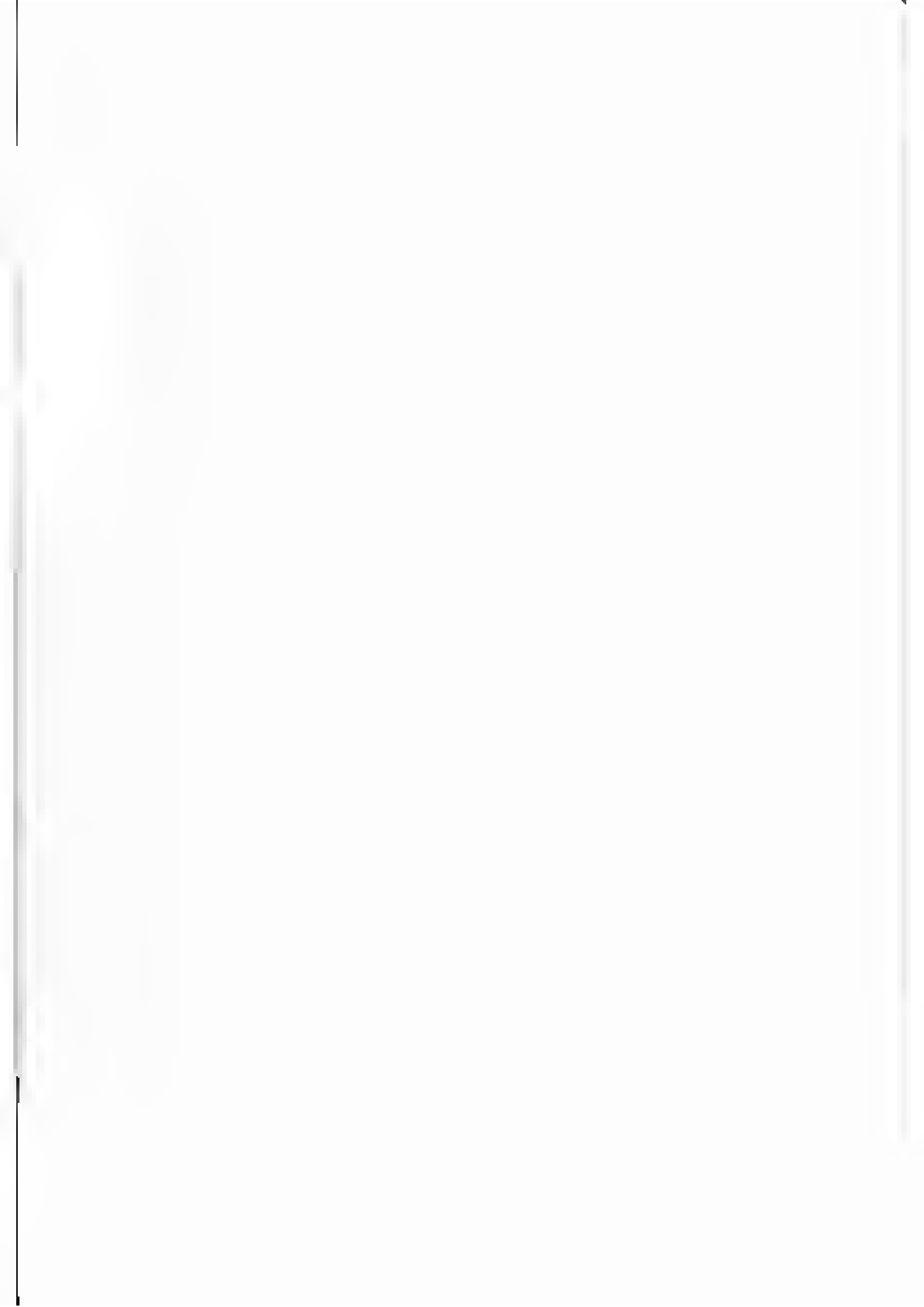
وقد حان الوقت لنتبين نواحي القوة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية .

إن تدينها ينفرنا حين نقرأ أدبها اليوم ، إذ أنها علقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء ، مدفوعة إلى ذلك

بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ، وفيض الدمع إنما هو تأثر نفسي خاص بصاحب الترتيل العاطفي بشكل رئيس . وأن الإنسان ليشعر أن فضيلة رجل الكنيسة البيزنطي ، إنما كانت صادرة عن الأمل بالجزاء في العالم الآخر . كما أن الكنيسة الشرقية أخذت تشك في القيم الإنسانية وتسعى لكبتها ، فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القديم خطراً واعتبرت تلميذ أفلاطون في عداد الهراطقة ، وكان يعد خائناً . وكانت الكنيسة اغريقية ، فرضت اللغة الاغريقية على اتباعها ، وهكذا قضى على لهجات آسيا الصغرى الوطنية . وقد أنقذت الكنيسة الامبراطورية البيزنطية ، ومالت في آخر الأمر إلى السعي للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدولة ، ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء كثيرة ، فكانت تبدي تسامحاً كبيراً فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقتين .

ولكن يجب أن نقرر أنها حددت للعالم المسيحي معاني العقيدة ، وإذا كانت كنيسة تابعة للدولة إلى حد بعيد ، فقد كانت مشبعة بروح تبشيرية ، ونجد أن جميع الفنون البيزنطية التي كتب لها البقاء ذات طابع كنسي .

وإذا كانت هذه الكنيسة قد خضعت للدولة ، فإن من رجالها من عانى التشريد والعذاب والتنكيل من أجل لعقيدة . وقد احتفظت الكنيسة في القرون المظلمة بجذوة الهيلينية حية تحت الرماد ، ولا تزال تلك الكنيسة على ولائها لأهدافها التي وضعتها منذ قرون خلت حتى ليوم .



بلاد الروم
قبل الفتح اسلامي وفي أيامه

(أ) القوات البرية :

أولا التنظيم :

تطور جيش الروم بالتدريج أسوة بالجيوش العالمية الأخرى . فقد كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها ، فإذا هدد القبيلة خطر عسكري ، اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام ، وبعد المعركة ينال كل فرد من أفراد القبيلة من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته ونفاذ شخصيته . ولما تحضر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول ، كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية .

وأول دولة نظمت الجند على أسس تنظيمية ثابتة

هي الدولة الفرعونية في مصر . فقد جندت جنداً من الزنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، أخضعت بهم سكان سواحل البحر الأحمر ، ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة : الأشورية ، والبابليه والفينيقية واليونانية والرومانية والفارسية . . . ألخ . . .

وكان نظام جيش الفرعنة هو نظام الصفوف المتعاقبة المتراصة ، والمشهور أن رمسيس الثاني هو منظم الجيش المصري على هذا النظام المعروف .

واقتبس اليونان نظام الجند المصري ونوّعوه ، فأنشأوا نظام الفرق ، حيث تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر ، فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك ، ثم جعلها إبنه الإسكندر أربعة أضعاف ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتماس أكتافهم وتترابط تروسهم ، ثم اصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً . وفي هذا النظام تكون رماح الصف الأمامي قصيرة ، ورماح الصف الذي وراء الصف

الأول أطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الأمام . وكان فيليب قد نظم فرقة من الفرسان ، فأضاف إليها إبنه الإسكندر آلات الحرب ومن جملتها المنجنيق ، وبهذا التنظيم تغلب الإسكندر على كثير من الجيوش في كثير من المعارك قبل الميلاد بأربعة قرون .

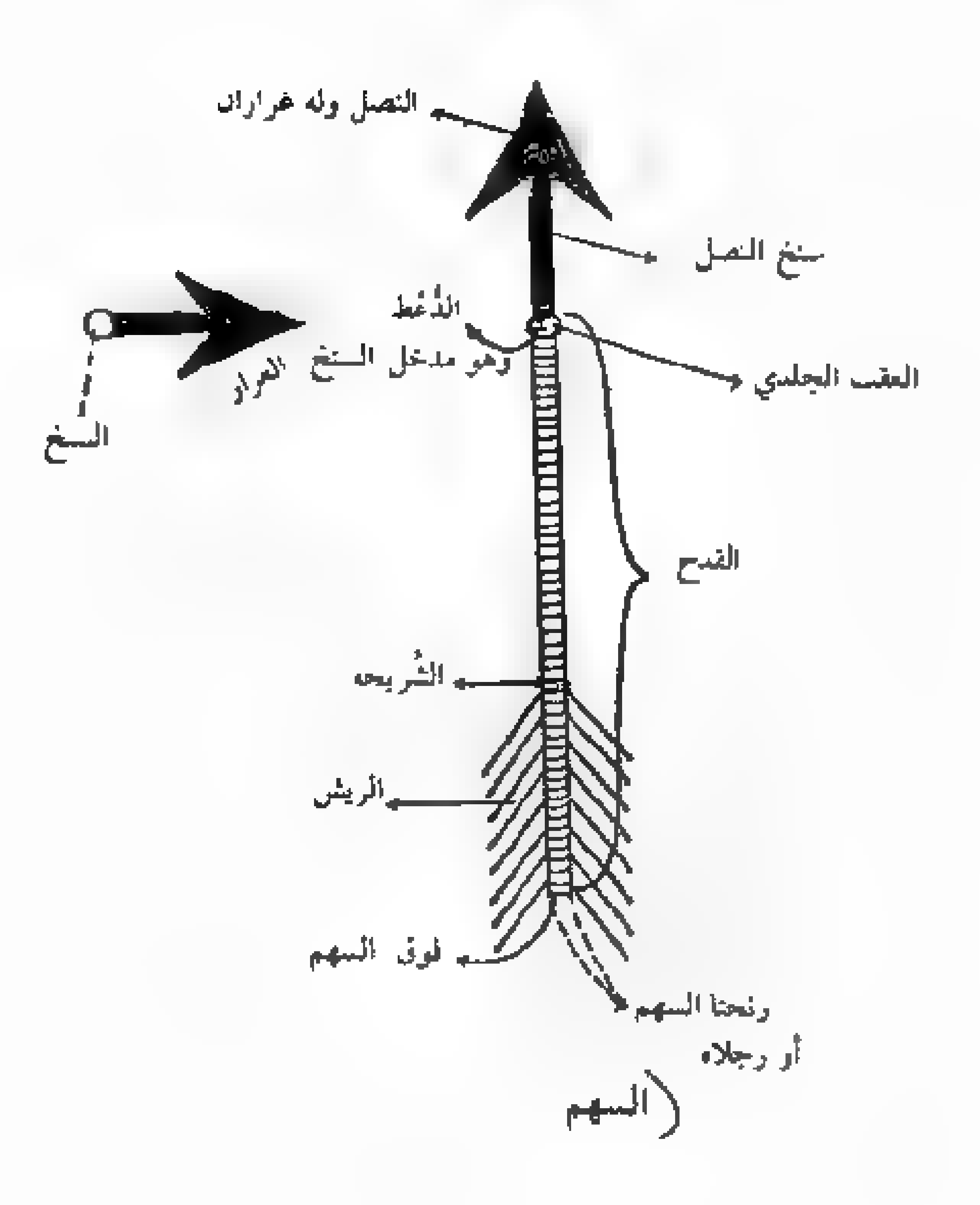
فلما نشأت دولة الروم ، اقتبست نظام الفرق من اليونان ، وأدخلته في تنظيم جيشها البري .

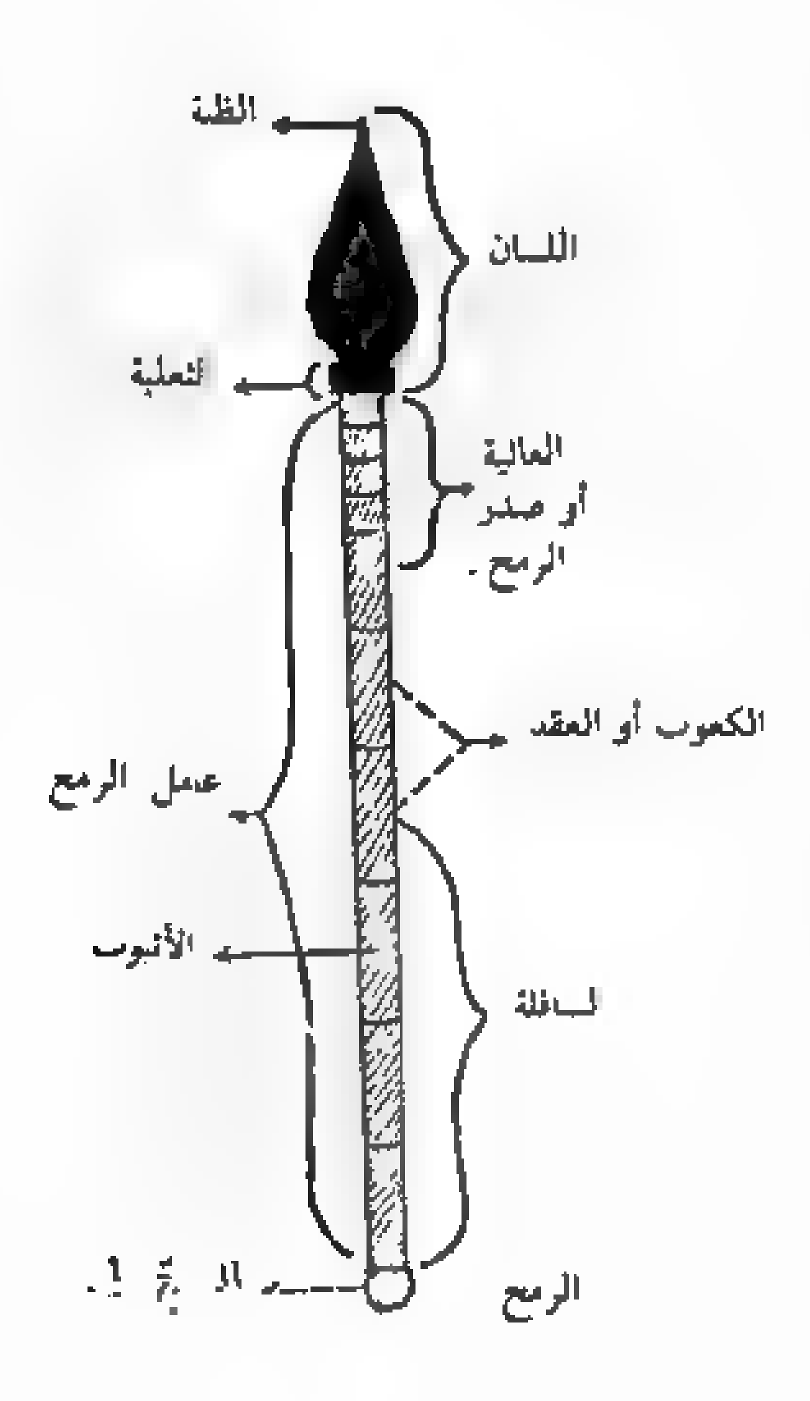
كان الجيش البيزنطي منظماً في فرق ، تعداد كل فرقة عشرة آلاف جندي[1] ، تتألف الفرقة من ثلاث طبقات من المقاتلين : الشباب ومنهم يتألف الصف الأول في الحرب ، والكهول في الصف الثاني ، وأهل الدربة والحنكة في الصف الثالث والصفوف المتعاقبة الأخرى ، وكان يلحق بكل فرقة من المشاة كتيبة من الفرسان تتسلح بالسهام والمقاليع والمزاريق[2] لمشاغلة

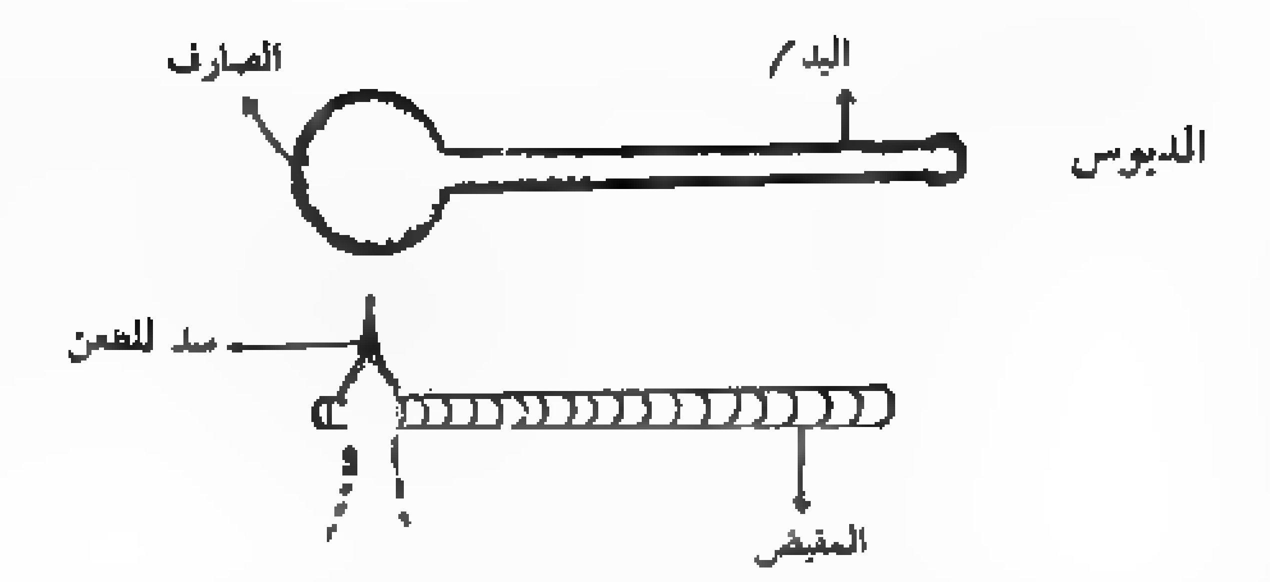
(١) في رواية ، أن تعداد الفرقة ستة آلاف جندي ، ويبدو أن التنظيم مرن ، فهو بين العشرة آلاف والستة آلاف

(٢) المزاريق : جمع مزراق . المزراق : الرمح القصير

السَّهم والرُّمح




الظبة
اللسان
الثعلبة
العالية أو صدر الرمح .
الكعوب أو العقد
عامل الرمح
الأنبوب
السافلة
الرمح



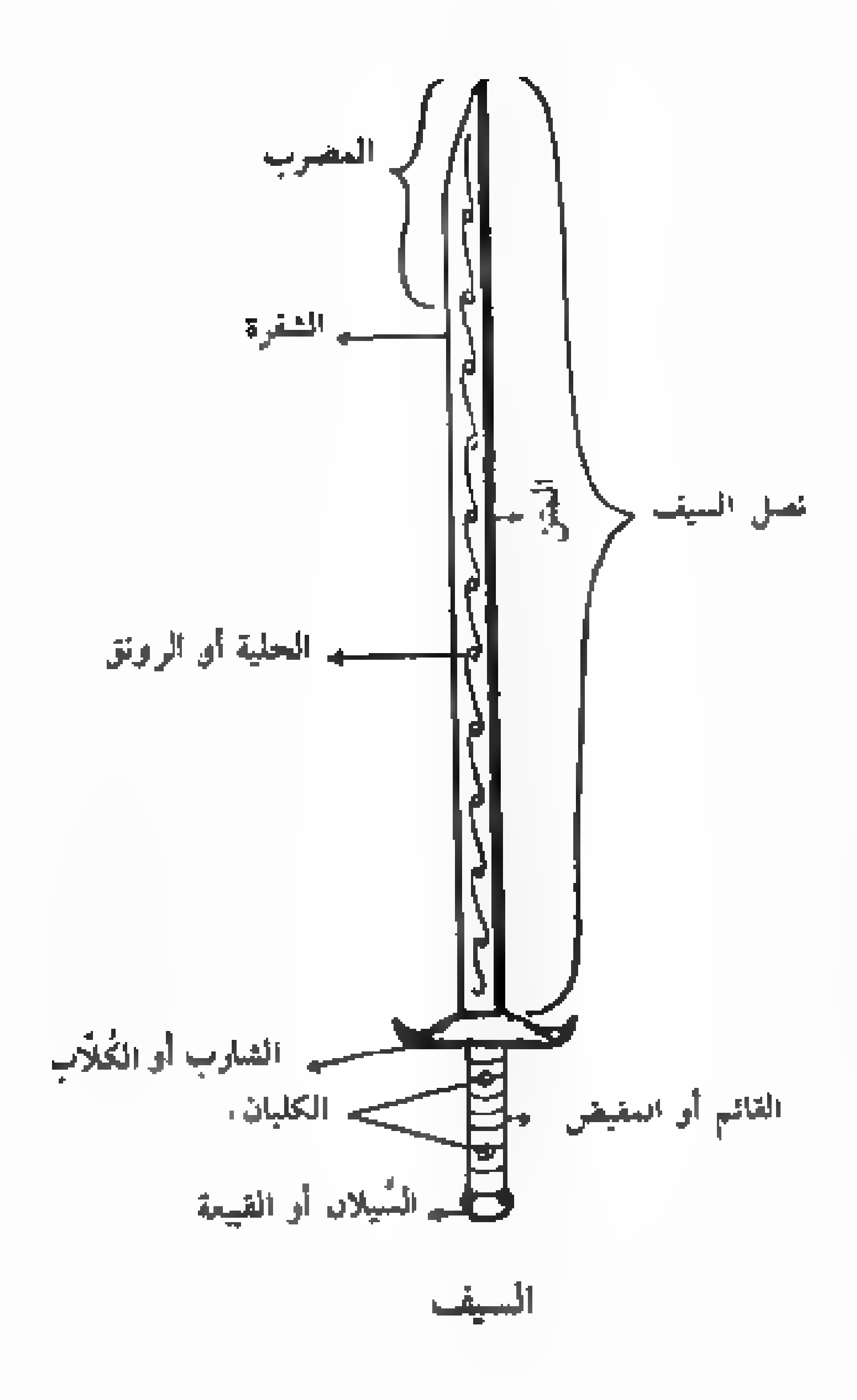
لأعداء في حرب المشاة ، ولإجراء الإستطلاع قبل الإصطدام بالقوات المعادية ، ولحماية المشاة قبل الإصطدام بالعدو وأثناءه ، وللقيام بالمطاردة السريعة بعد هزيمة الأعداء .

وكانت كل فرقة من فرق المشاة تضم عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق[1] ، وقد قسم الروم الفرقة إلى قسمين : كل قسم مؤلف من خمسة آلاف رجل بقيادة (طومرخان[2] Turmarch) ، وهو ما يشابه تنظيم اللواء

---

(١) البطريق : من أشراف الروم يحمل رتبة عسكرية هي رتبة قائد فرقة ، ويشابه في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء

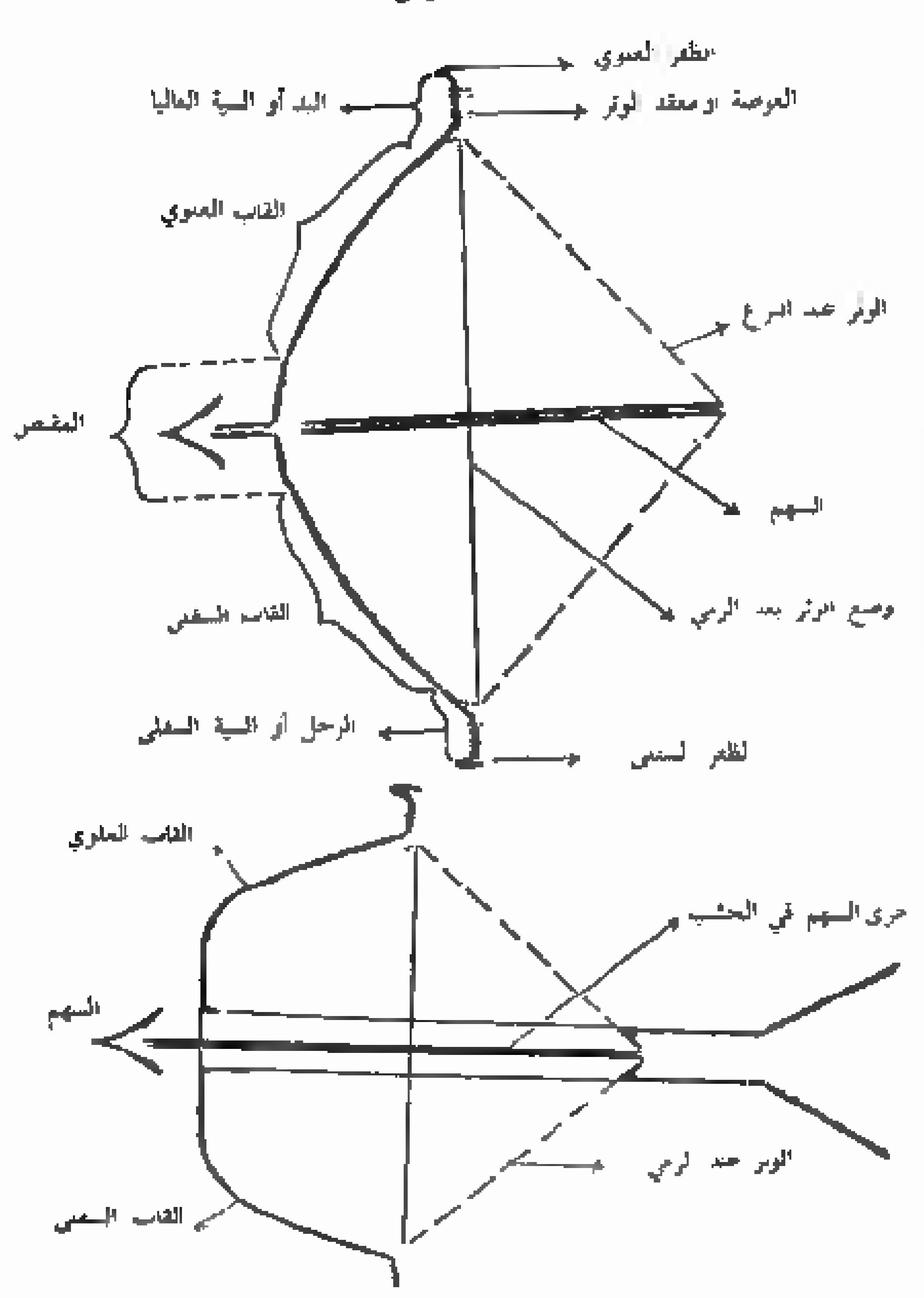
(٢) طومرخان : قائد لواء يحمل رتبة عسكرية ، تشبه رتبة قائد لواء في الوقت الحاضر برتبة عميد أو عقيد .



السيف

في العصر الحديث ، أي أن كل فرقة بيزنطية مؤلفة من لواءين ، تعداد كل لواء خمسة آلاف مقاتل .

القوس


الظفر العلوي
اليد أو السية العاليا
الفرضة أو معقد الوتر
القاب العلوي
الوتر عند النزع
المقبض
السهم
وضع الوتر بعد الرمي
القاب السفلي
الرجل أو السية السفلى
الظفر السفلي
القاب العلوي
مجرى السهم في الخشب
السهم
الوتر عند الرمي
القاب السفلي

وقسموا كل لواء إلى خمسة كراديس[1] ، تعداد كل كردوس ألف رجل ، بقيادة قائد اللواء (طرنجارية[2] Drungairs) .

وقسموا كل كردوس إلى خمس سرايا ، كل سرية مؤلفة من أربعين رجل[3] ، بقيادة (قومس)[4] .

وقسموا كل سرية إلى خمس فصائل ، كل فصيلة مؤلفة من أربعين رجلاً[5] بقيادة (قمرطخ)[6] .

وقسموا كل فصيلة إلى أربع حضائر ، كل حضيرة

---

(١) الكراديس : جمع كردوس ، وهي كلمة يونانية معربة استعملها العرب ، ومعناها : ألف جندي . والكردوس يشابه تنظيم الوحدة أو الفوج في المشاة والكتيبة في الخيالة بالنسبة للتنظيم الحديث

(٢) طرنجارية : يشابه قائد وحدة ، فوج أو كتيبة في التنظيم الحديث ، الذي يكون برتبة مقدم

(٣) يشابه تنظيم السرية في الوقت الحاضر .

(٤) قومس : يشابه قائد سرية في الوقت الحاضر الذي يكون برتبة نقيب أو رائد .

(٥) يشابه تنظيم الفصيلة في الوقت الحاضر التي تكون بقيادة ملازم .

(٦) قمرطخ : رتبة عسكرية لقائد الفصيلة ، تشبه رتبة ملازم في الجيوش الحديثة .

مؤلفة من عشرة جنود بقيادة (الدمرداغ) وهو ضابط صف (أنظر المخططات المرفقة) .

هذا هو مجمل تنظيم جيش الروم البري حين ظهر الإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي على عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية ، لذلك قسم خالد بن الوليد رضي الله عنه جيشه إلى كراديس في معركة اليرموك الحاسمة سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤ م) ، وهي تعبية لم تُعبِّها العرب من قبل[1] ، وقسم الكردوس إلى عشرة أقسام ، على كل قسم (نقيب) ، وقسم كل قسم من تلك الأقسام إلى عشرة أقسام فرعية ، على كل قسم منه (عريف) .

ولو لم يطور المسلمون تنظيم جيشهم في معركة اليرموك ، لكان من المشكوك فيه أن ينتصروا ، لأن الروم كانوا متفوقين عليهم فوقاً ساحقاً .

---

(١) الطبري (٣/٣٩٦) وابن الأثير (٢/٤١١) .

ثانياً ـ التسليح :

كان الفرسان والمشاة في جيش الروم ، يقسمون إلى فرق خفيفة السلاح ، وفرق ثقيلة السلاح .

وكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس الخوذة الفولاذية ودرعاً من الزرد يكسوه من رقبته إلى فخذيه وقفازاً من الحديد وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه صيفاً وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها شتاء . وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجراً ورمحاً وقوساً للرماية وجَعْبة[1] للسِّهام .

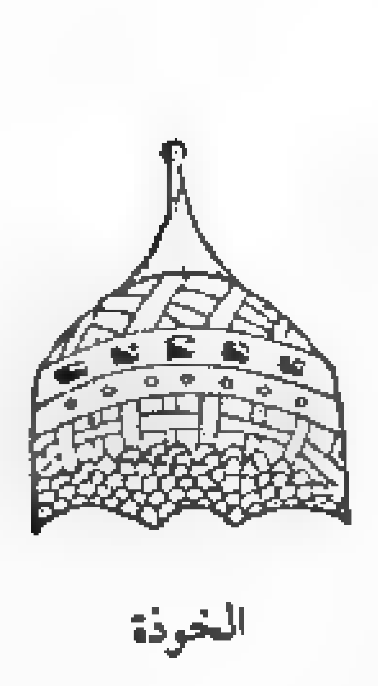
وإذا كان الفارس ممن يقفون في الصفوف الأمامية ويقوم بالهجوم ، وضعت دروع فولاذيه على صدر حصانه وعصابات فولاذية على جبهته .

وكان الفارس ذو الأسلحة عادة من الرماة ، ويرتدي سترة من الزرد .

أما الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الثقيلة ،

---

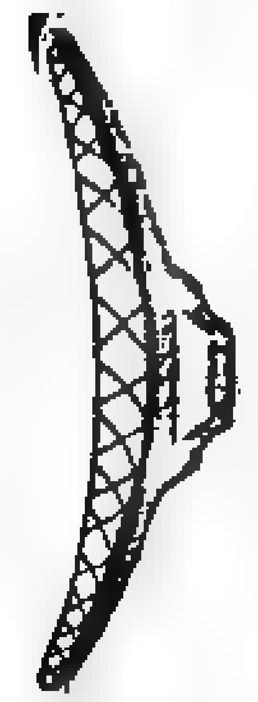
(1) الجعبة : وعاء السهام والنبال .



الخوذة

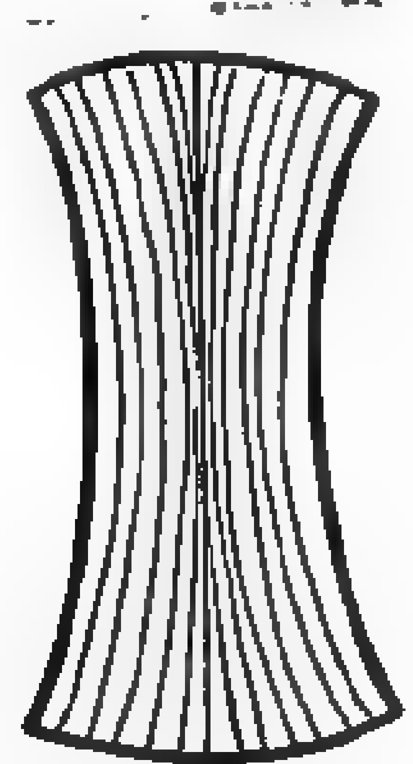


الدرع حلقات منسوجة ـ الدرع البتراء





الترس المقبب



الترس المستطيل

فيرتدون دروعاً من الزرد تغطي أنصاف أجسادهم العليا وخوذاً فولادية . وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأساً لها نصل قاطع من ناحية أخرى .

وكان الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة ، من الرماة بالقوس ، أو من الذين يطعنون بالحراب ، ويلبسون قمصاناً طويلة من الزرد تصل إلى الركب أو دروعاً خفيفة في بعض الأحيان ، ويحملون جعباً للسّهام فيها أربعون سهماً ، ويحملون قؤوساً في أحزمتهم ، وكانوا يعلقون على ظهورهم تروساً صغيرة مستديرة .

وكان للروم آلات ثقيلة كالبرج والعرّادة[1] والدبابة والكبش ، تُحمل بجانب متاع الجيش على الحيوانات أو العجلات .

ويغلب أن كلمة : (برج) مشتقة من اليونانية ، وقد وضعت لبرج متحرك شُيِّد من الخشب ومغطى بالجلد والحديد ، وكان يُستعمل للإقتراب من الحصون

---

(٢) العرادة . آلة من آلات الحرب القديمة ، وهي منجنيق صغير .

والمدن المنيعه لاقتحامها وبهدف السهام أو الأحجار أو أية مقذوفات أخرى . وفي معظم الأحيان يُجر البرج على العجلات الخشبية أو الحديدية أو يدفع على إسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار فوق بعضها يوصل إليها بدرجات من الداخل ، وينتهي البرج بقطرة خشبية يمكن إلقاؤها على الحصن أو السور ليرقى عليها الجنود في هجومهم على العدو .

والعرادة آلة أصغر من المنجنيق ، تُلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة ، وقد عرفها الفرس وعرفها كثير من الأقوام الأخرى أيضاً .

والدبابة آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال ، فيدبّون بها الأسوار لينقبوها ، وهي برج متحرك له أحياناً أربعة أدوار : أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر . وتصعد إلى طبقات الدبابة الجنود لثقب الحصون وتسلق الأسور ، وكانت الدبابات تسق المشاة حتى تقترب إلى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو

النبالة . وكان القادة يخصصون عدداً من الجنود للسير خلف الدبابة ، حتى يسوّوا طريقها ويزيلوا الموانع التي يضعها العدو في طريقها .

والضُّبـر[1] ، وجمعه : ضبور ، مثل رؤوس الأسفاط ، يتقى بها في الحرب ، وهي جلد يغشى خشباً ، يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الإنسحاب ، ويحتمون به في تقدمهم إلى الحصن لدق جدرانها أو نقبها .

والعيار[2] قطعة من الجلد أو القماش قوية قليلة العرض مطوية ، تمسك من طرفيها ، ويوضع الحجر او الحصاة أو قطع الحديد أو الرصاص المصوب نحو الهدف في وسطها .

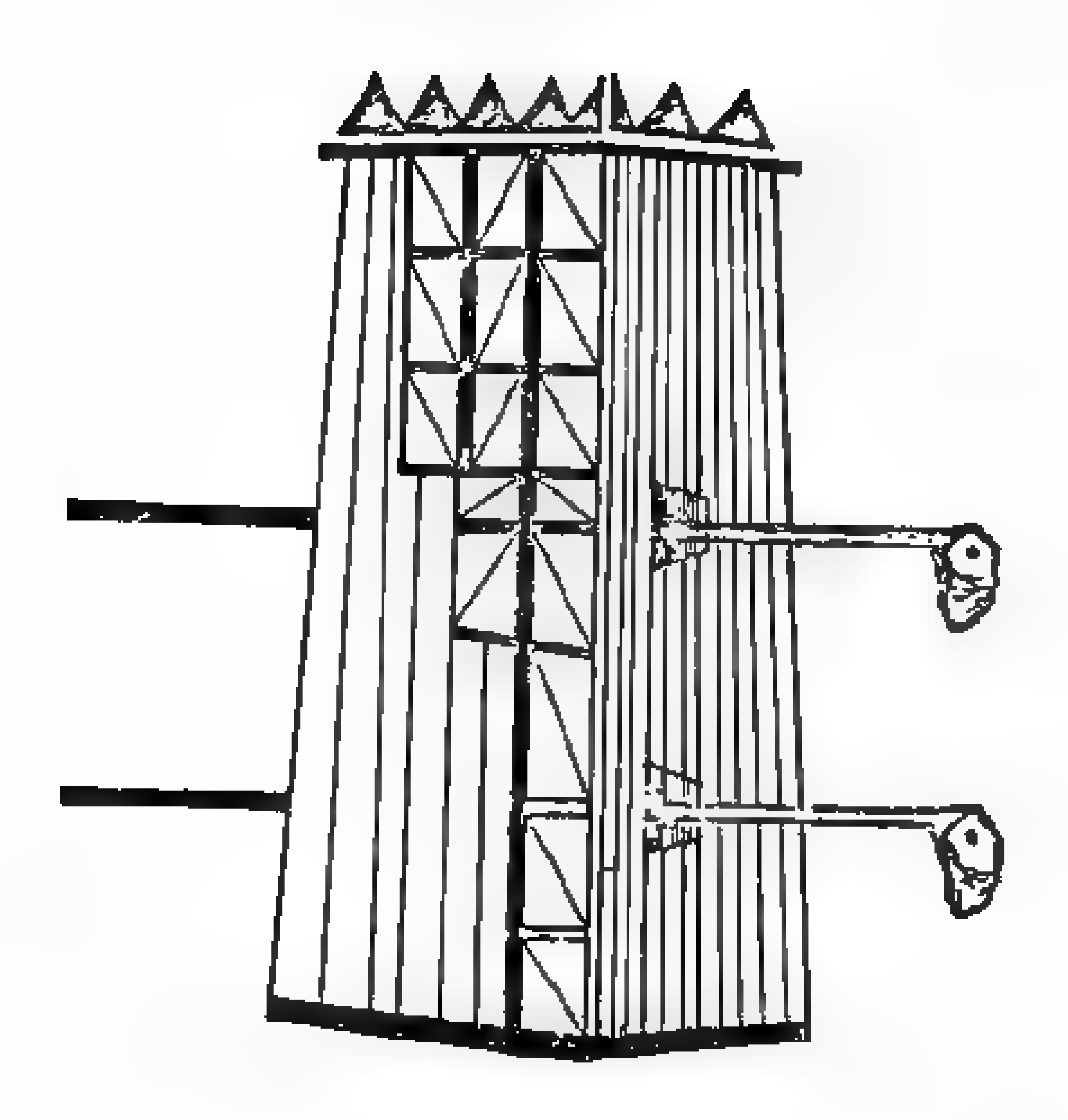
والمقلاع[3] مكون من كفة توضع فيها القذيفة

---

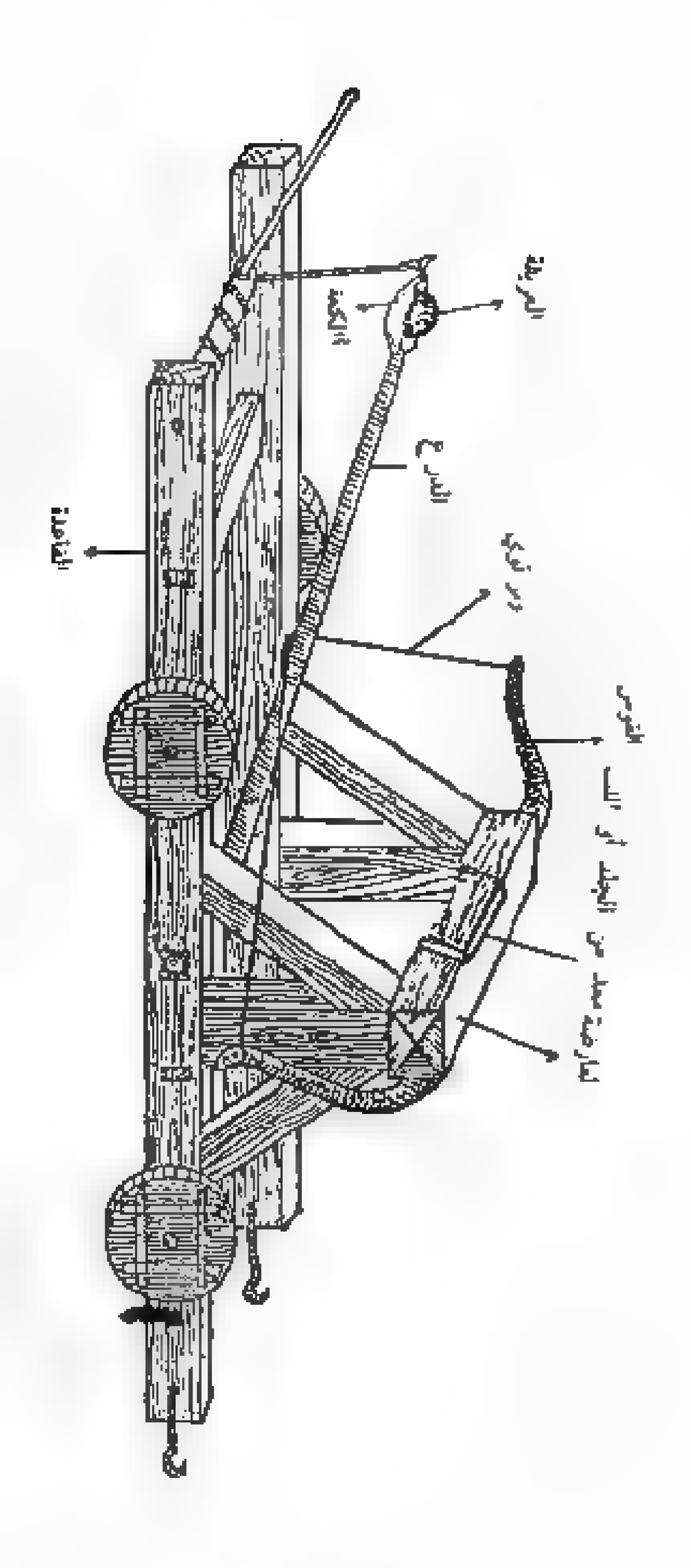
(١) الضبر : الدبابة كانت تتخذ من الخشب يغشى بالجلد ، يحتمي به الرجال ويتقدمون إلى الحصون لدك جدرانها ونقبها .

(٢) العيار : مأخوذة منها كلمة : العيار الناري ، وهي قذيفة تطلق من المسدس ونحوه .

(٣) المقلاع : ما يرمى به الحجر .



الكبش



القوس
لعارضة معد من الجلد أو اللب
وتر قوي
الدرج
الكفة
القاعدة

مربوطة بثلاثة حبال أو سيور متينة ، تمسك من أطرافها ، وبعد تدويرها مراراً باليد يفلت طرف واحد من الحبال أو السيور المذكورة ، فيقذف ما في الكفة إلى بعد شاسع بقوة واندفاع .

والكبش[1] آلة من حديد وخشب ، تجر بنوع من الحبال ، فتدق الحائط فينهدم . وأصل الكبش دبابة ولكن له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش ، يتصل داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال ، تجري على بكرة معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصّنون داخل الكبش مع آخرين استتروا بدروعه ووقفوا خلفه ، على ضرب السور حتى يخرقوه .

والمنجنيق آلة قديمة من آلات الحصار ، كانت ترمي بها حجارة ثقيلة أو حديد أو نار على الأسوار فتهدمها أو تحرقها .

ومن المجانيق أنواع لرمي السهام التي توضع في

---

(١) الكبش : آلة من آلات الحرب ، كانت تستعمل في الحصار ، لقذف الحصون .

المنجنيق ، وترمى عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وقوة خارقة . وأخرى لرمي الحجرة حتى تهدم الحصون ، وثالثة لرمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النيران الإغريقية .

والنفّطة أداة يرمى بها النفط ، لإحراق ما يمكن إحراقه من خيام العدو ومعسكراته وأبنيته وحصونه وملاحقه .

ثالثاً . الأسلحة[1] :

المشاة . وهم الذين يسيرون على أقدامهم ، ويكون أكثر الجيش السوي مؤلفاً من سلاح المشاة ، وقديماً قالوا : « المشاة سيد الأسلحة » .

والفرسان أو الخيالة ، هم الذين يمتطون الخيول ويتدربون على الفروسية ، والقتال على الخيول كراً وفراً ، ويتعلمون حماية المشاة في مسير الإقتراب ، والهجوم بالخيل ، والإستطلاع قبل القتال وفي أثناء

---

(١) أسلحة الجيش : المصطلح العسكري الذي يراد به صنوف الجيش

وبعده ، وحماية المشاة في الإنسحاب ، ولتعقبهم بالمطاردة . ويعتمد هذا السلاح على سرعة الحركة ، وعلى المباغتة ، وعلى التأثير المعنوي على العدو

والمهندسون ، وهم فنيون الذين يشرفون على آلات الحصار، ويرافقون الجيش لتمهيد الطرق واستطلاع المعبر وإقامة القناطر والجسور ، وإنشاء الإستحكامات ، وتدمير حصون واستحكامات الأعداء .

والنفّاطة ، وهم الذين يقذفون النفط على العدو ، ويعدون وسائله للقذف ، وللنفاط ثوب خاص يرتديه كي لا يصاب بأذى من النفط

والسيّافة ، وهم المدربون على استعمال السيوف راكباً وراجلاً في قتال العدو . والماهرون منهم في استعمال السيف ، هم الذين يبادرون بالخروج إلى المبارزة . .

والرمّاحة ، وهم المسلحون بالرماح ، الذين يتقنون استخدامها في القتال .

والنشّابة ، وهم المدربون على رمي السهام .

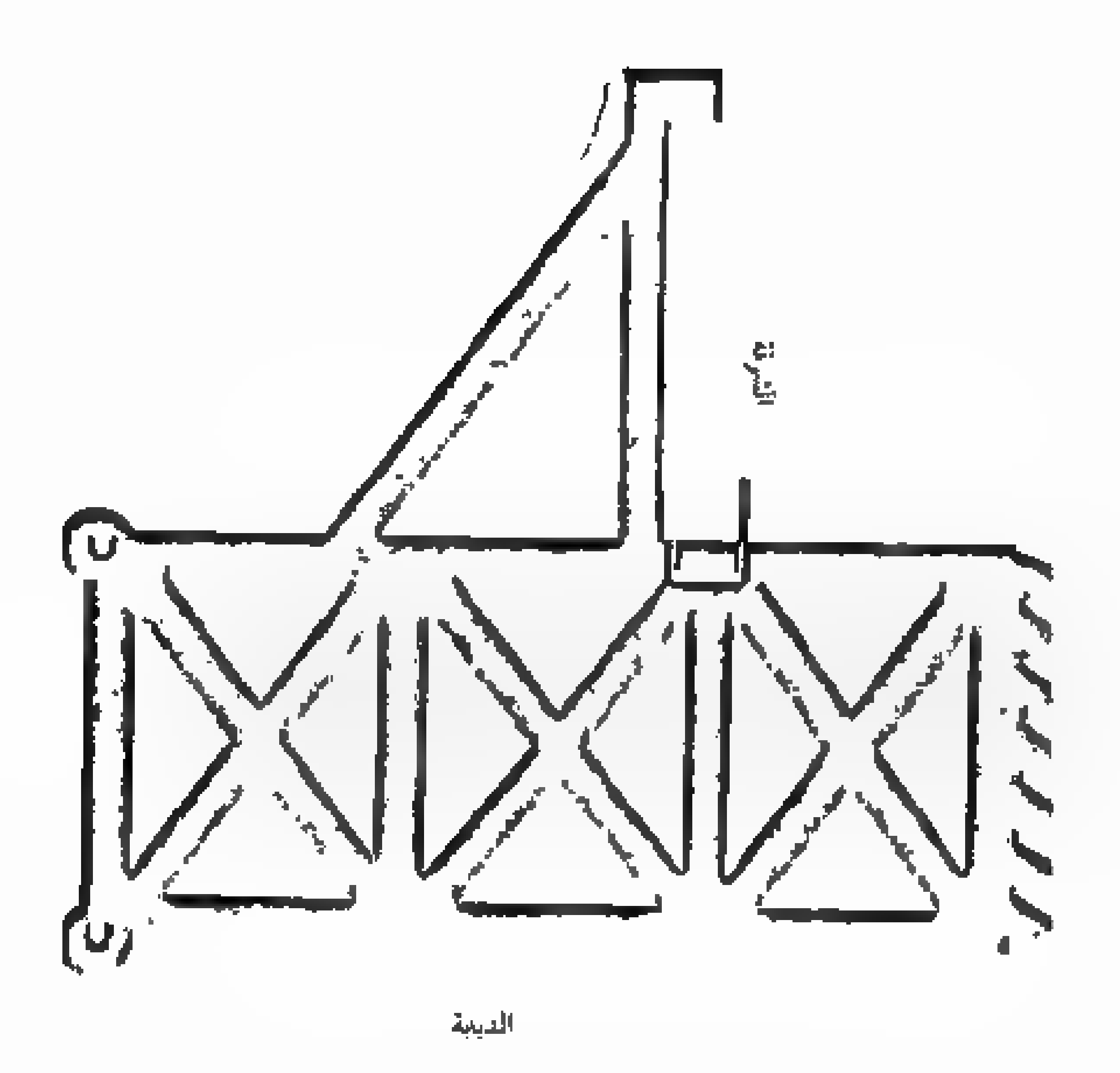
والماهرون في إصابه أهدافهم إصبابت دقيقه هم الرماة ، وستعان بهم في الرصد وقتل قادة العدو ورحالاته ، وفي إصابة حراس الأسوار والحصون ، ولهم ميرة حاصة وحظوة دون سائر أقرانهم عند قادتهم .

والمنجنيقيون ، وهم المدربون على تشغيل المنجنيق واستخدامه ، وتشغيل أشباهه واستحدامه في ميادبن القتال .

وسلاح الإشارة ، وهم الذين يؤمون الإتصال بين القائد وقواته داخلياً ، وبين تلك القوات ومقراتها العليا خارجياً .

وسلاح النقل ، وهم الذين يقلون السلاح والذخيرة والتموين ومواد العينة والقضايا الأحرى من قواعد الجيش إلى ساحات القتال ، وينقلونها من ساحات القتل إلى قواعدها ، ويحلون الخسائر من الخطوط الأمامية إلى المستشفيات .

والأطباء ، وهم المسؤولون عن معالجة المرضى



الدبابة

والجرحى من أفرد الجيش ، ويشرفون على إخلائهم إلى الخلف .

والممرّضون ، وهم الذين يعاونون الأطباء في حمل رسالتهم الطبية ، وينوبون عنهم في معالجة

المرضى والجرحى عند غيابهم أو عدم تيسرهم .

والبياطرة ، وهم مسؤولون عن غرس العقيدة وشحذها والتحريض على القتال ورفع المعنويات بين المحاربين من رجالهم .

وسلاح الميرة والتموين ، وهم مسؤولون عن التموين للمقاتلين وحيوانات نقلهم ، وتزويدهم بما يطعمون ويشربون .

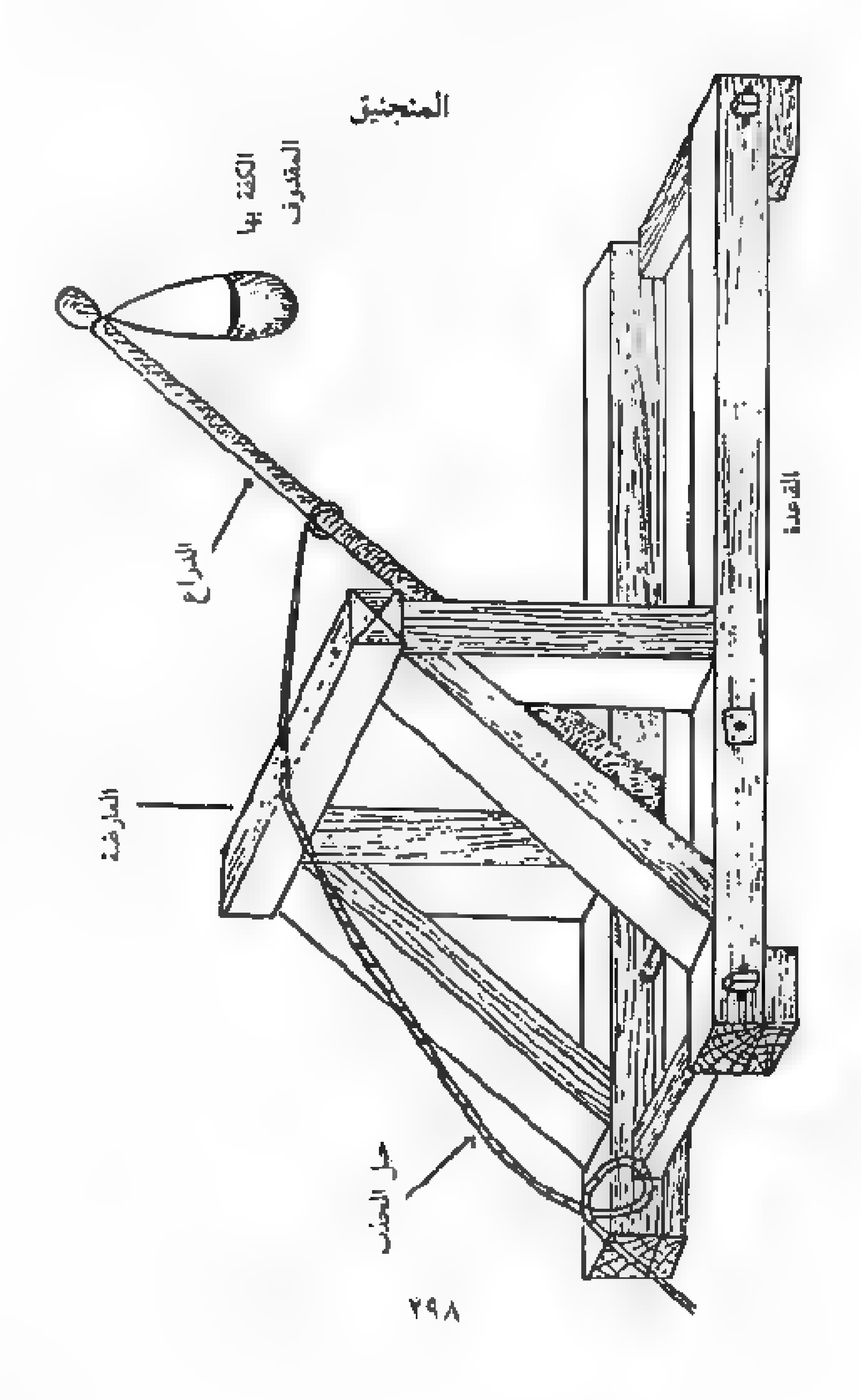
وسلاح العينة ، وهم المسؤولون عن السلاح والذخيرة والتجهيزات والمواد الأخرى .

رابعاً . التعبئة :

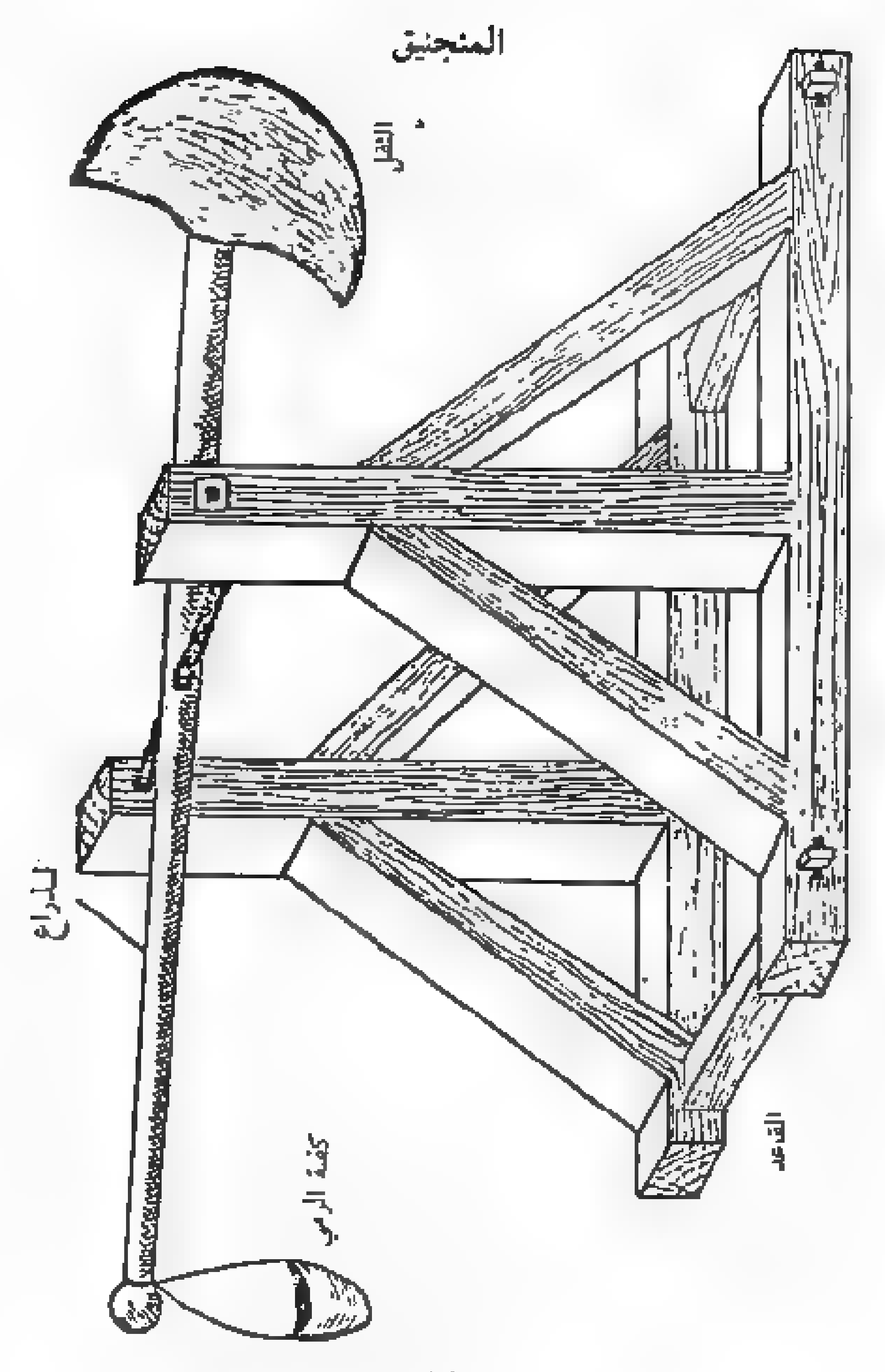
كان الروم يعتمدون الحذر والحيطة في قتالهم ، وقلما يبادرون إلى اتخاذ الأساليب الخطرة في الحرب وممارسة المجازفة في القتال .

وكن شعارهم الحربي أقصى المكسب ، بأقل الخسائر

المنجنيق



المنجنيق



وكان على القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المشاركة في أي اشتباك حربي ، فالهرب المصطنع ، والمباغتة ، والهجوم الليلي ، والكمائن ، والتظاهر بحضور المدد الكبير ، وإبراز أعداد مبالغ بها في حماية الأسوار عند محاصرة المدن والحصون ، والمفاوضات الطويلة لكسب الوقت ، كل هذه الأساليب وأشباهها وسائل مقبولة في الجيش البيزنطي ، ويجري التدريب عليها نظرياً وعملياً وممارستها .

وكان الجندي الذي يعتمد على القوة حيث يغني الدهاء في كسب النصر ، يعتبر أبله وجندياً لا كفاية له ، ولا بأس بإرسال خطابات مريبة لقادة العدو ، لبذر الشقاق بينهم وبين قادتهم ، كما أنه لا بأس بأخبار الجند بانتصارات وهمية لرفع معنوياتهم

وكانت قوة الروم في أجهزة مخابراتهم ، فقد جعلوا شغلهم الشاغل درسة سبل عدوهم في الحرب ، ومواجهتها بأفضل الطرق واستحصال أدق تفاصيل المعلومات عن عدوهم

وكان للروم مقدرة عالية في الحصار ، ولهم قواعد خاصة تختلف تبعاً لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة به ، وكانت هذه القواعد تطبق ، ولكنها لم تكن جامدة ، بل تتسم بالمرونة .

وكانت قوة جيش الروم في خيالته الثقيلة ، وكان نظامه العسكري محكماً ، وخدماته الإدارية جيدة وذات كفاية .

وكانت له فرق طبية خاصة ، وكان الفرسان التابعون للخدمات الطبية ، يحملون الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش في المؤخرة

كما أن سلاح هندسة الروم متمرس على إزالة العقبات الطبيعية ، له خبرة جيدة بإزالتها . قادر على إقامة المعابر والقناطر والجسور ، وترميم الأسوار والحصون وإدامتها إذا أصابها العطب .

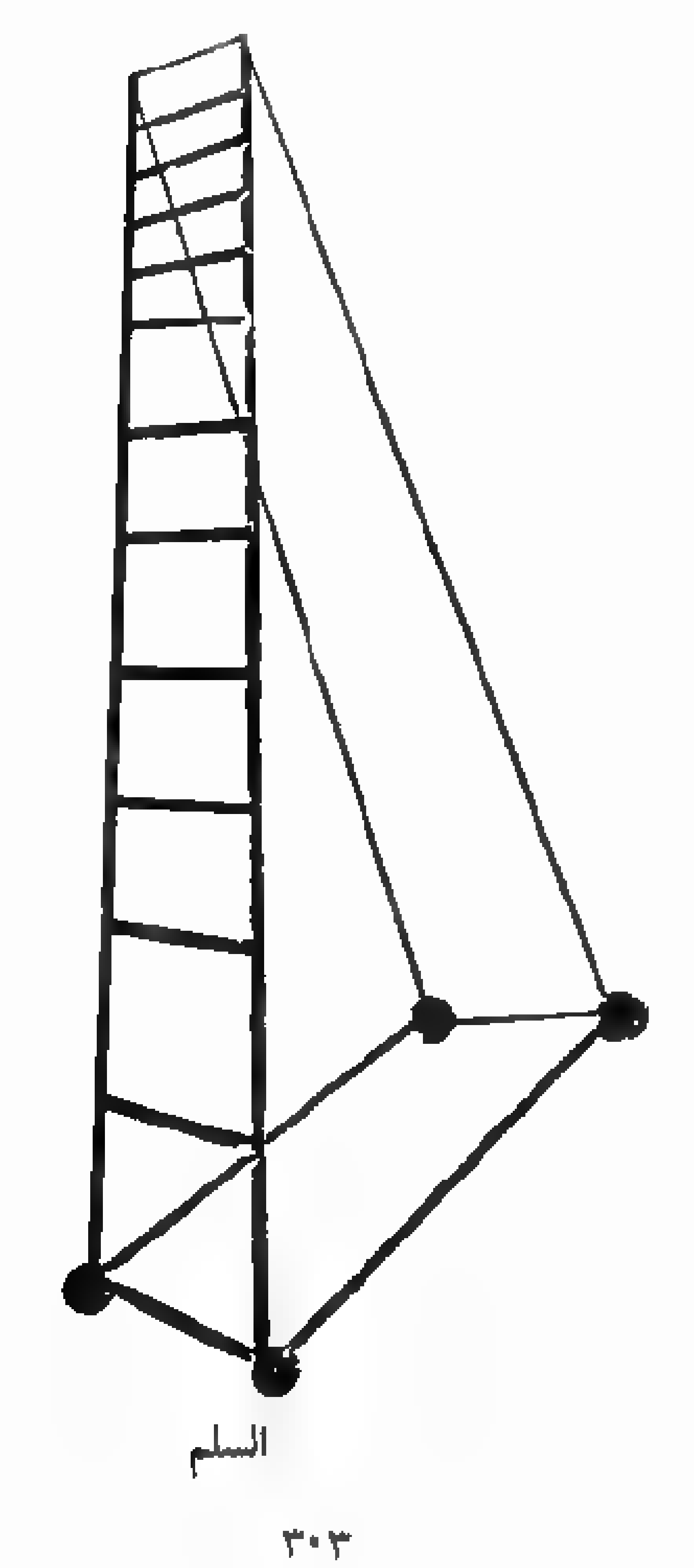
وكانت له أساليب معلومه في اختيار المعسكرات وحمايتها ، وتعاليم خاصة في مسير الإقتراب وفي الدفاع والهجوم والإنسحاب والمطاردة ، وفي زرع الكمائن

والربديا في الحروب الجبلية .

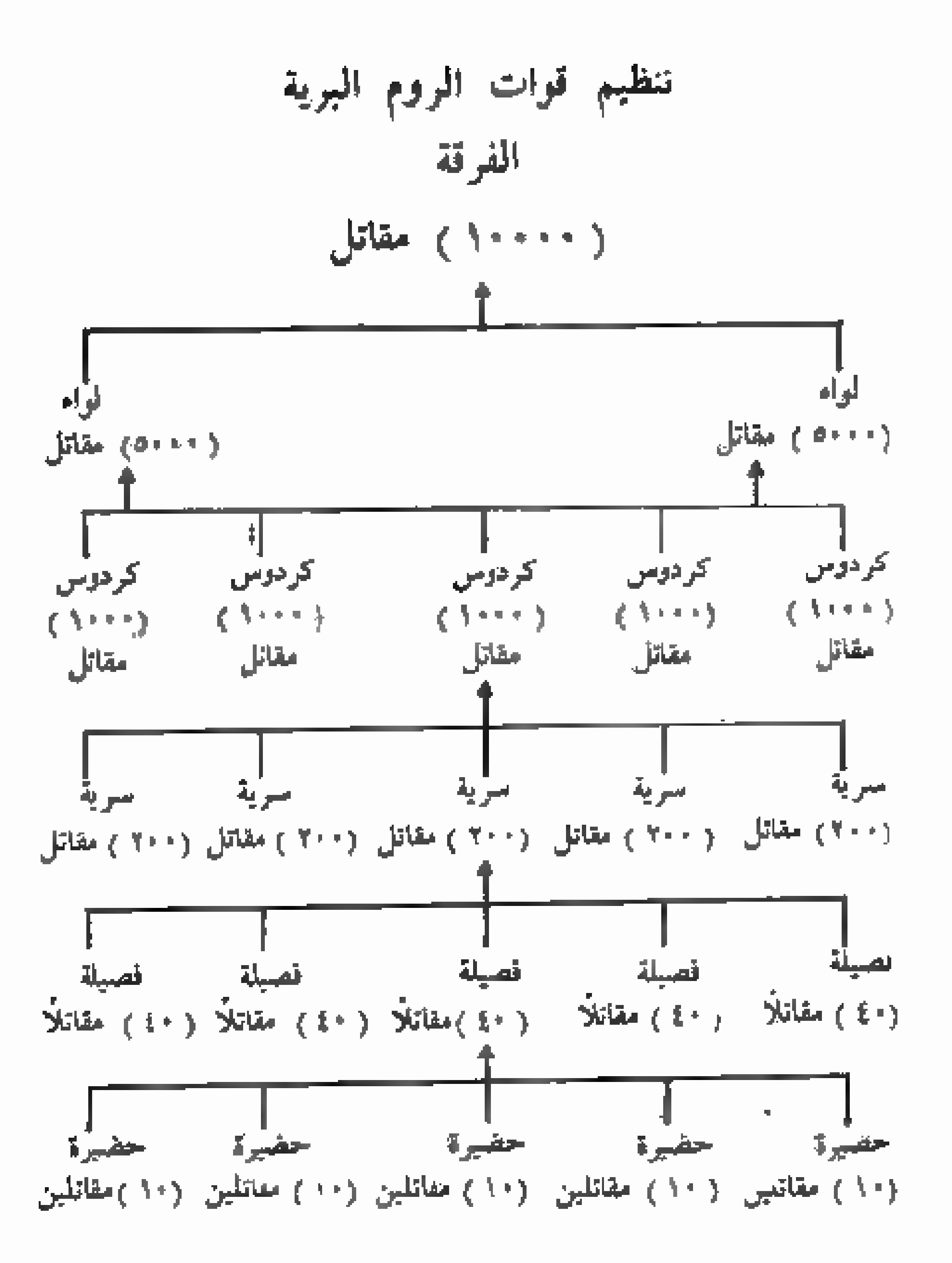
وكان يهتم كثيراً بتطبيق مبدأ : (الأمن) لقواته المحاربة ، كما يهتم بمبدأ : (حشد القوى) و (رفع المعنويات) و (تأمين القضايا الإدارية) .

وكان للروم مؤلفات فنية عسكرية ، يتعلمون ما جاء فيها ، ويتدربون تدريباً عسكرياً على العمل بموجب مبادئها وتفاصيلها ، ويطبقون محتوياتها بحرص وكفاية .

لقد كانت للروم فنون تعبوية معروفة من الناحيتين النظرية والعملية ، وكان مجموع الجيوش البرية النظامية في القرن التاسع الميلادي مائة وعشرين ألفاً ، ويقدر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفاً . وكان سكان الولايات الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش العاملة فيها ، ومعلوماتنا عن الجيوش المحلية في الولايات قليلة لا تكفي لإعطاء صورة وافية عن تعدادها وتنظيمها ، ولكن الجيوش المحلية كانت أقل تدريباً وكفاية من الجيوش النظامية ، وكان نظام منح الأرض نظير الخدمة العسكرية الذي طبق في القرن الميلادي على حرس الحدود ، قد



السلم



تنظيم قوات الروم البرية
الفرقة
(١٠٠٠٠) مقاتل
لواء
(٥٠٠٠) مقاتل
لواء
(٥٠٠٠) مقاتل
كردوس
(١٠٠٠)
مقاتل
كردوس
(١٠٠٠)
مقاتل
كردوس
(١٠٠٠)
مقاتل
كردوس
(١٠٠٠)
مقاتل
كردوس
(١٠٠٠)
مقاتل
سرية
(٢٠٠) مقاتل
سرية
(٢٠٠) مقاتل
سرية
(٢٠٠) مقاتل
سرية
(٢٠٠) مقاتل
سرية
(٢٠٠) مقاتل
نصيلة
(٤٠) مقاتلاً
فصيلة
(٤٠) مقاتلاً
فصيلة
(٤٠) مقاتلاً
فصيلة
(٤٠) مقاتلاً
فصيلة
(٤٠) مقاتلاً
حضيرة
(١٠) مقاتلين
حضيرة
(١٠) مقاتلين
حضيرة
(١٠) مقاتلين
حضيرة
(١٠) مقاتلين
حضيرة
(١٠) مقاتلين

تنظيم قوات المسلمين البرية

الجيش
(١٠٠٠٠) مقاتل أو أكثر

قيادة التعبئة (٥٠٠٠) مقاتل — قيادة التعبئة (٥٠٠٠) مقاتل

كردوس (١٠٠٠) مقاتل — كردوس (١٠٠٠) مقاتل — كردوس (١٠٠٠) مقاتل — كردوس (١٠٠٠) مقاتل — كردوس (١٠٠٠) مقاتل

سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل — سرية (١٠٠) مقاتل

حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين — حضيرة (١٠) مقاتلين

لم يكن اسم الحضيرة يطلب على الوحدة التعبوية الصغيرة المؤلفة من عشرة مقاتلين في العصر الإسلامي الأول ، ولقد وضعناها للإيضاح فقط ، لهذا اقتضى التنويه .

قيادات قوات الروم البرية ومقارنتها بقيادات قوات المسلمين البرية على عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية ، وقيادات قوات الجيوش البرية الحديثة

التسلسل	عدد المقاتلين	قيادة الروم	قيادة المسلمين	الرتب العربية حالياً
١	١٠٠٠٠	بطريق	أمير الجيش	لواء
٢	٥٠٠٠	طومرخان	أمير التعبئة	عميد أو عقيد
٣	١٠٠٠	طرنجارية	أمير الكردوس	مقدم
٤	٢٠٠	القومس	قائد السرية	رائد أو نقيب
٥	١٠٠٠	-	نقيب	-
٦	٤٠	القمرطغ	-	ملازم
٧	١٠	الدمرداخ	عريف	رقيب

ظهر ثانية واتسع نطاقه في الولايات الثغرية ، وكان لا يجوز انتقال هذه المنح ، لأن منحها كان يتضمن إلزاما بالخدمة في الجيش يرثه الإبن عن أبيه ، فكانت الجندية من المهد إلى اللحد ، يرثها الخلف عن السلف . لقد كانت القوى العسكرية مصدر قوة الدولة الحقيقية دون منازع .

(ب) القوة البحرية :

إعتبر الروم القوة البحرية أقل أهمية من الجيوش البرية ، وقد اتجهت رومة الجمهورية إلى البحر مكرهة ، ويصدق الحكم نفسه على الأمبراطورية البيزنطية ، فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقي عليه ليقوم بمراقبة البحار ، ولقهر القراصنة ، وحماية واردات الحبوب المنقولة لرومة والقسطنطينية .

وقد اعتمد حكام القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين في الدفاع البري عن ممتلكاتهم على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التي أقاموها على حدودهم وفي داخل أراضيهم جرياً على سياسة الروم التقليدية ، ولكن البيزنطيين وسعوا مجال التحصينات وزودوها بحاميات نظامية ، مع الإستعانة بقوات من الجنود امحليين أو المعاهدين من مستوطني الريف المجاور .

وهكذا كانت المنظومة الدفاعية في مناطق البحر الأبيض المتوسط حتى فتوح المسلمين تقتصر على

الإكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين ، تشد أزر قوات اندفاع المحلية في مناطق الخطر .

ولكنه كان للروم في القرن السابع الميلادي قواعد بحرية ودور لصناعة في قرطاجنة وعكا والإسكندرية والقسطنطينية ، حيث تمّ بناء كثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة بجانب قواعد أخرى في سرقوسة بصقلية وفي سبتة وجزر البليار . إذ بدأت الدولة ببناء أسطولها حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية ، واضطرت بسبب نشاط معاوية بن أبي سفيان البحري إلى الشروع في بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة ، فظهرت خلال لقرن السابع الميلادي قيادة بحرية واحدة عليا ، وهي قيادة أميرال (أمير البحر) ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال (نائب أميرال) (نائب أمير البحر) ، كما كانت ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ، ولكن ليو الثالث بعد حصار المسلمين للقسطنطينية ، إعتمد في قوته على جيش آسيا الصغرى البري ، وكذلك فعل حفيده قسطنطين الخامس .

وكان سبب إلغاء القيادة العليا الموحدة للأسطول ، هو أن الأسطول نادى بنائب الأميرال أمبراطوراً سنة (٦٩٧ م) وأسقط الأمبراطور سنة (٧١٣ م) وسنة (٧١٦ م) ، مما أدى إلى أضعاف الأسطول البيزنطي خوفاً على العرش من قادة الأسطول .

والراجح أنه كان للدولة أساطيل إقليمية تشبه أساطيل الأمبراطورية . وفي الحرب كانت الدولة تعزِّز أسطولها بعدد من السفن التجارية ، لنقل الجنود والإمدادات والأسلحة والذخيرة والمواد .

ولم توجه البحرية البيزنطية عدوٌ خطراً حتى ظهور الأسطول الإسلامي ، فتغيرت تنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط الهجمات الإسلامية في القرنين السابع والثامن ، فوضع على رأس كل إقليم قائد حربي له السلطة الحربية والمدنية معاً ، فأتاح ذلك وسائل فعالة للدفاع ، وقد طبق هذا التنظيم في البحرية والجيش البري معاً .

كان تنظيم القوة البحرية البيزنطية في صورته

الأخيرة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين عبارة عن أسطول حربي ، قوامه أسطول مركزي أمبراطوري في القسطنطينية بقيادة القائد الأعلى للبحرية مباشرة أو عن طريق نائب للقائد الأعلى . وهناك أسطولان إقليميان في الشرق هما أسطول بحر إيجه وأسطول جنوب آسيا الصغرى ، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أمير البحر (عميد بحري) ، وإلى جانبهما قطع بحرية صغيرة في بلاد الشرق . وفي الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، رابط الأسطولان الإقليميان الرئيسان في صقلية وفي رافنا ، ويحتمل وجود أسطول إقليمي ثالث في أفريقية حتى الفتح الإسلامي لهذه البلاد . وقد احتفظ الأسطول البحري الأمبراطوري وكل أسطول إقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والتجارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي تقيم فيها الأساطيل [1] .

مما تقدم ، يظهر أن بحرية الروم كانت تتألف من

---

(١) الحدود الإسلامية البيزنطية . فتحي عثمان (١ / ٣٢٧ ـ ٣٣٠) .

بحرية تابعة للأمبراطورية ، وهي جاهزة لدعم البحرية الإقليمية ، تتحرك لنجدتها عند الحاجة ، وهي بسيطرة مركزية بقيادة قائد أعلى بحري ، يتسلم أوامره من الأمبراطورية مباشرة . لذلك فإن هذه البحرية تكون بحرية سوقية ، وتكون احتياطاً عاماً للبحرية الإقليمية ، تتدخل في الحروب التي لا تستطيع البحرية الإقليمية معالجتها كما ينبغي .

أما الخط الأول من البحرية البيزنطية ، فهي البحرية الإقليمية التي تكون مسؤولة عن المناطق النائية عن العاصمة القسطنطينية ، وهذه البحرية مسؤولة عن إحباط الإعتداءات الخارجية باتخاذ الإجراءات الفورية لدرئها ، فإذا استطاعت التغلب عليها فإنها لا تطلب سند بحرية الأمبراطورية ، وإلا فإنها تستمد عونها وتطالب بسندها .

وهذه البحرية الإقليمية ، تتبع الحكام المحليين من الناحية العملية ، ولكنها مسؤولة أمام مرجعها الأعلى في القيادة العليا للبحرية التي مقرها القسطنطينية من الناحية الفنية . لذلك كانت هذه البحرية - بسيطرة غير

مركزية ـ تتلقى أوامرها من الحكام المحليين ، لمعالجة الحروب المحلية ، وقد تتجه من منطقتها لنجدة المناطق المهددة الأخرى بأوامر من القيادة العليا للبحرية البيزنطية . لذلك كانت البحرية الإقليمية بحرية تعوية ، او هي الخط الأول الأمامي للبحرية البيزنطية الأمبراطورية .

وحين كانت لبحرية البيزنطية أقوى من بحرية الأمم الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط ، جعلت من هذا البحر بحيرة بيزنطية وسيطرت تلك البحرية على الشرق الأوسط .

وحين أصبحت بحرية المسلمين أقوى من بحرية البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط خسر الروم أرض الشام ومصر وشمال أفريقية وخسروا الجزيرة وأصبحوا مهددين بعقر دارهم من الفاتحين المسلمين .

إن السيطرة بالبحرية على البحر الأبيض المتوسط ، تؤدي إلى إحرز النصر والسيطرة على مطقة هذا البحر، كما حدث للفينيقيين واليونان والرومان والروم والعرب في الأزمنة الغابرة وكما هو مسجل في صفحات

التاريخ ، وكما حدث في العصور المتأخرة بالنسبة للبرتغال والأسبان وبريطانيا وابولايات المتحدة الأميركية .

لا عجب إذاً ، من تنافس الدول الكبرى في العصور المتعاقبة القديمة والوسطى والحديثة على السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لأن ذلك يؤدي إلى السيطرة العالمية .

وليس في مقدورنا أن نقدر بالتأكيد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة ، وتدل التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة التي نملك عنها تفاصيل ـ على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الأمبراطوري ، وسبعُ وسبعين من أسطول اىولايات ، بينما كان عدد التجارة (٢٣٠٠٠ ـ ٢٤٠٠٠) من تجارة الأمبراطورية و (١٧٥٠٠) من تجارة الولايات .

ويظهر أن عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث(٨٥٨ م ـ ٨٥٩ م) بلغ عددها ثلاثمائة مركب . وكان رجال السفن يتكونون

من رعايا الأمبراطورية ومن المتبربرين المستقرين في أرض الدولة مثل : (الماردائيين Mardates)[1] ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول ، كما يظهر ، زمن الأسرة المقدونية . ويبدو من كتاب : (Tactica) أي الفنون الحربية الذي كتبه ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنوداً . ولكننا نلحظ في حملة سنة (٩٠٢ م) أن جنود الأسطول كانوا شيئاً آخر غير المجدفين ، وكانت السفن المسماة (درموندDromonds) وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى ، واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية: (Dromos) أي السفينة ، كانت هذه السفن

(١) الماردائيون : هم جماعة جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمان ، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية . فلما فتح المسلمون بلاد الشام تراجعوا إلى آسيا الصغرى ، وهناك أقاموا يحاربون في صفوف الدولة البيزنطية ، وظلوا يسببون لخلفاء المسلمين متاعب جمة . وظل الأمر على ذلك حتى عقد عبد الملك بن مروان مع الأمبراطور جستنيان الثاني صلحا اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات الماردائيين إلى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين . أنظر :: Vasiliev . Op . Cit . 1 , P . 185 .

تبنى في الغالب بصفين من المجاديف[1] ، وتحمل فوق المائة رجل في الغالب وفيها سبعون من جنود البحر ، والباقون من المجدفين ولملاحين .

وبجانب ذلك ، كان هنك سفن ذات طرز مختلف ، منها ما هو أكثر سرعة يسمى : (Pamphylus,Pamphylis) ، وهي ذات صفين من المجاديف ، ومن هذا النوع كانت سفينة القيادة التي تحمل العلم ، وهذا النوع من السفن يستعمل في القتال والمطردة .

وكانت هناك سفن بصف واحد من لمجاديف : (Galleys) تستخدم للإستطلاع ونقل الرسائل ، كما كان الأسطول الأمبراطوري والأسطول الإقليمي أو المحلي يستعين بالسفن التجارية عند الحاجة .

وتوضع في مقدمة السفن آلات تقذف النيران الإغريقية المخيفة ، وكان التجار يجهزون قنابل يدوية تحتوي على نفس المادة القاتلة التي كانت تنفجر بقوة ،

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (١٩٣ ـ ١٩٤) .

على الرغم من أنها كانت لا تأتي بالنتائج التدميرية المرجوة ، ولكنها على كل حال تؤثر في المعنويات تأثيراً عظيماً ، أو ترسل تلك لنيران بأوعية خلال الهواء بالمنجنيقات ، وربما استخدمت قذائف في دفع مواد سريعة الإلتهاب خلال أنابيب باتجاه أهداف بعيدة . وقد حفظ تركيب النار لإغريقية سراً مصوناً ، وكانت لها مخازن ومستودعات في المدن البحرية الكبرى .

وتتسم سيسة الروم البحرية في اقتال ، بنفس الحذر الذي كانت تتسم به خططهم العسكرية التعبوية منها والسوقية ، فقد كان أمير البحر في الدولة الشرقية لا يحارب إلا إذا كانت جميع الظروف مؤاتية له ، أو إذا رأى أنه لا بد من الحرب لحماية إحدى مقاطعات الروم . غير أنه لا سبيل إلى الشك في أن الملاحين لا يعتمد عليهم في الغالب ، وكان أهم ما يُشغل بل أمير البحر هو أن يدبر أمره في حالة ما إذا هدده الجنود بالإنقضاض من حوله[1] .

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (١٦٤) ، لأن جنود السفن يتكونون من رعايا الأمبراطورية ومن الفرنج والروم والأفريقيين ومن المرتزقة =

وليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحري عند الروم ، ولكن ما وصل إلينا يدل على توجيههم نفس العناية الدقيقة التي كانوا يواجهونها إلى علوم العمليات البرية في الجيوش البرية البيزنطية ، إلى مبادىء الحرب البحرية وفنون القتال البحري . فقد درس أمراء البحر البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للسواحل والبحار والجزر ، وخصائص الرياح بأنواعها والمد والجزر ، وأتقنوا فن الخطط والعمليات البحرية ، وجهوا إلى فنون الإستطلاع والحصول على المعلومات من مصادرها بشتى الوسائل والإتصالات والإشارات اهتماماً يعادل اهتمام المحاربين في البر . وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري ، فقد ظل الأسطول مجالاً للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره ، فكان الجندي البري يتقدم البحار دائماً ، ولم تكن روما الجديدة في هذه الناحية بالذات كما رأينا ، إلا محافظة على تقاليد

---

* الأجانب مثل الروس ، والروم الشرقيون وحدهم كانوا من الذين يعتمد على إخلاصهم وولائهم ، لالتزامهم بالدفاع عن وطنهم وممتلكاتهم ، أما غيرهم فلا التزام يشدهم إلى الحرب غير الإرتزاق ، وهذا يتبخر عند الخطر .

العاصمة الغربية القديمة .

وكان رجال البحر ـ كما هو الحال في رجال البر ، يتكونون من أسلحة مختلفة : رماة ، ومنجنيقيون ، ونفاطة ، ومهندسون ، وأطباء ، وممرضون ، وأرباب حرف ، وإداريون لتصليح السفن وإدامتها ، ومجدفون مدربون على الجذف المتواصل الطويل ، الذين مارسوا واجباتهم ، ولهم قابلية على الإستمرار في عملهم مدة طويلة دون كلل أو ملل .

ولكن الأسطول البيزنطي أخذ يتداعى خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا إلى ساحل آسيا الصغرى الغربي خلال العقد السبع من هذا القرن ، وشاعت الفوضى في الولايات التي كان يجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية ، لأنه ثبت للحكومة المركزية أن القيادة البحرية العليا كانت دافعاً قويا لمن يحملها ويحوزها على التفكير في اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذا العامل كان له أثر كبير في الهبوط بالقوة البحرية .

ولو قدر للقسطنطينية أن يكون لها أسطول قادر ، لتوجهت الحملة الصليبية إلى مصر لا إلى القسطنطينية ، وبالرغم من أنه توفر للأمبراطورية حينما انتعشت بعد ذلك ، في ظل باليولوجس (١٢٥٨ م - ١٢٨٢ م) ، أسطول نشيط على صغره ، إلا أن الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدابر إلى غير رجعة[1] .

٦ - الفكر البيزنطي :

(أ) التعلم :

ربما كان الرهبان والقسس البسطاء ، يرون في المعارف القديمة شراكاً من شراك الشيطان . ولكن أبدى أباطرة متلاحقون رغبة في رعاية الجامعات وترقيتها ، وفي زيادة عدد المدرسين ، وفي إنشاء المكتبات ، وجمع مخطوطات الآداب القديمة .

وفي القرن الرابع الميلادي ، كان يتدرج الشاب من الطبقة العليا في مراحل التعليم ، فيبدأ الصبي بتعلم

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (١٩١ - ١٩٢) .

القراءة والكتابه في الخامسة أو السادسة من عمره . وفي العاشرة أو الثانية عشرة كان ينصرف إلى دراسة النحو ، ولا يقتصر النحو على تعريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم إلى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . وحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية ، ويبين المعنى المراد ، وتعرف قيمته الأدبية ، وكانت تستعمل لهذا المعجمات والشروح والكتب ذات الحواشي والتعليقات . وكانت الروايات المحزنة والمضحكة تقرأ كذلك ، ولم يعترض أي أب من الأباء على الفحش الكبير الذي يرد في روايات الهزليين .

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان الولد يهجر النحو إلى البلاغة ، وكان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين من كتاب النثر بخاصة ، وكان الأستاذ يقرأ مثالاً مختاراً من أسلوب إنشائي معين بصوت مرتفع ، ويطلب إلى التلاميذ أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله . وفي ذلك العصر الذي كانت الثقافة فيه تتركز في

المراسلات ، كان لا بد من دراسة مفصلة لفن كتابة الرسائل . وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع في المدرسة ، إذ لا بد للرسالة من أن تبرز شخصية الكاتب ، وأن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثال الكثيرة . وكان الإهتمام في الكتابة يصب على المبنى أولاً ، وأما المعنى فأهميته أقل من المنى ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك المدة متكلفة خالية من العصر الإنساني ، وأنها قد تنحط في كثير من الأحيان إلى عرضٍ يدل على اطلاع واسع ولكنه جامد لا حياة فيه .

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف ، وتدوم دون انقطاع حتى بداية الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر في فصل الحر . وكانت الدروس تدرس في الصباح ، كما كان بعض الطلاب الكبار يستمعون إلى المحاضرات بعد الظهر . وفي أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها ، كانت المدارس تقفل أبوابها ، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات في دار التمثيل ، وحتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر من أن يتردد الطلاب على دور التمثيل . وكانت تفرد أيام

للخطابة بين حين واخر ، يلقى فيها ذوو الكفايات الخطابية من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لسماعها الأصدقاء والآباء . وكثيراً ما كان لطلاب يستمرئون الكسل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم .

وكانت جامعة أثينا ما تزال في القرن الرابع الميلادي أشهر مركز لدراسات البلاغة ، وإلى تلك الجامعة يعزى ما كان قد بقي لها من الأهمية . وكان الطلاب القادمون من نواحي الأمبراطورية المختلفة يميلون بالطبيعة إلى أن يدرسوا على أساتذة من بني جلدتهم ، وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء . وكان الأساتذة أعداء بعضهم بعضاً في كل مكان ، حتى أن قسماً منهم يرى واجباً على طلابهم أن يجعلوا عيش زملائهم منغصاً ما أمكن ذلك . وكان تلاميذ كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكونون جماعة متماسكة ، وكانوا يرون أن الإستماع إلى أستاذ غيره خيانة كبيرة . وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أصبحت المعارك معه تنشب بينهم في شوارع أثينا ، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف . وكثيراً ما كانت الدراسة تهمل ،

لتحمس الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدَّين لتبذيرهم النقود على النساء المنحرفات .

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سن الثامنة عشرة أو العشرين ، وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع الميلادي . وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالإنفاق على المعلمين في مدن مثل الإسكندرية والقسطنطينية ، أما في أثينا فقد كانت موارد الجامعة تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفي لسد حاجة الأساتذة ، وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك .

حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئاً مريباً ، والذي يتفرغ لدراسة أرسطوطليس في القسطنطينية ، لا يسلم من الجمهور الذي ينبه السلطات دائماً إلى ذلك المجرم ، فإذا كتب عن الإستدلال أو

الطبيعيات ، فقد استحق الموت بلا ريب ، وكانت تسود أهل الإسكندرية مثل تلك الروح التي دفعت إحدى العالمات حياتها ثمناً لفلسفتها .

وانتزعت الإسكندرية قصب السبق من أثينا ، وقد ظلت مدرسة الإسكندرية الفلسفية قائمة حتى عشية الفتح الإسلامي . وانتشرت المدارس في جميع أنحاء الأمبراطورية ، وظلت اللغة الإغريقية محتفظة بمكانتها في هذه المدارس ، وكان أعاظم الأساتذة ينظرون بازدراء إلى اللغة اللاتينية (اللسان الغربي) ، ولم تكن تدرس اللاتينية بحماسة إلا حيث كان يدرس القانون الروماني .

وحتى في القرن لرابع الميلادي نفسه ، كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسها ، لأن تسامح الأباطرة مع الفلسفة اليونانية أخذ يقل بالتدريج . وفي سنة (٥٢٩ م) صادر جستنيان الموارد التي كان ينفق منها على تعليم الفلسفة في أثينا ، وأرسل أساتذة الفلسفة إلى فارس منفيين ، وقرر أن تستقى ثقافة الروم الشرقيين من أصول مسيحية . وقد أغلق فوقاس (٦٠٢ م - ٦١٠ م) جامعة القسطنطينية ، وحلت محلها مدرسة

دينية أيام هرقل ، وكان التعليم في العاصمة دائماً تحت إشراف البطريرك .

وقد شهد القرن التاسع الميلادي نهضة في تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلقيان عوناً صادقاً من الأباطرة ، وقد أعاد القيصر بارداس إنشاء الجامعة القديمة في القسطنطينية ، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة ، ولم تنقطع الدراسات القديمة بعد ذلك إلى سقوط القسطنطينية سنة (١٤٠٤ م) ، غير أن الكنيسة كانت تنظر إليها بعين الريبة .

ولا نسمع عن التعليم القانوني إلا قليلاً ، فلم يكن في القسطنطينية خلال القرن الحادي عشر الميلادي من الدراسة القانونية شيء يفي الحاجة ، وقد أنشئت مدرسة جديدة للقانون في القسطنطينية سنة (١٠٤٥ م) ، ولكن لم تبق هذه المدرسة طويلاً . وحينما أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم إلا قليلاً جداً من المال . ولا شك في أن الأمبراطورية التي لم تكن

لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تعد الجامعة نوعاً من الترف لا مفر من الإستغناء عنه[1] .

(ب) الأدب :

تغلبت روما على الدول التي نشأت عن تفكك أمبراطورية الإسكندر الكبير الأسيوية ، ولكنها لم تفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت الثقافة الهيلينية واسعة الإنتشار ثبتة الأساس فيها . وعلى الرغم من محاولة دقليديانوس وحلفائه تشجيع لغة الغرب (اللاتينية) ، فإن اللسان الإغريقي ظل يحفظ مكانته . وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية في مادة الشريعة والإدارة مع عدد كبير من الإصطلاحات العسكرية .

لقد كان أدب روما الشرقية (لقسطنطينية) أدباً يونانياً ، وكان أدباً تحصيلياً ، فقد ورث البيزنطيون

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (١٩٦ - ٢١٦) .

منقولات الأساتذة الهيلينيين ، وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله ، فصاغ الأدباء البيزنطيون أدبهم على هذا المنوال في قوالب قديمة، فنشأت الهوة التي لا تزال موجودة ، بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة في بلاد اليونان ، فكانت مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التي تصدر عن الطبع ، لأن الحركة الأدبية البيزنطية اتسمت بالتقليد والتكلف ، وهكذا وقف المؤلفون المسيحيون في ذلك العصر بعيدين عن عصرهم ، فهم يعيشون في مجتمعاتهم المسيحية ويؤلفون لها ، يتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها أشياء غريبة مجهولة ، فيخيل إلينا ونحن نقرؤهم أننا نسمع هيرودتس مرة أخرى يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين وطقوس عبادتهم العجيبة ، وتتوارد على صفحات كتبهم أفكار الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين الفعالتين في عالم تزدريه لخيلاء بأرثوذكسيته . وكان البيزنطي الفج يعتبر الشكل لا الفحوى أهم شيء عنده ، وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيء لنفسه مكاناً طيباً في محراب

الأدب إلا إذا اجتهد مخلصاً في متابعة التقاليد القديمة . وهكذا حافظت روما الشرقية على تراثها ، وأنفقت جهدها في دراسته عن طريق التعليقات والشروح ، ولكن كان يعوزها التعمق في أسرار الطبيعة والوجود وروح البحث الحر الذي يبدو في مؤلفات المفكرين اليونانيين وكأنه نسيم الصباح العليل ، وتبدو أصالة الأدب البيزنطي في أكمل صورها في اللاهوت والشعر الديني والتاريخ . وقد ظلت القصائد اللاذعة موجودة ، وإلى تعشق البيزنطيين لهذا اللون من الفن الأدبي يرجع الفضل في بقاء مجموعة من مختاراته اليونانية .

وكان الشعر الكلاسيكي خاضعاً لقواعد أساسها الكم ، وكان تركيب عبارته يقوم على أساس من طول المقاطع . أما في لغة الكلام ، فكان النبر[1] هو ميزان الكلمات ، وكانوا يجعلون الضغط على المقطع المنبور ، وعلى هذا قصرت المقاطع غير المنبورة مهما يبلغ طولها الطبيعي . ونظمت المدائح الدينية المسيحية

---

(١) النبر في النطق . إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق .

في شعر ميزانه عدد النبرات ، واستحدث القوافي لتكون رباطاً بين الأبيات . ولما كانت البلاغة تميل إلى إزالة لفوارق بين الشعر والنثر بما فيه في الموسيقى الإيقاعية ، فقد تأثر النثر الفنى بالتطور الجديد . ولما كان أدب روما الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فإن غلبة الشعر الذي يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هي عليه ، ولم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم . وينبغي أن نضيف أن النبر ظل يؤثر في بناء الشعر بصورة متصلة ، وكان له أثر جديد في البحور الشعرية القديمة ، وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبي .

والمؤثرات الآسيوية بينة بوضوح في الأدب البيزنطي : في كثرة الأخيلة ، والبديع ، تلك الكثرة التي قد تبهم العبارة ولا توضحها ، فكان نتاج آباء القرن الرابع الميلادي شديد الزخرف قليل النظام ، ومع ذلك كان خصباً في إنسانيته . بيد أننا إذا حاولنا أن نجد هذه الإنسانية في الكتابات اللاهوتية ، لم نظفر بغير الحسرة والأسى ، وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه

الكتابات ، أما القارىء العادي فإنه سيطلب متعته في غيرها . وقد استخدمت الفلسفة اليونانية للدفاع عن المسيحية ، ويمكن أن يقال أن عيد الأرثوذكسية (٨٤٣) يرسم نهاية مدة الإبداع في اللاهوت وتبدأ مدة التقليد ، إذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الإستيعاب ، ولم يعد يسمح بأن تتسرب إليه فكرة الفلسفة اليونانية ، وهكذا أصبح الإنسانيون في الدولة الشرقية كالهراطقة متهمين في نظر رجال الدين ، وكان علم اللاهوت في الدولة الشرقية منصرفاً تمام الإنصراف إلى المساجلة العظيمة في روما .

أما في ميادين الشعر غير الديني ، فلم ترق بيزنطة أبداً إلى شيء متميز من الطبقة الأولى ، فمات الشعر السداسي التفاعيل ، واستعمل من ثم الشعر ذو الإثني عشر مقطعاً بانتظام ، غير أن الشعر البيزنطي غير الديني لم يستطع أن ينتج أعمالاً ذات نفس طويل . وقد عالج بعض الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر . أما الشعر الغنائي فقد مات ، واستبعدت موضيع الحب المتبادل بين المرأة والرجل ، وحل محلها شعر الملاحم الشعبية .

وقد نبع الأدب البيزنطي من مصدرين ، الأول : أصحاب المثل العليا من بين الرهبان والراهبات وأفكارهم عن العالم الآخر ، وهم الذين كانوا لا يعنيهم من شؤون هذه الدار العاجلة إلا العثور على فرص يرفضونها ، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما في هذه الدنيا. والثاني : الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدولة والأباطرة ورجال الإدارة ، وبذلك أصبح الأدب البيزنطي إما أدب العاطفة المشبوهة والخيال المطلق ، وإما آثماً وغير لائق ، وكان الأدب المحافظ ينفر أن يعترف بالجمال حتى في أغنية ريفية .

وفي النهاية ، ينبغي أن نذكر الأدب الشعبي البيزنطي ، وهو يتألف على الأغلب من الأساطير الإغريقية التي أصابها التكبير والتحوير ، كقصة حصان طروادة ، وسيرة أعمال الإسكندر العظيم ، وقد أصبحتا نموذجاً للبطل المسيحي . وفيها كذلك حكايات شرقية منقولة من بعيد ، وقد غلب عليها ثوبها المسيحي . ولعل أمتع عناصر هذا الأدب الشعبي يستفاد الشيء الكثير[٢] .

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (٢١٧ ـ ٢٣٢) .

(ج) الفن :

إضطرت الوثنية واليهودية أن يلجأ المستضعفون في الأرض من المسيحيين إلى سراديب الأرض وكهوف الجبال خوفاً من لبطش ، وكانت النتيجة أن أصبح لفن المسيحي فناً رمزياً ، فتصاويره المرسومة على الجدران لم تحاول أبداً أن تمثل الحوادث التاريخية . ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التي تقوم على البشارة والرجاء ، وقد استعان في ذلك بالإشارات الصوفية التي ابتدعتها المدن اليونانية في الشرق الأدنى الذي ظهرت المسيحية في أكنافه وهكذا تحولت الطائفة المنبوذة من المسيحيين في ذلك العالم المعاصر لها إلى عالم الروح سعياً وراء الثقة في النفس وحفز لهمة ، وأصبحت لشارات أهل الإسكندرية التي هي المرساة واليمامة معان أخرى جديدة ، وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزاً للراعي الصالح يحمل الخراف الضالة ، بينما صورت صورة المصلين وهم يصلون بين أزهار الفردوس كأنها رمز للرجاء الوطيد المضمون في خلود الروح .

وعندما انتصر المسيحيون المضطهدون في القرن الرابع الميلادي ، طفر الفن طفرة ليتوج نصر المسيحية ، وظهرت الكنائس إلى عالم الوجود بفضل عطف الملوك في كل مكان ، وبدا لمنشئيها أن الرمزية القديمة أكثر سطحية واضطراباً من أن تصلح لتجميل الكنائس . لقد انقضى شتاء المسيحية وأقبل ربيعها ، وكان لا بد من رواء فخم يناسبه .

وأعادت روما الجديدة سيادة الدولة الرومانية بعد اضمحلال مدينة روما في القرن الثالث الميلادي ، فأضافت الألوان ومهارة الزخرفة التي تضفي على الفخامة الأمبراطورية لباساً جديداً من الأبهة ، وأضاف الناس إلى تصاوير الحيطان فن الفيسفاء الحائطية وتوسعوا فيه ، لأنه كان أقدر على التأثير في النفس وأوسع مجالاً وأدق خطوطاً ، ولأن رسومه ترى واضحة عن بعد : فن يحتاج إلى مجال واسع ، ولا بد له من عون المهندس المعماري حتى يرقى وينمو .

بيد أن العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الأغريقية ، وكانت النزعات الإنسانية الأغريقيـة ،

والنماذج العظيمة للجمال الإنساني التي ابتدعها الخيال الهليني ، لا تزال ذات أثر عظيم إلى جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية . فقد تجمعت في روما الجديدة الى جانب المخلفات المقدسة للديانة المسيحية روائع العالم الوثني ، وأصبحت القسطنطينية متحفاً ومدرسة للفن لا تجارى . وكان للكنيسة إذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه . فقد أرادت أن تسجل بطولات الفدائيين ، وثبات الشهداء في وجه التعذيب والموت ، بل أرادت أن تصبح جدران هياكلها إنجيلاً مزيناً بالرسوم للمتنصرين الأميين ، وتاريخاً مصوراً لقصة الفداء .

ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها ، ففي الفن الجديد المعقد ، الذي سارت به روما الجديدة للأمام ، متسع في الحقيقة لكل شيء : كان فيه متسع للعناصر التصويرية لمدرسة الإسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم والأشجار المختلفة الأخرى ، ولمشاهد الألعاب الوثنية ، والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعب الأطفال العراة على شواطىء الأنهار ، ولكل صور الخيال المبدع ، ومشاهد المواكب الفخمة والقوة ،

ومتسع للتلوين اسابغ ، ولفخامة النقش الفارسي المتداخل الخطوط المعقد التفاصيل ، ومتسع أيضاً لهذه النماذج النبيلة التي أبدعتها الروح اليونانية الإنسانية ، بينما أخذت الأمبراطورية ما استطاع الشرق تقديمه في فن العمارة ، ورفعته إلى طبقة جديدة ، حتى بلغ أوجه في كنيسة القسطنطينية الكبرى . وكانت القسطنطينية في القرنين الرابع والخامس الميلادي شهد انتصار سياسة التركيز في المسائل الدينية ، فقد أخذ تأثير القسطنطنة يتزايد بالتدريج في دائرة الفن لسببين : إن المراكز الأخرى كانت تسعى وراء هبات الأمبراطورية لكنائسها وأبنيتها المدنية ، والسبب الثاني هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة . وعلى الرغم من أن البنائين كانوا ينتمون إلى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا إلى تحقيق غاية واحدة ، ما داموا يخدمون سيداً واحداً . وفي زمن جستنيان لم تكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس روما الجديدة ، كما كان يتبع سابقاً الأنموذج الذي قرره بيت المقدس من قبل وإذا قلنا أن القسطنطينية قبست القبة وأسلوب الزخرفة القائم

على الرخام الكثير الألوان من الشرق ، فإننا نلمس المهارة الإغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان في الإمكان إقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسماء . وكان هذا الفن جريئاً إلى حد عظيم مكنه من أن يدخل في العمارة موضوعات جديدة ، كآلام المسيح الذي تردد أهل العصور التي سبقته في تصويرها ، وتكونت في هذه المدة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء والأنبياء والرسل . بينما أحيا الفن الدنيوي الذي عفت آثاره سوء الحظ ، انتصارات جستنيان الأمبراطورية وقواده .

وبينما كان الطراز التاريخي الذي شاع في عصر جستنيان متجهاً إلى الإضمحلال ، شجع الأباطرة فناً دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذي رجع إلى حد كبير إلى الماضي يستوحيه ، فتحول الفنانون إلى الريف والحياه الحيوانية ، وإلى المدن والملاعب ، وإلى الواقعية في تصوير الأشخاص .

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطي المدني ،

ولكن كثيراً مما كان يميز الأمبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً ـ وهو فن الكنائس ـ لا يزال باقياً . وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفني في ميدان العمارة بما تتميز به من إدراك مجيد للألوان في فسيفساء الحوائط والتلبيس بالرخام ، ويلي هذ ذلك الكمال الفني الذي يربي على الغاية فيما ينبغي أن نسميه بالفنون (الصغرى) ، كالحفر على العاج ، ورسم المنمنمات ، والتزيين بالميبا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج .

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطي ، بحجة أنه متحط وعديم الحياة ، ولكن ظهر في السنين الأخيرة اتجاهاً متزايداً لتقدير قيمته الباقية وأهميته[1] .

القانون الروماني :

القانون الروماني هو أكثر أعمال الروم أصالة ، وأعظم ما أهدوه لمن أتى بعدهم من الناس . وكان من شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية ، أن ارتفعا بهذا الأثر المهم وحفظاه من الزوال على مر

(١) الأمبراطورية البيزنطية (٢٣١ ـ ٢٥٢) .

القرون . ونجد إسم جستنيان لمشرع مألوفٌ لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطي كإسم معروف متداول .

وإذا أردنا أن نتبع تطور ذلك القانون زمن الأبطرة الروم الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسة :

١ ـ دور التقنين الذي بدأ زمن دقليديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان .

٢ ـ دور تشريعات الأباطرة اللاايقونيين .

٣ ـ دور الرجوع إلى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين اللاايقونيين .

٤ ـ دور الرجوع إلى قانون جستنيان زمن الحكم المقدونيين .

٥ ـ دور الإضمحلال .

وينبغي ألا يغيب عنا ، أن القانون في ذلك الحين ، كان تعبيراً عن إرادة الحاكم ، فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عندما حل القرن الثالث الميلادي ، كان عصر

البناء والإنشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان قد أشرف على النهاية . وفي زمن دقليدياتوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني ، وقد جمعت حوالي هذا الوقت القوانين الأساسية التي أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقليديانوس . وتمت نُعيد هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقليديانوس . ويظهر أن ثيودوسيوس لثاني من سنة (٤٢٩ م) قد خطرت له فكرة عمل قانون عام ، ولكنه انصرف عن مشروعه ، ولكن مجموعة من القوانين الأساسية الامبراطورية صُنِّفت على أيدي لجنة عينت سنة (٤٣٥ م) ، ونشرت هذه المجموعه سنة (٤٣٨ م) ، وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة (٤٣٩ م) .

غير أن تصنيف هذا القنون الجديد لم يوقف تيار التشريع الأمبراطوري ، واستمر الأباطرة يصدرون القوانين ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسرب إلى كيان القانون الروماني . وقد شكا جستنيان من ذلك ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية له ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدر

اعتمادها على أهواء القضاة المعسفية .

وكان جستنيان يعتقد أن الأمبراطور يحمل عبء واجب مزدوج ، فقد كان عليه أن يكون القائد الفاتح والمشرع الأعلى في الوقت ذاته ، فإذا كانت القسطنطينية قد اتسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدل قوانينها ، فوجبه كوارث لماضي روما أن يكون جديراً بهذا التراث المردوح ، ولم يكن له مفر والحالة هذه ، من عمل حصرٍ كامل للقانون الروماني .

وقد وجد الأمبراطور في وزير القضاء (اكْوِ ستر القصر) تريبونيان رجُله المنشود ، فعهد إليه في رئاسة لجنة مهمتها جمع القونين التي أصدرها أباطرة الرومان وتنسيقها وحذف المتشابه منها واستخلاص مجموعة قانونية واحدة منها . وقد وفقت اللجنة في عملها ، فصدرت في شهر نيسان (أبريل) من سنة (٥٢٩ م) مجموعة جستنيان القانونية التي وضعت على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجيان وثيودوسيوس ، وضمت كذلك قوانين الأباطرة المتأخرين التي كانت ما تزال نافذة . وقد نفذ العمل في أقصى سرعة ، ولم يكن

المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لإنجازه .

ولكن أصالة جستنيان الحقيقية ظهرت في إنشاء الموجز (الدايجست) ، فندب لذلك ستة عشر مندوباً جُدُداً ، وكلفهم في سنة (٥٣٠ م) بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرعين العظام ، يستطيع المحترف وغير المحترف الإستفادة منها ، وقدر لاتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه تم في مدى ثلاث سنين ، ، . فقد نشر ذلك الموجز على الملأ في كانون الأول (ديسمبر) سنة (٥٣٣ م) ، وهكذا أقيم في (١٥٠,٠٠٠) سطر ـ على حد قول الأمبراطور ـ « معبد للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصول التي استخلص منها ، ومن الطبيعي أن نتوقع أن يكون هناك نقص كبير في تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه ، وقد قيل الكثير في نواقصه ، ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت في البلاد الرومانية ، حتى كان القضاة يكتفون بالإستفادة من مؤلفات قدماء

المشرعين بعد عناوينها عداً حسابياً ، وأصبح مجرد ذكر عدد المؤلفات التي استعان بها المحامي كافياً لكسبه القضية .

وتبدو عظمة جستنيان في الواقع كمشرع في إدراكه أن قانون أية أمة هو تطور عضوي يوجز تاريخ تلك الأمة ، وعلى الرغم من رغبته في تبسيط الإجراءات القانونية الرومانية ، وفي اضفاء إنسانية أكبر على عدالة الروم ، فإنه لم ينشىء كتاباً موجزاً عمياً فحسب ، بل تعدى ذلك إلى ما هو أعظم منه ، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله . إن قانونه « كالقلعة تحمي خلف جدرانها كنوز الماضي من عاديات الزمن الحـــود ، وهو يكشف لأمم الغرب البربرية في الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » . وقد أصدر جستنيان في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٥٣٣ م) مقدمة لنقانون الروماني - سميت النُظُم - صيغت على نمط كتيب سابق للمشرع جايوس ، ولكنها تضم التغييرات التي طرأت على القانون نتيجة لتشريعات أمبراطورية جديدة تالية . وهكذا أحل القانون الجديد في

سنة (٥٣٤ م) محل قانون سنة (٥٣٠ م) ، ولم يبق اليوم بين أيدينا إلا هذه النسخة الأخيرة . وما يزال لدينا ما يقرب من ستمائة قانون من قوانين جستنيان الأساسية ، ونشطه القانوني واضح في كل مجال ، وقد قرر الأمبراطور أنه اتخذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق إصلاحاته وهي : (الإنسانية) و (المنطق الطبيعي) و (المنفعة العامة) .

وبالرغم من أن أباطرة القرن السابع الميلادي كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسة بالإدارة العامة ، أو بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة النطاق في القانون الخاص إلا في عصر الأباطرة اللاأيقونيين واذيعت (الأكلوجا Ecloga) في سنة (٧٣٩ م) ، وهي مختارات من القانون أخذت من تشريع جستنيان بعد إجراء تعديلات « في اتجاه أكثر إنسانية » ، ولكن باسيل المقدوني ألغى أو قلب أكثر هذه التطورات راساً على عقب ، فقد رجع مرة أخرى إلى قانون القرن السادس للميلاد

وفي وقت ما بين (٨٧٠ م) و (٨٧٩ م) ، أذيع

كتيب جديد يسمى (بروخيرون Procheiron) ليحل محل (الأكلوجا) ، بينما عينت لجنة لتعد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجزاء الشاذة التي أدخلها محطمو الصور (اللاأيقونيون) الهراطقة . وقد جمع بين سنة (٨٧٩ م) و (٨٨٦ م) كتيب آخر منقح ،!. ولكنه على ما يرجح لم يقدر له أن تقره الدولة . وإننا لنشك فيما إذ كانت مجموعة باسيل التي تقع في أربعين جزءاً قد قدر لها أن تنشر ، ومن المؤكد أننا لا نملك إلا القانون المسمى (البازيليكا) (الأوامر الأمبراطورية) والذي يقع في ستين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس الذي خلف باسيل المقدوني ، وحتى هذا القانون لم يصل إلينا كاملاً . وكانت مؤلفات جستنيان لا تزال تدرس حتى بعد أن صدرت البازيليكا ، وخصوصاً في القرن الحادي عشر للميلاد ، عندما أسس قسطنطين منوماخوص في سنة (١٠٤٥ م) مدرسة للقانون في القسطنطينية ، ولكن كان نشاط هذه المدرسة قصير الأمد . وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا

وحدها التي كانت تمثل اقانون المعمول به تلقى تأييداً .

وحينما أخذ علم القانون يضمحل ، توقف تطور اقانون الروماني الخاص ، وكان ذلك بعد حكم ليو السادس . ثم جاء بعد ذلك دور الكتيبات والمختصرات ، وأهملت البازيليكا ، وبلغ الإضمحلال أقصاه عند ظهور (الهيخابيبلوس Hexabiblos) أي (الكتب الستة) التي ألفت سنة (١٣٤٥ م ، وقد وصفها بعضهم بقوله : إنها موجز لموجزات الموجزات ، وأصبح القانون الروماني في أيامه الأخيرة : « خلط قريب من الكفر » .

وكانت المؤثرت الرئيسة التي أثرت في تطور القانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الإضمحلال :

١ ـ أثر العاطفة المسيحية لعامة

٢ ـ تأثير الكنيسة كهيئة كنت تعبر عن إرادتها في صورة قوانين تصدرها لمحالس والمجامع الدينيه .

٣ ـ العادات الحارية وخصوصاً في الولايات الشرقية .

ومن الطبيعي أن يمتزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة ، وقد يكون من الصعب في أية حالة خاصة أن نعين لأي منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك .

وعن طريق الدراسة الوثيقة لأوراق البردي ، نستطيع أن نتبين أن وحدة القانون الروماني وطابعه العالمي وسريان العمل به في أنحاء الأمبراطورية كلها ، إنما كانت مُثُلاً عُليا للأباطره لم يُقَدَّر لها في حلة التطبيق أن تتحقق تحقيقاً كاملاً .

وكل ما نستطيع أن نتبينه الآن ، هو أن قوى العادات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية ، التي أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هي غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قسطنطين[1] .

هـ ـ الحضارة :

ما هو الطابع الأساس لهذه الحضارة البيزنطية ؟

---

(١) الأمبراطورية البيزنطية (٢٥٣ ـ ٢٧٣)

طالما قيل : إن دولة روما الشرقية « كانت أمبراطورية شرقية على وجه التحديد » . والواقع أن روم الشرقية تشربت عناصر شرقية كثيرة في الفن والقانون الجنائي وحتى في نظرتها إلى الحكم . إلا أن طابع الحضارة الأساس للقسطنطينية لم يقتصر على الشرق وحده ، بل يشمل امتزاج عنصرين موروثين : العنصر اليوناني الذي اتسمت به مدن شرق البحر الأبيض المتوسط الإغريقية ، والعنصر الروماني الذي تلقته روما الجديدة من الأمبراطورية الرومانية الأولى ، وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاماً إلى حدٍ لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر .

على أننا يمكننا أن نقول بوجه عام : أن روما الشرقية كانت يونانية في اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، وإن إحساسها بذلك كان تاماً واعياً . أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية ودبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة ، فقد كانت رومانية .

ومع ذلك يبقى تأثير الشرق في الأمبراطورية

البيزنطية وضحاً للعيان ، لا ينكره البيزنطيون أنفسهم ، ولا ينكره منصف من غيرهم ، ولكن ليس الشرق هو المؤثر الأول والأخير كما يزعم قسم من الباحثين ، لأن تأثير الغرب فيها وضح للعيان أيضاً ؛ فالحضارة البيزنطية شرقية غربية ، مزيج بين الشرق والغرب : جديد الشرق ، وتليد الغرب[1] .

ومن حق القارىء أن يعرف ، أن قسمي الزراعة والتجارة من بحث الموارد الإقتصادية ، وبحث : تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه ، مقتبسة من كتاب : الأمبراطورية البيزنطية[2] ، والذي ألفه نورمان بينز وعربه الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد ، وقد ذكرت هذا المصدر في هوامش هذه الدراسة ، إلا أن الأمانة العلمية وواجب الشكر العميق للمؤلف والمعربين لأفاضل حملني على تفصيل هذا الشكر والإقتبس في هذا المكان .

---

(١) الأمبراطورية لبيزنطية (٣١٤ - ٣١٥) .

Norman H' Baynes · The Byzantine Empire , London(٢) 1946 .

وبعد هذا العرض التاريخي للموارد الإقتصادية البيزنطية ، وللتاريخ البيزنطي منذ قيام القسطنطينية إلى سقوطها ، يتضح بجلاء وبشكل لا شك فيه ، أن الدولة البيزنطية كانت إحدى الدولتين العظميين في العالم : الدولة البيزنطية ، والدولة الساسانية ، وأنها كانت أقوى الدولتين في أيام الفتح الإسلامي ، لأن هرقل امبراطور الروم انتصر على الساسانيين انتصارات حاسمة واسترد البلاد التي كان الساسانيون قد اغتصبوها من الروم ، كما أن حضارة الروم كانت أرقى حضارة علمية في وقتها ، وكان جيشها عريقاً في تنظيمه وتدريبه وتسليحه وقيادته ، كما كان يتحلى بالمعنويات العالية ، لانتصاره على الساسانيين . وما كان العرب قبل الإسلام في ميزان القوى والحضارة ينافسون لروم ولا يحلمون بمنافستهم ، وما كان الروم ضعفاء قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه المجيدة .

أما بعد الإسلام ، فقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الأمبراطورية البيزنطية في بلاد

الشم والجزيرة ومصر وشمالي أفريقية ؛ وهددوا الروم في عقر دارهم ! !

كيف حدثت المعجزة ؟ ! ذلك ما نعالجه في فتح بلاد الروم وشيكاً .

أباطرة الروم
من قسطنطين الأول إلى قسطنطين الحادي عشر[1]

١ ـ أسرة قسطنطين .

قسطنطين الأول الكبير توفي سنة ٣٣٧ .

قسطنطيوس ٣٣٧ ـ ٣٦١ حكم منفرداً بعد سنة ٣٥١ .

يوليان المرتد ٣٦١ ـ ٣٦٣ حكم منفرداً .

يوفيان GJovian ، ٢٦٣ ـ ٣٦٤ حكم منفرداً .

فلنس ، ٣٦٤ ـ ٣٧٨ .

---

(١) نقلاً عن كتاب . حضارة البيزنطية ـ ستيفن رونسمان ـ لندن ـ ١٩٤٨ ، انظر الأمبراطورية البيزنطية (٣٩٩ ـ ٤٠٩) Steven. Runciman : Byzantine Civilization , pp . 301 (London 1948) .

٢ ـ أسرة ثيودوسيوس .

ثيودوسيوس الأول الكبير ٣٧٩ ـ ٣٩٥ حكم منفرداً بعد سنة ٣٩٢ .

أركاديوس ٣٩٥ ـ ٤٠٨ .

ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ ـ ٤٥٠ ، كان انثيميوس وصياً من سنة ٤٠٨ ـ ٤١٤ .

مارقيان Marcian ٤٥٠ ـ ٤٥٧ .

٣ ـ أسرة ليو

ليو الأول ٤٥٧ ـ ٤٧٤ .

ليو الثاني ٤٧٤ .

زينون ٤٧٤ ـ ٤٩١ ، باسيليكوس المغتصب ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .

أناستاسيوس الأول ٤٩١ ـ ٥١٨ .

٤ ـ أسرة جستنيان

جستنيان الأول ٥١٨ ـ ٥٢٧ .

جستنيان الأول ٥٢٧ ـ ٥٦٥ .

جستين الثاني ٥٦٥ ـ ٥٧٨ ، صوفيا وصية من

٥٧٣ إلى ٥٧٤ ، وطيباريوس وصياً من ٥٧٤ إلى ٧٨ـ
طيباريوس الثاني ٥٧٨ ـ ٥٨٢ .

موريس ٥٨٢ ـ ٦٠٢ ، ثيودرس شريك في العرش
٥٠٩ ـ ٦٠٢ .

فوكاس Phocas ٦٠٢ ـ ٦١٠ .

٥ ـ أسرة هرقل

هرقل الأول ٦١٠ ـ ٦٤١ ، قسطنطين الثالث
٦١٣ ـ ٦٤١ ، وهرقليوناس ٦٣٨ ـ ٦٤١ .

قسطنطين الثالث ٦٤١ مارتينة Martina وصية
٦٤١ .

قنسطانز الثاني ٦٤١ ـ ٦٦٨ وهرقل وطيباريوس
٦٥٩ ـ ٦٨١ .

قسطنطين الرابع ٦٦٨ ـ ٦٨٥ .

جستنيان الثاني ٦٨٥ ـ ٦٩٥ .

ليونتيوس ٦٩٥ ـ ٦٩٨ .

طيباريوس طيبايوس الثالث ٦٩٨ ـ ٧٠٥ .

جستنيان الثاني ٧٠٥ ـ ٧١١ ، للمرة الثانية

طيباريوس ٧٠٦- ٧١١ .

فليكوس ٧١١-٧١٣ ، وباردانس Bardanes معه .

انستاسيوس الثاني ٧١٣- ٧١٥ ، وارتميوس Artemius .

ثيودوسيوس الثلث ٧١٥ - ٧١٧ .

٦ - الأسرة الأيسورية

ليو الثالث الأيسوري ٧١٧- ٧٤٠ ، وقسطنطين الخامس ٧٢٠- ٧٤٠ .

قسطنطين الخامس ٧٤٠- ٧٧٥ ، وليو الرابع ٧٥٠- ٧٧٥ .

ليو الرابع ٧٧٥- ٧٨٠ قسطنطين السادس ٧٧٦- ٧٨٠ .

قسطنطين السادس ٧٨٠- ٧٩٧ ايريني وصية ٧٨٠- ٧٩٠ ، ٧٩٢- ٧٩٧ .

ايريني ٧٩٧- ٨٠٢ .

نقفور الأول ٨٠٢- ٨١١ .

ستوراكسيوس ٨١١ .

ميخائيل الأول ٨١١ - ٨١٣ .

ليو الخامس ، الأرمني ٨١٣ - ٨٢٠ .

٧ - الأسرة العمورية (الفريجية)

ميخائيل الثاني ، العموري ٨٢٠ - ٨٢٩ ، وثيوفيلوس ٨٢١ - ٨٢٩ .

ثيوفيلوس ٨٢٩ - ٨٤٢ .

ميخائيل الثالث ، السكير ٨٤٢ - ٨٦٧ ، وثيودورا وصية ٨٤٢ - ٨٥٦ ، وباراس وصيا ٨٦٢ - ٨٦٦ ، وباسيل الأول ٨٦٦ - ٨٦٧ .

٨ - الأسرة المقدونية

باسيل الأول المقدوني ٨٦٧ - ٨٨٦ وقسطنطين ٨٦٩ - ٨٨٠ ، وليو السادس ٨٧٠ - ٨٨٦ ، والإسكندر ٨٧١ - ٩١٢ .

ليو السادس ، الحكيم ٨٨٦ - ٩١٢ ، وقسطنطين السابع ٩١١ - ٩١٣ .

الإسكندر ٩١٢ - ٩١٣ .

قسطنطين السابع ، الأرجواني ٩١٣ـ ٩١٩ ، ومجلس وصاية ٩١٣ وصية ٩١٣ـ ٩١٩ .

رومانوس الأول ٩١٩ ـ ٩٤٤ ، وقسطنطين السابع ٩١٩ ـ ٩٤٤ وكريستوفر ٩٢١ـ ٩٣١ وستيفن ليكابينوس ٩٢٤ـ ٩٤٥ وقسطنطين ليكابينوس ٩٢٤ـ ٩٤٥ .

قسطنطين السابع ، ٩٤٤ ـ ٩٥٩ ورومانوس الثاني حوالي ٩٥٠ـ ٩٥٩ .
بورفيروجينتوس

رومانوس الثاني ٩٥٩ـ ٩٦٣ ، وباسيل الثاني ٩٦٠ـ ٩٦٣ ، وقسطنطين الثامن ٩٦١ـ ١٠٢٥ .
باسيل الثاني ، سفاح البلغر ٩٦٣ ، ثيوفانو وصية ٩٦٣ .

نقفور الثاني ، فوكاس ٩٦٣ـ ٩٦٩ ، وباسيل الثاني ٩٦٣ـ ٩٧٦ .
يوحنا الأول ٩٦٩ـ ٩٧٦ .
باسيل الثاني ، سفاح البلغار ٩٧٦ـ ١٠٢٥ .
قسطنطين الثامن ١٠٢٥ ـ ١٠٢٨ .

رومانوس الثالث ، أرجيروس ١٠٢٨ ـ ١٠٣٤ ،
ميخائيل الرابع ١٠٣٤ ـ ١٠٤١ .
ميخائيل الخامس ، الشماع ١٠٤١ ـ ١٠٤٢ .
زوى وثيودورا ، الأرجوانيتان ١٠٤٢ .
قنسطنطين التاسع ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ .
ثيودورا ، الارجوانية ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ .
ميخائيل السادس ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧ .
اسحق الأول ، كومنينوس ١٠٥٧ ـ ١٠٥٩ .

٩ ـ أسرة دوكاس

قسطنطين العاشر ، دوكاس ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧ ،
وميخاييل السابع حوالي ١٠٦٠ ـ ١٠٦٧
ميخائيل السابع ١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ ، وايدوفيا وصية
١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ .
رومانوس الرابع ، ديوجينيس ١٠٦٨ ـ ١٠٧١ ،
وميخائيل السابع ١٠٦٨ ـ ١٠٧١ .
ميخائيل السابع ١٠٧١ ـ ١٠٧٨ .
نقفور الثالث ١٠٧٨ ـ ١٠٨١ .

١٠ ـ أسرة كومنين

ألكسيوس الأول ، كومنينوس ١٠٨١ ـ ١١١٨ ، وقسطنطين دوكاس ١٠٨١ حوالي ١٠٩٠ ويوحنا الثاني ١٠٩٢ ـ ١١١٨ .

يوحنا الثاني ، كالوجوهانيز ١١١٨ ـ ١١٤٣ ، وألكسوس ١١١٩ ـ ١١٤٢ .

مانويل الأول ١١٤٣ ـ ١١٨٠ ، وألكسيوس الثاني ١١٧٢ ـ ١١٨٠ .

ألكسيوس الثاني ١١٨٠ ـ ١١٨٣ ومارتة الأنطاكية وصية ١١٨٠ ـ ١١٨٢ وأندرونيكوس الأول ١١٨٢ ـ ١١٨٣ .

أندرونيكوس الأول ١١٨٣ ـ ١١٨٥ .

١١ ـ أسرة أنجيل

اسحاق الثاني ، أنجيلوس ١١٨٥ ـ ١١٩٥ .

ألكسيوس الثالث ١١٩٥ ـ ١٢٠٣ .

ألكسيوس الرابع ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ واسحق الثاني ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ .

ألكسيوس الخامس ١٢٠٤ .

١٢ ـ أسرة الأشاكرة

(أمبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ ـ ١٢٦١) .

ثيودور الأول الأشكري ١٢٠٤ ـ ١٢٢٢ .

يوحنا الثالث ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٢٢ ـ ١٢٥٤ .

ثيودور الثاني الأشكري ١٢٥٤ ـ ١٢٥٨ .

يوحنا الرابع ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٥٨ .

١٣ ـ أسرة باليولوجوس

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ ـ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٢ ، وأندرونيكوس الثاني ١٢٧٢ ـ ١٢٨٢ .

أندرونيكوس الثني ١٢٨٢ ـ ١٣٢٨ ، وميخائيل ١٢٩٥ ـ ١٣٢٠ واندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ ـ ١٣٢٨ .

أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ ـ ١٣٤١ .

يوحنا الخامس ١٣٤١ ـ ١٣٤٧ ، وحنة أميرة سافوي وصية ١٣٤١ ـ ١٣٤٧ .

يوحنا السادس ، كانتاكوزيني ١٣٤٧ ـ ١٣٥٥ ، ويوحنا الخامس ١٣٤٧ ـ ١٣٥٥ وماتيو كانتاكوزيني ١٣٤٨ ـ ١٣٥٥ .

يوحنا الخامس ١٣٥٥ ـ ١٣٧٦ .

أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦ ـ ١٣٧٩ ويوحنا السابع ١٣٧٦ ـ ١٣٩٠ .

يوحنا الخامس ١٣٧٩ ـ ١٣٩٠ ، وأندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ ـ ١٣٨٥ ومانويل الثاني ١٣٧٦ ـ ١٣٩١ .

يوحنا السابع ١٣٩٠ .

يوحنا الخامس ١٣٩٠ ـ ١٣٩١ .

مانويل الثاني ١٣٩١ ـ ١٤٢٥ ، ويوحنا السابع ١٣٩٩ ـ ١٤١٢ ويوحنا الثامن ١٤٢٣ ـ ١٤٢٥ .

يوحنا الثامن ١٤٢٥ ـ ١٤٤٨ .

قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٨ ـ ١٤٥٣ .

دراجاسيس .

ملاحظة :

كان بعض أباطرة الدولة البيزنطية يشتركون في الحكم كشركاء للأمبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان .

وقد وضعنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة إزاء الأباطرة الذين شاركوهم في الحكم ، ثم

عدنا فكتبنا أسماءهم في قائمة الأباطرة الرئيسة عندما تولوا الحكم .

أرجو ملاحظة ذلك عند دراسة هذه القائمة

فتح بلاد الروم

١ ـ الموقف لعام:

(أ) كان العرب قبل الإسلام ، على صلة وثيقة بالروم حكومة وشعباً ، فقد كان سكان الجزيرة عرباً ، وكانوا أغلب سكان هذا الأقليم الذي يقع بين النهرين : دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة تحت حكم الروم ، كما ذكرنا ذلك في بحث : بلاد الحزيرة .

وكانت دولة الغسسنة العربية قبل الإسلام في جزء من بلاد الشام ، وقد قامت هذه الدولة للروم مقام دولة المناذرة في العراق للفرس ، فكانت دولة حاجزة اتحذ الروم منها مجناً[1] يقيم شر هجمات الدو عليهم من

---

(١) لمجن : الترس .

أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضد الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى[1] ، فكان عرب الجزيرة والغساسنة على صلة قوية وتعاون مستمر بالروم وبعرب الحزيرة العربية وبخاصة تجار قريش .

وقد ذكرنا في الحديث عن طرق التجارة البيزنطية اتي تصل الشرق الأقصى ببلاد الروم وبالعكس ، أن أحد تلك الطرق الثلاثة المهمة ، وهو طريق الهند والصين البحري عبر البحر الأحمر ، يمر بمكة باعتبارها مركزً مهماً للتجارة قبل الإسلام ، ويتصل بتجارته أهل مكة العاملون بالتجارة ، مما يؤدي إلى التعارف والإتصال .

وفي سورة قريش المكية : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾[2] ، وكانت رحلة تجار قريش إلى اليمن شتاءاً لانها دافئة ، ورحلتهم إلى الشام

---

(١) كتاب : عصر ما قبل الإسلام ـ محمد مبروك نافع (١١١) ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ط ٢ .

(٢) الأيتان الكريمتان من سورة قريش (١٠٦ : ١ ـ ٢) .

صيفاً لأنها باردة ، فيمتارون ويتجرون[1] ، وكانت بلاد الشام يومئذ من أملاك الروم، مما أدى إلى اتصال العرب بالروم مباشرة في هذه الرحلة وفي المعاملات التجرية ، فكان لقسم من تجار قريش من أهل مكة وتجار الأوس والخزرج من أهل المدينة معرفة شخصية بحكام الروم ومنهم الأمبراطور وبشعب الروم من التحار ورجال الدين المسيحي ، كما سيرد ذكره قريباً .

وقد سافر النبي ﷺ قبل أن يبعث مرتين إلى بلاد الشام . مرة مع عمه أبي طالب في تجارته[2] ، ومرة مع ميسرة غلام خديجة بن خويلد بعد زواج النبي ﷺ بخديجة[3] ، فعرف بلاد الشام وعرف الروم .

وقصة لشاعر الجاهلي أمرىء القيس الذي قصد قيصر الروم يستمده معروفة ، فلما صار أمرؤ القيس إلى

---

(١) أنظر تفسيرها في الكشاف (٢٨٩/٣ ٢٩٠) وابن كثير (٣٠٤/٩ ـ ٣٠٧) والبغوي (٣٠٤/٩ ٣٠٧) والجامع لأحكام القرآن (٢٠٠/٢٠ ـ ٢٠٩) وفي ظلال القرآن (٢٦٠/٣٠ ـ ٢٦١) .

(٢) سيرة ابن هشام (١٩٤/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (٢٠٣/١) .

ملك الروم أكرمه ونادمه ، واستمده فوعده ذلك ، وقد وصف أمير الشعراء الجاهليين سفره إلى بلاد الروم ولقاءه بملك الروم في شعره الرائع ، ولا تزال كتب الأدب تحفل بهذا الشعر المتين[1] ، وهذا يدل على عمق الصلة بين العرب في جاهليتهم وبين الروم .

(ب) وجاء الإسلام ، فبدأ النبي ﷺ بالدعوة إليه سراً ، ثم أصبحت الدعوة إلى الإسلام علنية ، فاشتد عضد الإسلام والمسلمين بإقبال الناس على اعتناقه ، حتى أصبح خطراً يتهدد مصير المشركين من قريش في مكة ، وكان مولد الإسلام في ١٧ رمضان الموافق ٦ آب (أغسطس) من سنة (٦١٠ م)[2] .

وكانت الحرب مستعرة بين الروم والفرس ، بدأت سنة (٦١٠ م) وانتهت سنة (٦٢٨ م) ، وفي تلك الحرب انتصر الفرس على الروم في صفحتها الأولى ، فاحتلوا أرمينيا والجزيرة وبلاد الشام والقدس واستولوا

---

(١) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة (١ / ٦٠ ـ ٦٢) ـ لبنان ـ ١٩٦٤ .

(٢) سيرة خاتم النبيين (٤٣) ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ بيروت ـ ١٣٩٨ هـ ـ ط ٢ .

على العود المقدس للصليب ، واحتلوا مصر والعراق وهاجموا القسطنطينية واحتلوا مناطق شاسعة من آسيا الصغرى ، واستمرت انتصارات الفرس على لروم حتى سنة (٦٢٢ م) ، حيث أعد الروم الكرة على الفرس ، فاستعاد الروم أرمينيا ، وانتصروا على الفرس في معركة (نينوى) الحاسمة سنة (٦٢٧ م) ، وفي سنة (٦٢٨ م) كتب ملك الفرس إلى هرقل ملك الروم يطلب الصلح ، فصالحه هرقل على شروط أهمها : العودة إلى الحدود القديمة ، وإطلاق الأسرى ، وإرجاع الصليب المقدس ، فقبل شيرويه ملك الفرس هذه الشروط[1] .

واحتدم الجدل بين المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام بمكة قبل الهجرة وبين المشركين ، ولما كان الروم أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين دياناتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألاً بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان . ومن ثم نزلت الآيات الأولى من سورة الروم :

---

(١) الروم ـ أسد رستم (١/٢٢٣ ـ ٢٢٧) .

﴿ الم . غُلِبَت الروم . في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون . في بضع سنين ، لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾[1] تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين[2] . لقد كان المسلمون منحازين بعاطفتهم إلى الروم ، أما كفار العرب فكانوا يميلون إلى الفرس ، وشبيه الشيء منجذب إليه ، ولا أدل على ذلك من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه راهن أبي بن خلف وهو من وجوه كفار قريش على مائة بعير أن الروم سينتصرون[3] . إن احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين حول الروم دليل على تطلع الجانبين على أخبارهم وتتبع الأخبار واقتناصها ،ولا

---

(١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ـ ٥) .

(٢) أنظر تفسير الآيات الكريمة في - ظلال القرآن (٢١/ ٢٠ ـ ٢٢) وصفوة التفاسير (١٢/ ٦) .

(٣) الروم (١/ ٢٣٤) ، وأبي بن خلف بن وهب بن جمح القرشي الجمحي ، قتل مشركاً يوم أحد ، أنظر جمهرة أنساب العرب (١٥٩) .

يكون ذلك إلا لأهمية الروم في نفوس العرب بالرغم من تناقض عقيدتهم .

(ج) وهاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، وهاجر معه من هاجر من المسلمين ، فازداد تماس المسلمين بالروم في السلام والحرب .

فقد أقبل دِحية بن خليفة الكلبي[1] من عند قيصر الروم وقد أجازه وكساه ، وكان من كبار صحابه رسول الله ﷺ ، وفي طريق عودته إلى المدينة المنورة لقيه الهُنَيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد في ناس من بني جُذام بـ (حِسْمى)[2] ، فقطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا عليه إلا سَمَل ثوب ، فسمع بذلك نفر من بني الضُّبيب ، فنفروا إليهم ، واستنقذوا لدحية متاعه .

وقدم دحية على النبي ﷺ ، فأخبره بذلك ، فبعث

---

(١) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا سفراء النبي ﷺ .

(٢) حسمى . أرض ببادية الشام ، بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٧٦) .

زيد بن حارثة الكلبي[1] في خمسمائة رجل ، ورد معه دحية ، فأدبت سرية زيد بني جُذام وقتلت الهنيد وابنه[2] ، وهذا يدل أن قسماً من صحابة رسول الله ﷺ كانت لهم علاقة بملك الروم ، كما أن بادية الشام التي تقع فيها (حِسمى) كانت تحت نفوذ الغساسنة حلفاء الروم ، ومهاجمة من فيها مهاجمة مباشرة للروم لأن جذام حلفاؤهم .

وكانت سرية حسمى في حمادى الآخرة من السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) .

وبعث النبي ﷺ إلى (مؤتة)[3] في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية (٦٢٩ م) زيد بن حارثة الكلبي في

---

(١) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة النبي ﷺ

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٨٨) ومغازي الواقدي (٢/ ٥٥٥ - ٥٦٠)

(٣) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) وهي بأدنى البلقاء في حدود الشام ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) وهي بأدنى البلقاء دون دمشق ، أنظر طبقات ابن سعد (٢/١٢٨) ، والبلقاء - هي الأردن الحالية

سرية مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد وكان سبب بعث هذه السرية ، أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب إلى ملك (بُصرى)[1] بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وندب الناس ، فأسرعوا وعسكروا بالجرف[2] ، فقال رسول الله ﷺ : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم »

واستشهد القادة الثلاثة بالتعاقب ، واصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فسحب قوات المسلمين من ميدان المعركة ، لإنقاذهم من معركة خاسرة تجاه تفوق العدو العَدَدي والعُدَدي[3] .

---

(١) بصرى : مدينة من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٣٠٨) .

(٢) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ٨٦) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢ / ١٢٨ - ١٣٠) ومغازي الواقدي (٢ / ٧٥٥ - ٧٦٩) .

وهكذ التقى المسلمون لأول مرة بقوات الغساسنة المتفرقة ، والغساسنة حلفاء الروم الأقربون ، ولقاؤهم كلقاء الروم لا فرق بينهم في شيء . ولم ينتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً مادياً ، بل انتصروا انتصاراً معنوياً ، فاصبح لديهم خبرة سكان المنطقة وأساليبهم القتالية وطبيعة أرضهم ، وهذا ما انتفع به المسلمون في معارك الفتوح .

وفي رجب من السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠ م) كانت غزوة تبوك [١] ، فقد بلغ رسول الله ﷺ ، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هِرقل أمبراطور الروم قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لَخْم وجُذام وعامِلة وغسان ، وقدموا مقدِّمتهم إلى البلقاء ، فسار عليه الصلاة والسلام على رأس ثلاثين ألف مجاهد إلى تبوك منهم عشرة آلاف فارس ، وكان الروم قد أكملوا تحشد قواتهم المؤلفة من جنودهم النظاميين ومن القبائل

---

(١) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل ، أنظر التفصيل في معجم البلدان (٢/ ٧٦٥)

العربية الموالية للروم في تبوك قبل وصول المسلمين إليها ، ولكن المعلومات التي وصلت إليهم عن ضخامة جيش المسلمين ومعنوياتهم العالية اضطرت الروم إلى الإنسحاب من تبوك شمالاً . ويبدو أن الروم لم يقدروا خطورة هذه الغزوة وأهميتها ، وحسبوها غارة من غارات البدو التي تنقشع سرعة دون أن تترك أثراً باقياً وتأثيراً كبيراً ، لذلك انسحبوا تلافياً لخسائر لا مسوغ لها . أما المسلمون ، فكان انتصارهم مادياً إذ صالحوا صاحب (أيلة)[1] ومناطق أخرى من بلاد الشام ، وكان انتصارهم معنوياً ، إذ ارتفعت معنوياتهم ، فكانت هذه الغزوة فاتحة لفتح بلاد الروم[2] .

(د) وفي هذه الغزوة ، وهي غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي ﷺ ، تخلف ثلاثة من الصحابة دون عذر مشروع ، ولما عاد النبي ﷺ والمسلمون الذين

(١) أيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام ، وهي آخر الحجاز وأول الشام ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩١/١) .

(٢) الرسول القائد (٣٨٧ - ٣٩٤)

كانوا معه من تبوك إلى المدينة المنورة ، اعترف هؤلاء المتخلفون بذنبهم في تخلفهم . ونهى النبي ﷺ المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم والأرض ، فما هي بالأرض التي كانوا يعرفون ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة . وكان أحد المتخلفين الثلاثة وهو كعب بن مالك[1] ، أشب القوم وأجلدهم ، وكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد . قال : «ثم غدوت إلى السوق ، فبينما أنا أمشي بالسوق ، وإذا نبطي[2] يسأل عني من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له إليّ ، حتى جاءني ، فدفع إليّ

---

(١) كعب بن مالك : أنظر سيرته في الإستيعاب (٣ / ١٣٢٣) وأسد الغابة (٤/٢٤٧) والإصابة (٥/٣٠٨) والاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (١٦٠ ـ ١٦٢) .

(٢) نبطي : نسبة إلى النبط ، وهم الأنباط والأنباط شعب سامي ، كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، وعاصمتهم سلع ، وتعرف اليوم بـ (البتراء) والأنباط مشتغلون بالزراعة ، واستعمل أخيراً في أخلاط الناس من غير العرب

كتاباً من مَلِك غسان وكتب كتاباً في سَرَقَةٍ[1] من حرير ، فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك. فقلت حين قرأتها . وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها إلى تنور فسجرته[2] بها » .

وقصة اتصال انبطي بكعب بن مالك ، يدل على أن الغساسنه حلفاء الروم كانوا يترصدون حركات المسلمين وسكناتهم ، وأن مخابرات هؤلاء كانت يقظة أشد اليقظة ، تراقب المسلمين وتعرف تفاصيل أخبارهم ، وأنهم كانوا يحاولون انتهاز الفرص لشق الصفوف وإثارة الأحقاد والنعرات والإختلافات بين المسلمين .

ولكن المسلمين لم يكونوا يجهلون نشاط الغساسنة المعادي في اقتناص المعلومات عن أحوال المسلمين

---

(1) سرقة : شقة من الحرير ، ويقال السرق أحسن الحرير وأجوده
(2) سجرته بها : أي أحرقتها ، وأهبت بها التنور

وعن قوة جبهتهم الداخلية وضعفها ، وعن آمال المسلمين وآلامهم ، فقد كانوا يراقبون هذا النشاط مراقبة دقيقة ، ولديهم وسائلهم الخاصة في مكافحة المخابرات المعادية من جهة في الداخل ، وتسرب مخابراتهم للحصول على المعلومات عن الروم وحلفائهم من جهة أخرى في الخارج ، فكانوا يحمون أنفسهم من مخابرات العدو داخلياً وخارجياً . ولعل إيمان المسلم الراسخ - كما هو الحال في قصة كعب - هو المعيل الواقي من محاذير المخابرات المعادية .

ومن الواضح ، أن الغساسنة كانوا يبلغون الروم بالمعلومات التي يحصلون عليها عن المسلمين ، وبخاصة إذا كان لتلك المعلومات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموقف العسكري الذي يؤثر في مصير الغساسنة والروم[1] .

---

(١) لبث المخلفون الثلاثة خمسين ليلة يقاطعهم المسلمون مقاطعة صارمة ويهجرهم أهلوهم حتى زوجاتهم ، ثم تاب الله عليهم ، بعد أن نزل بهم ما نزل من عقاب نفسي صارم ، ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى ، فشرط التوبة النصوح الابتعاد عن الذنوب . وقد أنزل =

(هـ) وتصاعدت الإتصالات بين المسلمين والروم وحلفائهم في السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) ، فبعث النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي[1] إلى هرقل أمبراطور الروم وإلى الأسقف الأعظم في الروم ، وبعث شجاع بن وهب الأسدي[2] إلى الحارث بن شَمِر الغساني ملك الغساسنة في بلاد الشام ، وحاطِب بن أبي بلتعة اللخمي[3] إلى المقوقس ملك الإسكندرية وهو قيرس بطريرك الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر ، بعثهم يدعو هؤلاء الملوك والرؤساء إلى الإسلام ، وكانت بلاد الشام ومصر

= الله في التوبة عليهم : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم) ، التوبة (٩ : ١١٨) .

(١) دحية بن خليفة الكلبي : أنظر سيرته المفصلة في كتاب - سفراء النبي ﷺ - ٩٠ .

(٢) شجاع بن وهب الأسدي : أنظر سيرته المفصلة في كتاب - سفراء النبي ﷺ .

(٣) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي : انظر سيرته المفصلة في كتاب . سفراء النبي ﷺ

في حينه ضمن ممتلكات الأمبراطورية البيزنطية ، إذ وصل هؤلاء الدعاة أو السفراء في هذه السفارات النبوية في السنة السابعة الهجرية (٦٢٨ م) ، وكانت هذه البلاد قد عادت إلى الروم بعد اندحار الساسانيين كما سبق ذكره .

وبارسال هؤلاء السفراء الجدد إلى هؤلاء الملوك ، اتضحت الرؤية بالنسبة للروم وحلفائهم والمسلمين ، فعرف كل طرف منهم ما يريده صاحبه منه . وما يستطيع ان يتقبله وما لا يستطيع ، فعرف كل طرف منهم ما يريده صاحبه منه ، فعرف النبي ﷺ والمسلمون أمبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر عن كثب ، وعرفوا حقيقة نواياهم تجاه الدين الجديد .

كما عرف أمبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر ما يريد النبي ﷺ منهم ، فتحقق ما كان يسمعونه بما رأوه عيانا .

وأراد قيصر الروم استقصاء أخبار النبي ﷺ من أبناء

جلدته العرب ، فاستدعى جماعة من تجار العرب ـ كما روى لإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنه ـ وكان بين الذين استدعاهم هرقل أبو سميان بن حرب ، فسأل أبا سفيان بن حرب ، فسأل أبا سفيان عن النبي ﷺ وعن أخباره ، وناقشه في أقواله مناقشة مستفيضة[1] ، وقد كتب هرقل إلى النبي ﷺ جواباً على رسالته ، وبعث بكتابه الجوابي مع دحية[2] ، ويبدو أن قلب هرقل مال إلى الإسلام ، ولكنه خاف من الروم على مصيره إن هو أعلن إسلامه[3] .

أما الحارث بن شَمِر الغساني فلم يسلم ، وأراد أن يسير إلى النبي ﷺ ، فمنعه هرقل من المسير إليه ، وأمره حتى يلقاه بالقُدس وشيكاً[4] .

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/٧ ـ ٨) وفتح الساري شرح لبخاري (١/٣٠ ـ ٣٨) ، وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) .

(٣) الطبري (٢/٦٤٩ ـ ٦٥٠) وابن لأثير (٢/٢١١)

(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٢٦١) ، وانظر ابن الأثير (٢/٢١٣) والبداية والنهاية (٤/٢٦٨) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٦٣)

وأما المقوقس ، فقد أكرم سفير النبي ﷺ وأحسن نزله[1] ، وبعث معه هدايا إلى النبي ﷺ[2] .

لقد كان في هذه السفارات كسب معنوي لا شك فيه ، فقد ازداد اطلاع الروم وحلفائهم على الدين الجديد وعلى أخبار المسلمين ، واتجه تفكير الناس في بلاد الروم وبلاد الشام ومصر إلى الإسلام والمسلمين . كما ازداد اطلاع المسلمين على نظام الحكم في تلك الاصقاع ، وأحوال سكانها ومصدر قوتهم وضعفهم ، وطبيعة أرضهم ، مما كان له أثر في الفتح لا يمكن تجاهله ولا التقليل من قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نلخص الموقف العام قبل الفتح الإسلامي للبلاد التي كانت تُحكم من الروم ولبلاد الروم الأصلية ، بالنسبة للعلاقة بين العرب والروم قبل

---

(١) فتوح المغرب (٦٧)

(٢) الطبري (٢/ ٦٤٥) وبن الأثير (٢/ ٢١١)

الإسلام على عهد النبي ﷺ ، بأن العرب كانوا على صلة وثيقة بالروم ومعرفة تامة بأحوالهم ، وكان نشاطا الجانبين معروفين لكل جانب منهما ، فالغساسنة العرب حلفاء الروم المقربون ، والتجارة متبادلة بين الجانبين ، والنبي ﷺ قد سافر إلى بلاد الشام مرتين في التجارة ، وقد حدثت مناوشات بين المسلمين وحلفاء الروم عدة مرات كان أهمها في سرية مُؤْتَة وفي غزوة تبوك ، وكانت مخابرات الروم متغلغلة في المناطق الإسلامية ، ومخابرات المسلمين متغلغلة في بلاد الروم وبخاصة بلاد الشام ، وكانت هناك سفارت نبوية بين المسلمين والروم وحلفائهم لم تثمر نتائج مادية في نشر الإسلام ، بل أثمرت ثمرات معنوية يانعة كما ذكرنا ، وكان هذا الإتصال المستمر تمهيداً للفتح .

٢ ـ فتوح البلاد المحكومة من الروم :

فتح خالد بن الوليد مدينة بُصْرى وهو في طريقه من العراق إلى الشام سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤ م) ، فكانت بصرى (بُثْرا Bothra)أو (البتراء) أول مدينة

فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق[1] . وفي هذه السنة انتصر المسلمون على جيش الروم في معركة اليرموك الحاسمة ، وفتحوا دمشق وساحل دمشق وبيسان وطبرية[2] .

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) فتح المسلمون حمص وبعلبك وقنسرين وحلب وانطاكية وقيسارية وبيسان[3] وبيت المقدس[4] ، وبذلك استكمل المسلمون فتح بلاد الشام (سورية ، لبنان ، والأردن ، وفلسطين) وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية .

وفي سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨ م) فتح المسلمون الجزيرة[5] كما فتحوا أرمينيا في تلك السنة أيضاً وسنة تسع عشرة الهجرية[6] (٦٤٠ م) وسنة اثنتين

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٤٠٩) .
(٢) انظر ابن الأثير (٢/ ٤٠٠ و ٤٢٧ و ٤٣١) .
(٣) الطبري (٣/ ٥٩٩ و ٦٠١ و ٦٠٣ و ٦٠٥) .
(٤) الطبري (٣/ ٦٠٧) وابن الأثير (٢/ ٤٩٩) .
(٥) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢) .
(٦) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٣)

وعشرين الهجرية (٦٤٢)، وسنة خمس وعشرين الهجرية[1] (٦٤٥ م)، وكان فتحها بالتدريج لوعورة أرضها وبعدها عن قاعدة المسلمين في العراق وسعة مساحتها أيضاً. وفتح المسلمون أذربيجان سنة اثنتين وعشرين الهجرية[2] (٦٤٢ م) وصالحه المسلمون نهائياً سنة خمس وعشرين الهجرية[3] (٦٤٥ م)، وبذلك طُوقت بلاد الروم الأصلية من الجنوب ومن الشرق تطويقاً كاملاً.

وفي سنة عشرين الهجرية[4] (٦٤٠ م) فتح المسلمون مصر عدا الإسكندرية، وفي سنة إحدى وعشرين الهجرية (٦٤١ م) فتح المسلمون الإسكندرية[5]، وتقدم المسلمون نحو ليبيا ففتحوها سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢ م) وسنة ثلاث وعشرين

---

(١) ابن الأثير (٣/٨٣).

(٢) الطبري (٤/١٥٣)

(٣) ابن الأثير (٣/٨٣).

(٤) ابن الأثير (٢/٥٦٤)

(٥) البلاذري (٣٠٤).

الهجرية[1] (٦٤٣ م) ، وباختصار لم تحل سنه تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩ م) حتى كان أكبر قسم من الولايات البيزنطية في شمالي أفريقيا شمولاً بالفتح الإسلامي .

لقد كانت انتصارات المسلمين تبعث على الدهشة حقاً[2] .

٣ - فتح أبي عبيدة بن الجراح (٨٢) :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) بعد فتح حلب ، سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية ، وقد تحصن بها كثير من الناس من قنسرين وغيرها ولما فارق حلب لقيه جمع العدو ، فهزمهم والجأهم إلى أنطاكية وحاصرها من جميع نواحيها . ثم إن أهل أنطاكية صالحوه على الجلاء أو الجزية ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ، فآمن الذين بقوا في المدينة . ولكن أهل

---

(١) ابن الأثير (٢٥/٣) .
(٢) الأمبراطورية البيزنطية (٣٦٠) .

أنطاكية نقضوا، فوجه أبو عبيدة[1] إليهم عياض بن غنم[2] وحبيب بن مسلمة[3]، فأعادوا فتحها من جديد.

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلما فُتحت كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة: «أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء»[4].

٤ - فتح خالد بن الوليد:

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م)، وجه أبو عبيدة بن الجراح خالداً وهو بـ (مَنْبِج) إلى مَرْعَش، ففتحها وأجلى أهلها وأخربها كما أنه فتح حصن الحَدَث[5].

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح. أنظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٥٤/٨١).

(٢) عياض بن غنم. أنظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ - ٤٣٥).

(٣) حبيب بن مسلمة. أنظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.

(٤) ابن الأثير (٢/٤٩٥).

(٥) تاريخ أبي الفدا (١/١٦٠).

٥ ـ فتح حبيب بن مسلمة :

أمد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عياض بن غنم بحبيب بن مسلمة ، فقدم على عياض بالجزيرة ، فقاتل حبيب تحت لواء عياض وفتح شِمْشَاط[١] وملطية عنوةً ، ثم نقض أهلها الصلح ، فلما ولى معاوية الشام وجه إليها حبيب بن مسلمة أيضاً ، ففتحها عنوة ورتب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها[٢] .

وقد جرى فتح شمشاط وملطية سنة سبع عشرة الميلادية (٦٣٨ م) .

وارتبكت أمور ارمينيا في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان حبيب بن مسلمة يجاهد في تلك المناطق ، وكان على الكوفة الوليد بن عُقبة[٣] ، فكتب إليه عثمان : « إن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي يخبرني

---

(١) شمشاط : مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٩٣) ، وهي غير سميساط .

(٢) ابن الأثير (٢/٥٣٥) .

(٣) الوليد بن عقبة بن أبي معيط : أنظر سيرته في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٤٩ ـ ٤٦٨) .

أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة ، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فابعث إليهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه ، والسلام »[1]

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال ، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي ، فانتدب معه ثمانية آلاف ، ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم ، فشنوا الغارات على أرض الروم مع حبيب ، وأصاب الناس ما شاؤوا ، وافتتحوا حصوناً كثيرة[2] .

وبلغ حبيب بن مسلمة أن بطريق (أرميناقس)[3] وهي بلاد (ملطية) و (سيواس) وقونية وأنقرا وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية واسمه الموريان قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم[4] . وأجمع

(١) ابن الأثير (٣/٨٣) .

(٢) ابن الأثير (٣/٨٣ـ٨٤) .

(٣) أرميناقس : هي بلاد ملطية وسيواس وأنقرا وقونية وما والاها من البلاد ، وإلى خليج القسطنطينية ، أنظر ابن الأثير (٣/٨٤)

(٤) ابن خلدون (٢/١٠٠١) وزاد ابن الأثير (٣/٨٤) . ملطية=

حبيب على تبييت الروم ، فبيتهم وقتل من وقف له ، وانتصر على الروم ، فعاد أدراجه إلى مقره في أرمينيا ، وقد جرت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م) .

٦ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهلي :

فتح سيواس وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية (البسفور) مع حبيب بن مسلمة ، فقد فتحا هذه المنطقة الشاسعة من بلاد الروم متعاونين على أفضل ما يكون التعاون ، وكان سلمان اليد اليمنى لحبيب في فتحه .

٧ ـ فتح محمد بن مروان بن الحكم :

في سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، استعمل عبد الملك بن مروان أخاه محمداً على الجزيرة وأرمينيا ، فغزا منها وأثخن في العدو ، وهزم الروم ، وقتل وسبى وغلب على البلاد

---

* وسيواس وأقصرا . . . الخ

وفي سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣ م) غزا الروم صيفا ، فبلغ أندولية وعاد منها منتصراً .

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٣ م) ، غزا الروم صيفا ، فخرجت الروم في جمادى الأولى من هذه السنة من قبل مرعش ، فالتقى المسلمون بعمق مرعش بالروم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت الروم ، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون .

وفي سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥ م) ، غزا الروم من ناحية ملطية .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، غزا أرمينيا ، فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها غدراً بعد أن صالحهم محمد .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) ، غزا أرمينيا ، فصاف فيها وشتى .

وهكذا قضى أكثر سني حكمه للجزيرة وارمينيا بالغزو ومصاولة الروم وأهل أرمينيا ، فاستعاد فتح أرمينيا وشطراً من بلاد الروم .

٨ - فتح مسلمة بن عبد الملك :

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) ، غزا مسلمة أرض الروم . وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦ م) ، غزا الروم فأثخن فيهم بناحية لمصيصة ، وفتح حصوناً كثيرة منها حصن بولق والخرام وبولس وقمقيم وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم .

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الروم ، فاصطدم الطرفان فانهزم الروم ، ثم أعادوا الكرة فانهزم المسلمون . ولكن العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس الساقة ، وقام المسلمون بهجوم مضاد ، فانهزم الروم حتى دخل المسلمون (طوانة) بعد قتال وشتوا فيها . كما فتح مسلمة في هذه السنة حرثومة وثلاثة حصون : حصن قسطنطين وحصن غزالة وحصن الأخرم .

وقد تكرر فتح حصن الأخرم سنة سبع وثمانين وثمان ثمانين الهجريتين ، ومن المحتمل أن الروم

استعادوه ، فعد إليه مسلمة وفتحه مرة بعد أخرى .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) ، غزا مسلمة والعباس بن الوليد الروم ، ففتحا عمورية وافتتح هرقلة وقونية .

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية .

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠ م) ، غزا أرض الروم ، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية . وكان مسلمة قد فتح حصن الغزالة سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) غزا مسلمة الروم ، فافتتح سندرة ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم

القسطنطينية ، ومن الغزو مبشرة عاد مسلمة إلى الديار المقدسة ، فحج بالناس في هذه السنة

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) ، غزا مسلمة الصائفة في بلاد الروم .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ، غزا مسلمة أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح الذي كان من قادة مسلمة المرؤسين . وفيها أيضاً غزا برجمة وحصن ابن عوف ، وافتتح أيضاً من حديد حصن الحديد وفتح سرورا ، وشتى بأرض الروم ، وكان مسلمة قد فتح حصن الحديد وبرجمة سنة ثلاث وتسعين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

وفي هذه السنة بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية ، وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) فرض مسلمة الحصار على القسطنطينية سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧ م) ،

وتفاصيل الحصار في سيرة مسلمة مفصلة ، ويستطيع أن يتدارسها من يريد في هذا الكتاب : قادة فتح بلاد الروم .

٩ـ فتح عبد الله بن عبد الملك بن مروان :

في سنة ثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح حصن سنان من ناحية المصيصة .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) ، غزا عبد الله الروم ، ففتح طُرندة .

وفي سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) ، فتح عبد الله المصيصة ، فبناها وبنى حصنها على أساسها القديم ، ووضع بها سكاناً من المسلمين ، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن .

ووجه قواته في هذه السنة إلى حصن سنان ، ففتحه ، ويبدو أنه فتح هذا الحصن ثانية ، لأنه كان قد

فتحه سنة اثنتين وثمانين الهجرية كما ذكرنا .

١٠ - فتح العباس بن الوليد بن عبد الملك :

في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) ، فتح العباس بالتعاون مع مسلمة بن عبد الملك بعض بلاد الروم منها طوانه .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) ، غزا مسلمة بن عبد الملك ومعه العباس أرض الروم ودخلاها جميعاً ، ثم تفرقا ، فافتتح العباس (أذرولية) ، ووافق من الروم جمعاً فهزمهم ، كما غزا العباس الصائفة من ناحية البَذَندون .

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا العباس الروم حتى بلغ الأرن في رواية ، وحتى بلغ سورية في رواية أخرى ، والثانية أصح ، لأن ذلك يجمعه بقوات مسلمة .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح سمسطية (سبيطلة = سبسطية) ، والظاهر أنها مدينة سميساط . كما فتح في

هذه السنة المرزبانين في منطقة طرسوس ، وفتح طولس (طرسوس) .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) ، فتح العباس مدينة أنطاكية كما فتح قارطة .

والمعروف أن أنطاكية فتحها أبو عبيدة بن الجراح لأول مرة سنة خمس عشره لهجرية (٦٣٦ م) كما ذكرنا ، ولكن الروم استعادوها لنشوب الإضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين ، فأعاد العباس فتحها من جديد .

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، غزا العباس بلاد الروم ، ففتح طولس (طرسوس) والمرزبانين وهرقلة .

وقد تكرر فتح طولس والمرزبانين مرتين : مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، ومرة سنة خمس وتسعين الهجرية ، ولعل سبب ذلك هو في اختلاف المؤرخين بالتوقيت ، والإختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف .

وقد يكون سببه ، أن العباس فتحهما مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، فانتقضتا ، فأعاد فتحهما من جديد سنة خمس وتسعين الهجرية .

أما هرقلة ، فقد فتحها مسلمة بن عبد الملك سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) ، فمن المحتمل أن الروم استعادوها من المسلمين ، فجدد فتحها العباس ، وأعادها كرة أخرى إلى حوزة المسلمين .

وفي سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح مدينة (رَسْمُه) أو (دلسه) أو (أواسي) .

١١ ـ فتح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك :

في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) ، غزا عبد العزيز بلاد الروم ، فبلغ حصن غزالة في هذه الغزوة وفتحها .

ومن المعروف أن هذا الحصن كان قد فتحه مَسْلَمة بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) ، مما يدل على أن الروم استعدوه من المسلمين بعد

فتحه ، فأعاده عبد العزيز إلى سيطرة المسلمين مرة أخرى

١٢ ـ فتح داؤود بن سليمان بن عبد الملك :

في سنة سبع وتسعين لهجرية (٧١٥ م) ، جهز سليمان بن عبد الملك اجيوش لفتح القسطنطينية ، واستعمل ابنه د ؤود على الصائفة ، فافتتح حصن المرأة .

في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) ، غزا داؤ ود أرض الروم ففتح حصن المرأة ثانية ، كما فتح حصن الأجرب .

وقد تكرر فتح حصن المرأة في هذه السة ، وسبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجرية ، مما يدل على أن الروم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلة المدافعين عنه من المسلمين على ما ترجحه .

وكان فتح هذين الحصنين في هذه السة ، لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الإسلامية الزاحفة لفتح القسطنطينية ، لأنها الشريان الرئيسي لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية

بالقسطنطينية ، وعليها تتحرك الإمدادات البشرية والإدارية من تلك القواعد إلى الجيوش الزاحفة ، وكل قائد لا بد له من تأمين خطوط مواصلاته بالرمايا في المناطق الجبلية والحصون .

وقد كان داؤود بإمرة عمه مسلمة قائداً مرؤساً في ملحمة حصار القسطنطينية ، والظاهر أنه استعاد فتح حصن المرأة وفتح حصن الأجرب ، وهو في طريقه إلى القسطنطينية ، إذ كان يومئذ قائداً لأحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الروم . وبقي داؤود مع عمه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) حتى تم انسحاب مسلمة عن حصار القسطنطينية بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧ م) ، بعد أن بقي المسلمون يحاصرون القسطنطينية ثلاثين شهراً .

١٣ ـ فتح معاوية بن هشام بن عبد الملك :

في سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧ م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصناً يقال له : حصن طيبة ، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكية بخسائر في الأرواح .

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨) ، غزا معاوية أرض الروم ففتح حصنين كبيرين من حصونهم : حصن صِمَلة والبوة . وصملة هذه هي صِمالو التي تقع قرب المصيصة وطرسوس .

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبد الملك أرض الروم على الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية ، فوغل معاوية في بلاد الروم ، وانصرف ولم يلق كيداً .

وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فافتتح خَرشَنَة من ناحية ملطية وحرق فرندية من ناحية ملطية أيضاً .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فرابط في ناحية مرعش ثم رجع .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه

سليمان بن هشام أرض الروم الصائفة اليمنى مما يلي الجزيرة ، فأصاب معاوية ربض أقرن ، وبلغ سليمان قيسارية . والظاهر أن أقرن تقع في ناحية ملطية ، استناداً إلى اتجاه الصوائف اليسرى وسير الحوادث .

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٧٣٣ م) ، غزا معاوية الروم الصائفة حتى أتى أفلاغونيا ، وجرت هذه الغزوة في شهر رمضان ، وافتتح حصوناً .

وفي سنة ست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤ م) ، غزا معاوية بلاد الروم على الصائفة ، كما غز سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥ م) ، مبلغ في غزوته سبيرة وبلغت سراياه سردة .

وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجرية (٧٣٦ م) ، غزا معاوية وأخوه سليمان أرض الروم .

١٤ـ فتح مروان بن محمد بن مروان :

في سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤ م) في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان ، تولى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أول قيادة عسكرية له ، وكان

عمره يومئذ ثلاثين سنة .

فقد تولى الصائفة اليمنى ، فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ التي تعد من أرض الجزيرة .

وكان مروان مع مسلمة بن عبد الملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) في جهاده الذي امتد من الحزيرة إلى بلاد الروم وأذربيجان وارمينيا ، فعزل هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة ، وولى مروان بن محمد على الحزيرة وأذربيجان وأرمينيا ، فكان نشاط مروان في الفتوح منصباً على أرمينيا ، وبقي في قيادته مجاهداً حتى سنة إحدى وعشرين ومئة ، ونشاطه في هذا الميدان في سجل فتح أرمينيا نشاط متميز مرموق .

١٥ - فتح محمد الفاتح :

فتح محمد مدينة القسطنطينية عاصمة الروم ، وكانت خطة الفتح وتنفيذها وتوقيت عمليات الفتح ونتائج الفتح مهمة جداً ولا تزال وستبقى كذلك ، ولا يمكن اختصار تلك الأعمال المجيدة بسطور أو كلمات ، فلا بد

من الرجوع إليها في كتاب : قادة فتح الروم ، لاستيعاب تفاصيلها كما ينبغي في سيرة : محمد الفاتح ، الذي كان آخر قادة فتح بلاد الروم تسلسلاً . وأهمهم انجزاً وفتحاً ، وحسبه أن يقال عنه : أنه فاتح القسطنطينية ، وكفاه بذلك فخراً وذكراً .

ولم يقتصر فتح محمد الفاتح على القسطنطينية على أهميته ، بل شمل فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى ، وفي أوروبا ، مما تجد تفاصيله في فتوح هذا القائد العظيم الذي أصبحت فتوحاته معروفة ومقدرة ليس على النطاق الإسلامي وحده ، بل على النطاق العالمي أيضاً .

عبرة الفتح

استهان الروم بالعرب بعامة وعرب الجزيرة العربية بخاصة ، قبل الإسلام ، وبعد الإسلام . وإذا كان هناك ما يسوغ لهم هذه الإستهانة بالعرب قبل الإسلام ، لتفرقهم وتناحرهم وضعف قوتهم وانصرافهم إلى المنافع الشخصية المادية والمعنوية بحدود المكاسب الفردية

لغاية نطاق العشيرة أو القبيلة ، دون أن يكون للمصلحة العربية العامة أهمية تذكر في ميزان العربي قبل الإسلام . كما أن العرب كانوا يؤمنون بعقائد شتى ، وكانوا في سوادهم الأعظم مشركين ، فكانت تلك العقائد المتخلفة تفرق ولا توحد ، وتهدم ولا تبني ، وتؤخر ولا تقدم ، وتثير بين معتنقيها العداوة والبغضاء والحقد والتناحر ، ولعل . «أيام العرب في الجاهلية»[1] في حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرهما ، تحكى قصة الاقتتال المستمر بين الأشقاء العرب لأسباب تافهة ، فكان باسهم بينهم شديداً ، حتى قال قائلهم .

ومَن تكن الحضارة أعجبته
فأي رجال بادية ترانـا

---

(١) أنظر كتاب « أيام العرب في الجاهلية ـ محمد أحمد جاد المولى بالإشتراك ـ القاهرة ـ ١٩٤٢ ، فقد سجل التاريخ للعرب (٨١) اقتتالا في مدة قصيرة ، وما لم يسجله أكثر عدداً . والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة ، أنظر فجر الإسلام (٨٦/١) . والجاهلية : زمان الفترة بين رسولين . والجاهلية : ما كان عليه العرب من الجهالة والضلالة قبل الإسلام ، أنظر معجمات اللغة .

ومـــن ربط الــجــحــاش فــأن فــيــنــا
قَــنــاً سُــلــبــاً[1] وأفــراســاً حِــســانــا
وكُــنَّ إذا أغــرْنَ عــلــى قــبــيــل
فــأعــوزهُــن نــهــبٌ حــيــث كــانــا[2]
أغَــرنَ عــلــى الــضِّــبــاب عــلــى حــلالٍ
وضَــبَّــة أنّــه مَــن حــانَ حــانــا[3]
وأحــيــانــاً عــلــى بَــكــرٍ أخــيــنــا
إذا مــا لــم نــجــد إلا أخــانــا[4]

هؤلاء هم عرب الجزيرة العربية ، أنفسهم عليهم لا على أعدائهم ، فهي أشد ضرراً عليهم لأنها أعدى أعدائهم ، فلا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة .

---

(١) قناً . جمع قناة ، والقناة : الرمح الأحوف وسساً : أي طوال
(٢) القبيل : الجمع من الناس .
(٣) الضباب : اسم القبيلة . والحلال المحاور ، يقال : حي حلال : أي مجاور مقيم بالقرب منه يقول . أغرن عى الحي المجاور لحيهم من قبيلتي ضباب وضبة وقوله : من حان حانا ، أي من جاء أجله فهو لا بد هالك .
(٤) الشعر للقطامي الشاعر ، وهو شاعر جاهلي مشهور .

أما عرب لعراق ، فحلفاء الفرس ، وهم المناذرة ، وأما عرب بلاد الشام ، فحلفاء الروم ، وهم الغساسنة ، وكثيراً ما نشبت الحرب بين الغساسنة والمناذرة لا لمصلحة العرب ، بل لمصحة الفرس أو الروم ، أما المصلحة العربية فغائبة عن الميدان . أما عرب الجزيرة ، فهم تارة مع الفرس ، وتارة مع الروم ، ولم تقم لهم دولة بعد دولة الحضر التي قضى عليها سابور الأول (٢٤١ م - ٢٧٢ م) ، ومن يومها كانوا مع القوي الدي استولى على بلادهم ، على الضعيف الذي غادر بلادهم ، وكانوا يكدون ليدفعوا الضرائب الفادحة للحكام ، ويعاونون الإضطهاد الديني حتى من أبناء دينهم الروم ، لاختلاف المذاهب وما يجره احتلافها من ويلات .

وعرب الهلال الخصيب قبل الإسلام : العراق ، وبلاد الشام ، والجزيرة ، لا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة ، لأنهم يعملود لمصلحة الفرس والروم لا لمصلحتهم . فطاقاتهم مسخرة للأجنبي لا للعرب .

وجاء الإسلام ، فوحد عقائد العرب المتناقضة في

عقيدة واحدة هي : الإسلام ، بعد أن ألغى تلك العقائد الفاسدة ، ووحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وغرس فيهم روح الضبط والطاعة والنظام ، وطهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً ، وعلمهم التضحية من أجل المبادىء لا من أجل الأهواء ومن أجل المصلحة العامة للمسلمين لا من أجل المصلحة الشخصية للأفراد أو الجماعات ، فأصبحت لذلك كله وبذلك كله قوتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام واحد ، وطاعة عالية ، بقيادة واحدة ، لهدف واحد ، وبذلك أصبح العرب قوة منظمة هائلة ، وجدت لها متنفساً في توحيد الجزيرة العربية أولاً ، وفي الفتح الإسلامي ثانياً ، وأصبح العرب بعد الإسلام ، غير العرب قبل الإسلام قوة واقتداراً ومُثلاً عُليا .

ولكن الروم استهانوا بالعرب بعد الإسلام ، كما استهانوا بهم قبل الإسلام ، ولم يكتشفوا أثر الإسلام في العرب بالرغم من النذر المباشرة التي كشفها العرب المسلمون للروم وحلفائهم من الغساسنة والقبائل العربية الأخرى على عهد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ،

فكانت تلك لإستهانة التي لا مسوغ لها هي الخطأ السوقي العظيم الذي وقع فيه الروم والذي لم يستطيعوا تلافيه ولا إصلاحه أبداً ، وأدى فيما أدى إليه إلى فتح المسلمين لممتلكات الروم خارج بلادهم الأصلية ، وفتح جزء من بلادهم أيضاً .

لقد كانت السرايا التي بعثها النبي ﷺ للتعرض بحلفاء الروم من القبائل العربية على تخوم بلاد الشام الجنوبية ، إنذاراً مباشراً للروم بصحوة العرب بعد الإسلام ، تلك السرايا التي كانت قبل سرية مؤتة مباشرة كما هو معروف .

وإلى جانب تبليغ الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم المعروفين في حينه من النبي ﷺ ، فقد كان قائداً لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني يحط من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها ، فلم يسكت إزاء استشهاد رسوله الحارث بن عُمير الأزدي[1] الذي بعثه إلى ملك

---

(١) الحارث بن عمير الأزدي : أنظر سيرته في الاستيعاب (١/ ٢٩٧) وأسد الغابة (١/ ٣٤١) والإصابة (١/ ٢٩٩) .

الغسسنة في بصرى ، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩ م) أحد قادته المقربين إليه ، وهو زيد بن حارثة الكلبي ، على رأس سرية تعدادها ثلاثة آلاف مجاهد إلى الحدود الشمالية الغربية من بلاد العرب . وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، التقى المسلمون بقوات الروم

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها سرية مؤتة ، إلا أن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم في تلك السرية غارة من الغارات التي اعتاد البدو على شنها للنهب والسلب ، كانت سرية زيد هذه في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها . فهي حرب منظمة كانت لها مهمة خاصة ، جعلت العرب المسلمين يتطلعون جدياً لفتح بلاد الشام .

وفي السنة التالية ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠ م) ، قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة تبوك ، فأظهر قوة المسلمين للروم وحلفائهم بخاصة ، وللمشركين وغير المسلمين من أهل الكتاب بعامة ، ثم عاد أدراجه إلى المدينة المنورة .

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢ م)، أعد لنبي ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد[1] المهاجمة الروم، غير أن النبي ﷺ التحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من تلك السنة (كانون أول ـ ديسمبر ـ ٦٣٢ م) قبل حركة جيش أسامة إلى هدفه، فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم، وولى وجوههم شطر هدف عينه لهم. . وهكذا وقف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بثاقب نظرة على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوته إنما موطنها أرض الشام حيث الروم وحلفاؤهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي في أرض الروم صدق هذه الإشارة، فكان الروم أشد المحاربين عناداً.

ولكن الروم يقدر اهتمام العرب المسلمين بهم، وإعداد العدة لهم، واستكمال الإستحضارات لقتالهم، كانوا لا يزالون يتصورون أنه لا فرق بين العرب قبل

---

(١) أنظر ترجمته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٣٣ ـ ٥١).

الإسلام وبين العرب بعد الإسلام ، وأن الحرب التي يشنها العرب المسلمون كالحرب التي كان يشنها العرب قبل الإسلام ، فالحرب العربية غارات تلتهب بسرعة وتخمد بسرعة دون أن تترك أثراً ولا تأثيراً ، فكانت استهانة الروم بالعرب بقدر هتمام العرب بالروم والإستعداد الكامل المفصل لحربهم .

ويبدو أن من أسباب استهانة الروم بالعرب ، خروج الروم من لحرب البيزنطية الفارسية (٦١٠ م - ٦٢٨ م) منتصرين على الفرس ، وبذلك أصبحوا أقوى دول العالم في حينه ، فمن يكون العرب لضعفاء إلى جانب الروم الأقوياء ! كما أن النصر - وبخاصة في حرب طويلة الأمد - على دولة قوية كالأمبراطورية الساسانية ، يؤدي إلى الغرور الذي من نتائجه الإستهانة بالأعداء ، ويؤدي إلى الإسترخاء للتمتع بثمرات النصر اليانعة .

والحق أن العرب غير المسلمين ، استهولوا قتال الروم ، فقال قائلهم وهم يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : « أتحسَبون جِلادَ بني الأصفر (أي الروم) كقتال العرب بعضهم

بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبل » ، ارجافاً وترهيباً للمؤمنين[1] ، فما كان هؤلاء لعرب الذين لم يسلموا يصدقون بأن العرب المسلمين قادرون على حرب الروم ، ولكن العرب لمسلمين كانوا واثقين بنصر الله ، فإذا كان العرب أنفسهم يستهينون ببعضهم إلى هذا الحد ، فلا لوم على الروم في استهانتهم بالعرب أيضاً

والدرس الأول الذي نتعلمه ، هو أن الإستهانة بالعدو ، تؤدي إلى أوخم العوقب ، وأن القوي مهم يبلغ من القوة ، لا عذر له في الإستهانة بالضعيف مهما يبلغ من الضعف ، والحكمة كل الحكمة في المثل العربي القديم : « إذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » .

وكان الأجدر بالروم وحلفائهم ألا يستهينوا بالعرب المسلمين وأن يتدبروا أثر الإسلام في العرب بجدية وحزم ، ويعدوا للعرب المسلمين ويستعدوا لهم من بعد سرية حسمى بقيادة زيد بن حارثة الكلبي التي كانت في شهر جمادى الآخرة من سنة ست الهجرية ، حيث

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٠) .

انكشفت نيات العرب المسلمين في تصديهم للروم وحلفائهم العرب غير المسلمين ، أو بعد السفارة النبوية إلى ملك الغساسنة وأمبراطور الروم هرقل التي كانت في أواخر السنة السادسة الهجرية وأوائل السنة السابعة ، لأن تعاليم الإسلام في الجهاد : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، قد انكشفت أيضاً . إلا أن الروم لم يعدوا ويستعدوا للمسلمين من العرب إلا في سنة ثلاث عشرة الهجرية قبيل معركة اليرموك الحاسمة ، فخسروا خمس سنوات في سبات وغفلة ، وكان العرب المسلمون سنة ثلاث عشرة الهجرية غير العرب المسلمين سنة ست الهجرية ، إذ أصبحوا أكثر عدداً وعُدَداً أو أقوى ساعداً ومدداً ، وأكثر خبرة ورشداً ، وكان القطار بعد يقظة الروم من إغفاءتهم الطويلة قد فاتهم إلى غير رجعة .

ومن تجارب الأمم المفيدة التي استخلصتها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً ، أن الإستهانة بالعدو تؤدي إلى اندحار في الحرب ، وأن في تقدير الموقف للقضايا المصيرية ـ ومنها الحرب ـ يجب أن يضع أسوأ الإحتمالات في الحسبان ، فإذا كان هناك خطر يتهدد

الأمة في مصيرها بمعدل واحد بالمئة ، فلا بد من اعتبار ذلك الخطر مئة بالمئة ، والإعداد والإستعداد بالنسبة لمئة بالمئة لدرء هذا الخطر ، إذ لا ضرر من المبالغة بالحذر واليقظة ، وإنما الضرر بالغفلة والإسترخاء .

والدرس الثاني الذي نتعلمه ، هو أن الإختلافات المذهبية في الدين الواحد ، قد تجر إلى عواقب وخيمة تضر بحاضر الأمة ومستقبلها وتفرق وحدة البلاد .

لقد كان من الطبيعي جداً أن يؤدي دخول الفُرس إلى سورياولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، إلى اضطهاد أبناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً أن يؤدي ذلك إلى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الوحدة . والواقع أنه لما عاد الروم إلى هذه الأقطار ، وجدوا أن جميع بطاركتها هم من أتباع الطبيعة الواحدة ، فعادوا إلى معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف[1] ، ولكن الأمبراطور وأهل دولته

---

(١) الروم (١/ ٢٣٠ - ٢٣١) .

يقولون : أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، أما رعايته في مصر والشام والجزيرة ، فكان أكثرهم يقول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة ، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف وافق هرقل بالقول : بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، لغرض التوفيق بين المسيحيين من رعايا الروم . ونشر الأمبراطور مشوراً بهذا المعتقد ، فقبل به أكثر الأساقفة الشرقيين إلا بطريرك القدس وغيره ، فشق ذلك على الأمبراطور ، وعمل على الإنتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم . وأصبح الإنقسام مزدوجاً : الأمبراطور ومن والاه في ناحية ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل سورية ومصر في ناحية ، والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة في ناحية ثالثة ، فضلاً عن طوائف أخرى منهم الخياليون الذين يقولون بأن المسيح لم يُصلب حقيقة ، و إنما صلب رجل آخر مكانه ، ومنهم القائلون بعدم الخضوع للرؤساء ، ثم أن ايعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه .

وكان لهذه الإنقسامات تأثير شديد في السياسة ،

لإختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل الأمر أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى حوزة الفرس ، كما حصل بالأرمن ، فإنه لما حرم المجمع القسطنطيني القول بالطبيعة لواحدة ، جعل لأمبراطور يشدد النكير على متبعيها والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفُرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها[1] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً ، كما لم يقاتل أهل الجزيرة دفاعاً عن بلادهم كما ينبغي ، ولم يسندوا الروم بقوة وأمنة كما يجب ، «فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً»[2] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً أيضاً

ولكن التناقض المذهبي كان سبباً واحداً من أسباب فتح أرض لشام ومصر والجزيرة ، فهناك أسباب كثيرة لهذا الفتح ، لعل أهمها : الحرب العادلة التي خاضها

---

(١) التمدن الإسلامي (١/ ٤٢) ـ جرجي زيدان ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩١٤ .

(٢) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢) .

المسلمون حينذاك ، فلا ظلم ولا عدوان ولا انتهاك للأعراض ، ولا انتهاب للأموال ، بعكس الروم الذين كانوا يظلمون ويعتدون وينتهكون الأعراض وينتهبون الأموال . ومن أسبابها العدل الذي أشاعه المسلمون في البلاد لمفتوحة ، والتسامح الذي لمسه أهل تلك البلاد ، والمُثل العليا التي كان المسلمون نماذج حية لها تمشي على الأرض « وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وقد ترك العربُ الناسَ أحراراً في أمور دينهم ، وأظل العربُ أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة »[1] ، « من ذلك أن عمر بن الخطاب لما دخل القُدس ، أبدى من التسامح نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم وعاداتهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم »[2] ، «والفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم

---

(١) حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص (١٦٩) .

(٢) حضارة العرب (١٦٨)

الأخرى ، ذلك أن العرب أنشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الإختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من اقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفُرس الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم »[1] . « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب »[2] ، وقد ذكرت شهادة غير عربي ولا مسلم ، لأن فضل العرب المسلمين في هذا المجال كان واضحاً معروفاً لا يخفى على صديقٍ وغير صديق فلا يمكن إخفاء الشمس في وضح النهار .

وقد ذاع خبر العدل والتسامح والمثل الإسلامية العليا التي يتحلى بها المسلمون في حربهم وسلامهم ،

---

(١) حضارة العرب (١٥٣) .

(٢) حضارة العرب (٢٢٥ ـ ٢٣٥) ، وانظر فصل : الفتوح الإسلامية ومعاملة العرب للأمم المغلوبة من كتاب : أصالة الحضارة العربية (٢٤٠ ـ ٢٤٣)

ـ الدكتور ناجي معروف ـ بيروت ـ ١٣٩٥ هـ ـ ط ٣

فسهلت تلك الأخبار الطيبة على المسلمين مهمة الفتح ، وجعلت كفتهم ترجح على كفة الروم في ميزان الحق والعدل والإنصف .

لقد انتصر العرب المسلمون الأولون بسمعتهم الحسنة في العدل والتسامح ومكرم الأخلاق على الروم والفُرس وحلفائهم ، أكثر من انتصارهم بالقوة الضاربة ، والمُثل العليا تبقى ، والقوة الضاربة لا تبقى .

وإذا كنا قد تعلمت من الروم درساً حيوياً يبرز محاذير التناحر المذهبي وأثرها المدمر في حاضر الأمه ومستقبلها ، فعلينا أن نتعلم من أحدادنا العرب المسلمين في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي ، أنهم انتصروا بالجهاد الذي هو الحرب العادلة لتكون كلمة الله هي العليا ، إن (الفتح) سيف وكتاب ، والسيف يتبدد أثره ، والكتاب لا يتبدد أثره أبداً ، والفرق بين الفتح وبين الإستيلاء أو السيطرة ، هو أن الفتح قتال ومبادىء ، وغيره قتال بدون مبادىء ، وكل فتح تحرير ، ولكن ليس كل تحرير فتحاً ، وغيره قتال بدون مبادىء ، وكل تحرير

فتح ، ولكن ليس كل تحرير فتحاً ، فقد يكون التحرير بالقوة وحدها دون مبادىء ، وحين عاد النبي ﷺ إلى مكة المكرمة وهي بلده الأمين منتصراً ، سميت عودته : فتح مكة ، وسماها الله في كتابه العزيز فتحاً فقال : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾[1] ، وفي القرآن الكريم سورة الفتح ، وقد وردت مادة (فَتَحَ) في الكتاب العزيز بنحو ثمان وثلاثين آية ، منها سبع عشرة آية في معنى (الفتح)[2] الذي هو الجهاد لإعلاء كلمة الله بالإقناع لا بالإكراه ، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتعسف والعنف ، إذ (لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي)[3] .

وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلوا ، وما كنت أعلم أنهم يريدون ترك حتى لفظة الجهاد وما يتبعها من كلمات ذات معانٍ إسلامية خاصة كالفتح ،

---

(١) الآية الكريمة في سورة الفتح (٤٨ : ١)

(٢) أنظر التفصيل في . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٥١٠ ـ ٥١١) ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

(٣) الآية الكريمة في سورة البقرة (٢ / ٢٥٦)

بحجة أن الجهاد يحمل معنى الإعتداء وأن الفتح يحمل معنى الإستيلاء ، والجهاد والفتح لا يحملان مثل هذين المعنيين إلا في فكر أعداء الإسلام وحدهم ، وما معنى التحرير إلا نقطة في بحر معاني الفتح ، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ولما ترك المسلمون فرض الجهاد ، ضعفوا وذلوا واستهانت بهم الأمم ، وتفرقت كلمتهم وتشتت شملهم ، وأخذوا يقتتلون فيما بينهم ، ونسوا أعداءهم الحقيقيين وشغلوا بأخوانهم وأشقائهم ، حتى هانوا على أعدائهم ، وخسروا ما فتحوه بالتدريج .

لقد استعاد نقفور أمبراطور الروم (نيقيفوريوس فوقاس ٩٦٣ م - ٩٦٩ م) المصيصة وطرسوس من المسلمين سنة أربع وخمسين وثلاثمائة الهجرية[1] (٩٦٥ م) ، فذكر ياقوت الحموي في كتابه : (معجم البلدان) وصفاً لاحتلال نقفور لمدينة طرسوس فقال : « . . . فإن نقفور ملك الروم استولى على الثغور ،

---

(١) ابن الأثير (٨/ ٥٦٠) .

فاستولى على المصيصة ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قِبَل سيف الدولة رجل يقال له : ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه ، فسلما إليه المدينة على الأمان والصلح على أن مَنْ خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين وورق أو خرثي[1] ، وما لم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع . واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأنه من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل ، وإن تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته . . . .

وخرج أكثر الناس يقصدن بلاد الإسلام وتفرقوا فيها ، وملك نقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرب المساجد ، وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جُمع من أيام بني أُمَيَّة إلى هذه الغاية . . . . ودخل الروم إلى طرسوس ، فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ، ثم يتوكل ببابها ، ولا يطلق لصاحبها

---

(١) الخرثي : اثاث البيت .

إلا حمل الخِف[1] ، فإن تجاوز منعه ، حتى إذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها . . . . هذا والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (يريد فرض الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »[2] ، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً والسيد عبداً والعزيز ذليلاً ، لأن المسلمين تركوا دينهم الذي قادهم إلى النصر ، وإلى الوحدة والتوحيد ، وتخلوا عن فريضة الجهاد ، فتداعت عليهم الأمم

أما في القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، فقد خسر المسلمون ما فتحوه وأصبحت بلادهم مستعمرات للأجنبي ، واقتطع الصهيونية الأرض المقدسة من البلاد العربية .

واستمر العد التنازلي ، حتى كانت سنة اثنتين

---

(١) الخِف : كل شيء خف محمله .

(٢) معجم البلدان (٦ / ٣٩ - ٤٠) .

وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٢ م) سنة مذابح مخيمات صبرا وشاتيلا في بيروت ومذابح الأشقاء اللبنانيين من المسلمين بأيدي الصهاينة وعملائهم .

أما في سنة ثلاث وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٣ م) ، فقد كانت سنة قتال الأشقاء الفلسطينيين مع بعضهم في طرابلس اللبنانية ، مما أثلج قلوب الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين

وحين قرأت ما كتبه ياقوت في معجم البلدان ، قلت لنفسي : « ما أشبه الليلة بالبارحة »

إن عبرة فتح بلاد الروم يمكن اجمالها في أربعة دروس رئيسة - درسان من الروم ، ودرسان من العرب .

لدرس الأول من الروم ، هو أن الإستهانة بالعدو تقود إلى الهزيمة ، ولا عذر بضعف العدو وقلته ، فالفئة القليلة المنظمة المستعدة ، تتغلب على الفئة الكبيرة غير المنظمة وغير المستعدة . والدرس لثاني من الروم هو أن التناحر المذهبي ، يقود إلى الإندحار ، لأنه يفتت الأمة ويمحق التعاون فيما بينها في السلم والحرب .

والدرس الأول من المسلمين ، هو العودة إلى الجهاد الإسلامي الذي هو الحرب العادلة بما فيه من مُثل عُليا ووحدة واتحاد ، فما ترك الجهاد قوم إلا ذلوا وتفرقوا . والدرس الثاني من المسلمين ، هو اتحادهم ، فما اتحدوا إلا انتصروا ، وما تفرقوا إلا انخذلوا ، وفوائد الوحدة لا تحتاج إلى بيان .

كما نتعلم من هذه الدراسة درسين حيويين آخرين من المسلمين والروم : الأول هو أن الهجوم أنجع وسائل الدفاع ، وهو من الدروس السوقية التي نتعلمها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً بعامة ومن حرب المسلمين على الروم وحرب الروم على المسلمين بخاصة .

فقد شحن المسلمون الثغور بالمجاهدين الذين يرابطون في تلك الثغور للدفاع عنها وصد هجوم الروم عليها شتاءاً وصيفاً . وجعلوا من هذه الثغور قواعد متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها في الصوائف للهجوم على مدن الروم القريبة أو البعيدة ، بقصد إظهار قوة المسلمين ومنعتهم ويقظتهم ، وتفريق حشود الروم وضربها في عقر دارها في حالة تحشدها للتعرض بالبلاد الإسلامية قبل أن

تتعرض بالمسلمين ، وبذلك ينقلون ساحة المعارك من بلاد المسلمين إلى بلاد الروم ، ويحملون الروم نتائج تلك المعرك مادياً ومعنوياً .

وكانت صوائف المسلمين تغزو بلاد الروم سنوياً ، ما دام المسلمون أقوياء متحدين ، يتقبلون الجهاد ويُقبلون عليه بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والعناء .

أما في حالة ضعف المسلمين وتفرقهم ، فإن الروم يغزونهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكان الأسلوب التعرضي أنجح وسائل الدفاع بالنسبة للمسلمين والروم أيضاً .

وقد كانت الثغور آمنة مطمئنة ، حين كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين للدفاع المحلي ، وبالصوائف التي تعبر الحدود سنوياً للدفاع السوقي عن الثغور وعن بلاد المسلمين . ثم أصبحت تلك الثغور غير آمنة ولا مطمئنة بعد أن خلت من المدافعين عنها ، وتقاعس المسلمون عن غزواتهم الصيفية ، فأصبحت مكشوفة

للروم ، واستطاعوا احتلال قسم منها ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل .

أما الدرس لحبوي الثاني ، فهو أن الروم لم يكونوا ضعفاء في أيام الفتح الإسلامي ، ولم يكن جيشهم ضعيفاً ولا قيادتهم ضعيفة ، كما يدعي الأجانب من المؤرخين القُدامى والمحدثين .

فقد كان الروم على جانب عظيم من الحضارة كما رأينا ، وكان جيشهم أقوى جيش في العالم ، وحسبه أنه دحر الجيش الساساني وانتصر عليه ، حتى هدد عاصمة ملكه ، واستعاد البلاد التي احتلها الفُرس ، وأصبح القوة العالمية التي لا تنافس في حينه . كما كان هرقل أمبراطور الروم المنتصر من ألمع قادة الروم وأكثرهم كفاية واقتداراً ، وقد أحرز بانتصاراته الباهرة على الفرس سمعة في القيادة لا مثيل لها في أباطرة الروم . وهدف الذين يدعون أن الروم كانوا ضعفاء أيام الفتح لإسلامي واضح مفهوم ، ولكن هدف الذين يرددون هذا الادعاء المتهافت غير واضح ولا مفهوم ، إلا أن يكون تقليداً لكل أجنبي أو جهلاً بالواقع والتاريخ ، أو عمالةً لأعداء

العرب والمسلمين ، أو بكل تلك الأسباب مجتمعة كأنها ظلمات بعضها فوق بعض .

لقد نتصر الفاتحون لأنهم كنوا متفوقين على الروم بمعنوياتهم العالية التي غرسها الدين الحنيف في المسلمين الأولين ، وما أصدق حالد بن الوليد في قولته حين سمع رجلاً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » ، فأجابه فوراً : « بل ما أقل الروم ! وأكثر المسلمين ! ! إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخدلان » .

وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين بانتصاراتهم الباهرة ، وما أعظمها وأبقاها من انتصارات .

مجمل الفتوح

التسلسل	إسم المدينة	إسم القائد	الملحوظات
١	أنطاكية	أبو عبيدة بن الجراح	
٢	مرعش	خالد بن الوليد	
١ ٢ ٣ ٤	شمشاط ملطية سيواس وقونية أقصرا حتى خليج القسطنطينية	حبيب بن مسلمه	من سيواس إلى خليج القسطنطينية بالتعاون مع سلمان بن ربيعة
١ ٢ ٣	سيواس قونية أقصرا حتى خليج القسطنطينية	سلمان بن ربيعة	بالتعاون مع حبيب بن مسلمة .

١	مرعش	محمد بن مروان بن الحكم	استعادة فتح مناطق هاتين المدينتين
٢	ملطية		
١	حصن بولق	مسلمة بن عبد الملك بن مروان	
٢	حصن الأخرم		
٣	حصن بولس		
٤	طوانة		
٥	جرثومة		
٦	حصن قسطنطين		
٧	حصن غزالة		
٨	عمورية		
٩	هرقلة		
١٠	قمونية		
١١	الحصون الخمسة بسورية		
١٢	سوسنة		
١٣	ماسة		

التسلسل	إسم المدينة	إسم القائد	الملحوظات
١٤	حصن الحديد		
١٥	برحمة		
١٦	سندرة		
١٧	حصن الوصاح		
١٨	حصن ابن عوف		
١٩	سرورا		
٢٠	حصن الصقالبة		
٢١	حصار القسطنطينية		
١	حصن سنان	عبد الله بن عبد الملك بن مروان بن الحكم	
٢	طرندة		
٣	المصيصة		

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧	 أذرولية سميساط المرزبانين طرسوس (طولس) فارطة رسلة = دلسة = واسى	العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان	فتح طوانة مع مسلمة بن عبد الملك
١	حصن غزالة	عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان	فتحه مسلمة وأعاد عبد العزيز فتحه
١ ٢ ٣	حصن المرأة حصن الأجرب حصن القسطنطينية	داؤد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان	بأمرة مسلمة بن عبد الملك

التسلسل	إسم المدينة	إسم القائد	الملحوظات
١ ٢ ٣ ٤ ٥	حصن طيبة حصن صملة = صمالو حصن البوة خرشنة ربض أقرن	معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان	
١	قونية	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	أعاد فتح هذه المدينة وله فتوح كثيرة في مناطق أخرى .
١	القسطنطينية	محمد الفاتح	

هرقل ملك الروم

٦١٠ م - ٦٤١ م

تولى هرقل الحكم بعد فوكاس ، فقد بعث هرقل حاكم افريقيا للروم إبنه هرقل على رأس أسطول بيزنطي إلى القسطنطينية ، ولقى هرقل الترحيب من جميع الناس . وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠ م ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له ، على أنه مخلص البلاد ومنقذها . فعمل هرقل على التعجيل بإنهاء حكم فوكاس . وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠ م ، تلقى هرقل التاج من يد البطريرك ، ثم أمر باعدام فوكاس وتحطيم تمثاله المقام في ميدان السباق .

وألف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً إلى أصل أرمني ، وحكم هرقل من

سنة ٦١٠ م حتى سنة ٦٤١ م .

ويعتبر هرقل أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين ، الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ روما مثالاً له في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً وذهباً ، وأجرى في ذ تها من المواهب والموارد ، وأجرى في داخل الأمبراطورية حركة تجديدية ناشطة ، وكانت بيزنطة قد أدخرت في ذاتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة إجتماعية سياسية ثقافية عسكرية .

وكان الصقالبة قد استولوا على معظم ممتلكات الأمبراطورية ، واصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لا سيما داخلها ، إقليماً صقلبياً .

أما الفرس ، فأخذوا يتوغلون في الشرق الأدنى منذ سنة ٦١١ م . فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالاً

فاستولوا على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من أرمينيا . وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع ، فجعلوا المدينة نهباً للحريق ولمذابح ثلاثة أيام ، ودمر الحريق كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين لكبير ، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة ، لا سيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبوت) الذي يعتبره المسيحيون أثمن المقدسات الدينية ، استولى عليه الفرس ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن .

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة ٦١٢ م إلى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور ، وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية ، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : إذ زحف عليها من الشمال الصقالبة والآفار .

وشرع الفرس بغزو مصر ، فسقطت في أيديهم الإسكندرية سنة ٦١٩ م ، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس .

وبدأ هرقل بإجراء إصلاحات عسكرية وإدارية شاملة ، وكن من نتائج هذه الإصلاحات تغلب لصفة العسكرية عىی إدارة الأمبراطورية ، وإعادة تنظيم القوات المسلحة ، وكانت نتائج هذه الإصلاحات واضحة ملموسة ، فنهضت الأمبراطورية من حديد ، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة مكرة بفضل جهود هرقل التنظيمية وقيادته المتميزة .

كما أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فما أحرزته الأمبراطورية من الفوز والنجاح ، إذ جعست كل ما لديه من ثروة تحت تصرف الحكومة ، وما كان في كنائس العصمة والأقاليم من التحف المصوعة من الذهب والفضة جرى صهرها وسكها نقوداً .

وقرر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس ، وطغى على الحرب في مستهلها جو من الحماسة الدينيه التي لم تكن معروفة في العصور الماصية ، فكانت حرباً صليبية سبقة على الحروب الصليبية المعروفة .

وفي يوم الأثنين ٣ نيسان (أبريل) سنة ٦٢٢ م ،

غادر هرقل القائد العام للحشد البيزنطي العاصمة بعد أن أدى القداس ، وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث لجأ إلى جهات الثغور البيزنطية ، فاجتمع له عدد كبير من الجند . وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند ، وعكف على دراسة الخطط العسكرية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال ، وأبدى هرقل اهتماماً كبيراً ، بالرماة من الفرسان .

وبدأ هرقل في الخريف حملته ، فشق طريقه إلى أرمينيا ، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضها ، فانتصر الروم على الفرس هناك انتصاراً حاسماً ، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف هرقل ، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو .

وفي سنة ٦٢٣ م سار هرقل إلى أرمينيا ، فأحرز انتصارات على الفرس هناك ، ثم توجه نحو الجنوب ، فزحف على (جانزاك Ganzak لـ ع ف ا ل ـ أول ملوك الساسانيين ـ وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسة في فارس ، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن

سقطت بيد الروم ، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاماً لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب ، ووقع بيد هرقل عدد لا حصر له من الأسرى .

ودارت خلال سنتي ٦٢٤ م و ٦٢٥ م معارك طاحنة في أرمينيا بين الروم والفرس ، كانت الكفة راجحة فيها للروم على الفرس .

وفي سنة ٦٢٦م تعرضت القسطنطينية لهجوم مزدوج من الفرس والآفار ، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الروم في نهاية المعارك .

وفي سنة ٦٢٧م ، شرع هرقل بزحفة الكبير نحو الجنوب متجهاً إلى قلب بلاد الفرس ، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من هذه السنة أحرز انتصاراً حاسماً على الفرس في معركة نينوى التي قررت مصير النزاع بين الفرس والروم نهائياً في مصلحة الروم ، إذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً على الفرس . وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة .

وواصل هرقل زحفه المظفر . وفي أول سنة ٦٢٨ م استولى على داستاجرد مقر ملك الفرس ، فأسرع الملك بالخروج منها ، مما أدى إلى عزل كسرى وقتله ، فتولى الحكم بعده ابنه ، وعقد الصلح مع هرقل .

وبمقتضى هذا الصلح ، استرد هرقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وأرمينيا وسورية وفلسطين ومصر ، وأعلن كسرى (شيرويه) أثناء مرضه الذي مات فيه ، بأن يكون هرقل وصياً على إبنه ، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أن الأمبراطور البيزنطي ليس إلا عبداً له ، فتغير الزمن وانعكس الوضع ، فأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه في الحكم عبد للأمبراطور البيزنطي هرقل ، وهكذا غير هرقل موازين القوى من حال إلى حال ، فأصبح المغلوب غالباً ، والعبد سيداً .

وعاد هرقل إلى عاصمته ، بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله إبنه على شواطىء آسيا الصغرى ، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب ، يحملون أغصان الزيتون والشموع الموقدة ، يرتدون المزامير ، ويهتفون

باسمه فرحاً وسروراً .

ولما تحررت الأقاليم البيزنطية من الفرس ، ارتحل هرقل وبصحبته زوجته ، سنة ٦٣٠م ، قاصداً بيت المقدس ، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) سنة ٦٣٠ م ، وفي وسط مظاهر الفرح الغامر ، إقامة الصليب الذي كان قد غنمه الفرس في موضعه ، كما أعاد إلى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنيسة ، واعتبر المؤرخون أن هذه الحرب أول حرب مقدسة شنها العالم المسيحي ضد غيرهم من غير المسيحيين .

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي الفارسي أيضاً ، إذ أن معركة نينوى حطمت قوة الفرس ، ولم يعد لفارس ما كان لها من الأهمية . أما الآفار ، فإن كبرياءهم هوت إلى الحضيض بفضل ما أحرزه عليهم البيزنطيون من انتصارات في معركة القسطنطينية . وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر ، ذروة القوة والمجد وذاع إسمها فيما وراء الحدود ، فأرسل ملك الهند إلى هرقل يهنئه بالنصر ، ويبعث له بهدية حافلة من الأحجار الكريمة ،

وأنفذ دابوجرت ملك الفرنجة السفراء لعقد صلح دائم مع الامبرطورية البيزنطية ، وأرسلت بوران ملكة فارس مبعوثاً خاصاً إلى هرقل ليبرم معاهدة الصلح .

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية من النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية ، إذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطي ، وقد اتحد ظهور العصر اليوناني وقوة المؤثر الكنسي ، فوهبا الأمبراطورية مظهراً جديداً .

وحين بدأ الصراع بين العرب المسلمين من جهة والروم من جهة ، كان الروم أقوى دولة في العالم دون منازع ، يقودهم هرقل أعظم أباطرة الروم وقادتهم ، وكانت معنويات الروم قادة وجنوداً عالية جداً بعد انتصارهم على الفرس والأفار ، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء وأعرف بأساليب القتال وأعظم تجربة عملية في الحرب ، وأكثر عدداً وأغنى مدداً ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرغم من قوة في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بهما

كما يزعم قسم من المستشرقين وقسم من المستغربين .

وقد حاولت أن أسجل سيرة حياة هرقل الذي أرسل إليه النبي ﷺ رسولاً يدعوه وقومه إلى الإسلام . لكي أظهر تهافت ادعاء أولئك المستشرقين والمستغربين الدي يزعم أن انتصار العرب المسلمين كان لضعف الروم قيادة وجيشاً ، ولم اعتمد على المصادر العربية والإسلامية في تسجيل هذه السيرة ، بل أعتمدت المصادر والمراجع الأحنبية ، حتى أبطل مزاعم المستشرقن والمستغرس ، وأبطل ما يمكن أن يرعمه المقلدون لهم من انحياز المصادر العربية والإسلامية للعرب المسلمين على الروم وتحيزهم لبني جلدتهم وعقيدتهم على الروم ، وعلى كل فالحق ظاهر ولا يمكن كتمانه ولو بعد حين .

وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١ م ، مات هرقل ، فارتجت القسطنطنية لموته ، وارتحت الأمراطورية البيزنطية خاصة والعالم المسيحي عام لرحيله ، إذ فقدت المسيحية بموته بطلاً من أبطالها المعدودين : منقذ القدس من الفرس .

المراجع

التي ورد ذكرها ـ باختصار ، أو بإسهاب ـ في :

كتب ، معجمات : بلغات أجنبية ، ومترجمة إلى العربية
المقالات .

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار :

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب :

(*) ما كتب باللغات الأجنبية ، شيء كثير جداً ، مبني
على الدراسة والمشاهدة للآثار المنسوجة .
والمختصون بشؤون المنسوجات قد وفوا هذا
الموضوع في كتبهم ومجلاتهم المختصة .

صور من حضارة العراق في العصور السالفة : صناعة الحياكة والنسج :

الكوفية والعقال :

ملابس العراقيين وأزياؤهم في العصور السالفة : 1

Baynes , N . H : the Byzantine Empire . London 1926 .

2 . Ostrogorowski , G : History of the Byzantine . Trans . Joan Hussey , Oxford 1956 .

3 .Vasiliev , A : The Byzantine Empire . Madison 1952

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني